http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج
المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلى
الموضوع : فقهى و تحليلى
القرن : الخامس عشر
الناشر : دار الفكر المعاصر
مكان الطبع : بيروت دمشق
سنة الطبع : ١٤١٨ ق
تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

ثم أعقبه بما يناسبه ويؤكده فقال : إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون ، والمراد بالأمر هنا الأمر التكويني ، لا الأمر التكليفي في مثل قوله تعالى :

أَقِيمُوا الصَّلاةَ وهذا تبيان لعظمة اللّه ، ونفاذ أمره ومشيئته ، وسرعة إنجاز مطلوبه ، تقريبا للأذهان ، وإلا فالإيجاد أسرع مما هو قائم بين حرفي

ج ٣ ، ص : ٢٣٢

كُنْ. وهو يشبه قوله تعالى : ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ ، فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قالَتا : أَتَيْنا طائِعِينَ [فصلت ٤١/ ١١].

وهناك خلق آخر أعظم من خلق عيسى وهو خلق آدم من غير أب ولا أم :

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران ٣/ ٥٩].

فهذه الأحوال في الخلق على نحو غير عادي دليل على قدرة اللّه المطلقة ، وإرادة تكميل الكون بعجائب المخلوقات.

ومن أوصاف عيسى : أن اللّه يعلمه الكتابة والخط ، والعلم النافع الذي يبعث النفس إلى تنفيذ الفعل ويرشد إلى أسرار الأحكام ، ويعرفه التوراة التي أنزلت على موسى ، والإنجيل الذي أوحي إليه.

وأنه رسول مرسل إلى بني إسرائيل ، مؤيد بآيات تدل على صدق رسالته وهي :

١- أنه يصور من الطين صورة على قدر معين كصورة الطير ، لا ينشئ ويخترع من الطين هيئة جديدة ، فينفخ فيه ، فيكون طيرا بقدرة اللّه ومشيئته ، لا بقدرته وأمره ، فإنه مخلوق لا يقدر على هذا.

روي أنهم طالبوه بخلق خفّاش ، فأخذ طينا وصوره ونفخ فيه ، فإذا هو يطير ، وهم ينظرونه ، فإذا غاب

عن أعينهم ، سقط ميتا ، ليتميز فعل المخلوق من فعل الخالق وهو اللّه تعالى ، وليعلم أن الكمال للّه.
قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم ، سقط ميتا ، ليتميز من خلق اللّه.

(٢٤٤/٣)

---

٢ ، ٣- ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن اللّه : وتخصيصهما بالذكر لأن مداواتهما أعيت الأطباء ، علما بأن الطب كان متقدما في زمن عيسى ، فأراهم
ج ٣ ، ص : ٢٣٣
اللّه المعجزة من جنس الطب. قال كثير من العلماء : بعث اللّه كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب في مصر على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه اللّه بمعجزة بهرت الأبصار ، وحيرت كل سحّار ، فلما استيقنوا أنها من عند اللّه العظيم الجبار ، انقادوا للإسلام ، وصاروا من عباد اللّه الأبرار. وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه ، إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبره. وقد أحيا صديقا له اسمه عازر ، وابن العجوز ، وابن العاشر ، فعاشوا وولد لهم ، وأحيا سام بن نوح ومات في الحال.
وكذلك محمد صلّى اللّه عليه وسلّم بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتحليق الشعراء ، فأتاهم بكتاب من اللّه عز وجل ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ، لم يستطيعوا أبدا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا.
٤- وأخبركم بما تأكلونه ، وما تخبئونه وتحفظونه للمستقبل في بيوتكم.
والفرق بين إخبار النبي بالمغيباب وإخبار المنجمين والكهنة : أن النبي يخبر بإعلام اللّه من غير اعتماد على شيء آخر ، أما الكاهن والمنجم فيعتمد على طرق الاحتيال واستخدام بعض الأسباب المؤدية إلى معرفته كالنجوم والجن وبعض الإنس.
إن في ذلك لدليلا قاطعا على صدق رسالتي ، إن كنتم مصدقين بآيات اللّه الباهرة ، مقرين بتوحيده وبقدرته الكاملة على كل شي ء.

(٢٤٥/٣)

٥- وجئتكم مصدقا لما تقدم من التوراة ، لا ناسخا لها ، ولا مخالفا أحكامها إلا ما خفف اللّه في الإنجيل مما كان مشددا عليهم فيها ، كما قال تعالى : وَلِأُحِلَّ

ج ٣ ، ص : ٢٣٤

لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ

أي بعض الطيبات التي كانت محرمة على بني إسرائيل بظلمهم ، كما قال تعالى : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ [النساء ٤/ ١٦٠] قيل : من ذلك : السمك ولحوم الإبل والشحوم والعمل يوم السبت.

وما عدا ذلك جئت متفقا مع التوراة في أصول الدين كالتوحيد والبعث وفضائل الأخلاق ، جاء في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام : « ما جئت لأنقض الناموس- أي شريعة التوراة- ولكن لأكمله » .

٦- وجئتكم بآية بعد آية من ربكم شاهدة على صدقي وصحة رسالتي. كرر ذلك للتأكيد وليبني عليه الأمر بالتقوى. وقد وحد الآية وهي آيات لأنها جنس واحد في الدلالة على رسالته.

فاتقوا اللّه في المخالفة ، وأطيعوا فيما أدعوكم إليه وهو توحيد الإله : إن اللّه ربي وربكم ، فاعبدوه ، وهذا هو الطريق السوي الذي اتفقت عليه الرسل قاطبة ، وهو المؤدي إلى خيري الدنيا والآخرة ، فمن تعدى ذلك فهو في ضلال.

ففي هذا تلخيص لمهمة الرسالة وهي الأمر بالتقوى وإطاعة اللّه ، والإقرار بالتوحيد : توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، والاعتراف بالعبودية والخضوع للّه ، وهو منهج الحق المبين في مريم وابنها.

وهذا موجود في الإنجيل لأن فيه : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم.

والأب : السيد في تلك اللغة ، بدليل أنه قال : وأبي وأبيكم ، فعلم أنه لم يرد به الأبوة المقتضية للبنوة.

فقه الحياة أو الأحكام :

ذكرت الآيات بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بأنه سيوجد منها ولد

ج ٣ ، ص : ٢٣٥

عظيم ، له شأن كبير ، يكون وجوده بكلمة من اللّه أي يقول له : كن فيكون ، واسمه المسيح مشهور في الدنيا يعرفه المؤمنون ، وله وجاهة ومكانة عند اللّه في الدنيا بما يوحيه اللّه إليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب والحكمة ، وله وجاهة في الآخرة يشفع عند اللّه فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة

بإخوانه أولي العزم من الرسل عليهم السلام.
ويدعو إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له في حال صغره ، وفي حال كهولته حين يوحي اللّه إليه ، وهو صالح القول والعمل.
روى محمد بن إسحاق عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى وصاحب جريج » .
و
روى مسلم وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاث : عيسى ، وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر » .
وهذا حصر نسبي في وقت ما ، ثم أخبر اللّه نبيه في وقت آخر بآخرين ، ومجموعهم سبعة : شاهد يوسف ، وصبي ماشطة امرأة فرعون ، وعيسى ، ويحيى ، وصاحب جريج ، وصاحب الجبار ، وصبي قصة الأخدود : وهو- كما في مسلم وغيره- أن امرأة جيء بها لتلقى في النار على إيمانها ومعها صبي يرضع ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال الغلام : يا أمّه ، اصبري ، فإنك على الحق.
ودل قوله تعالى : كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ على أن أمر اللّه عظيم لا يعجزه شي ء. وأكده بقوله : إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ فلا يتأخر شيئا ، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة ، كقوله : وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ [القمر ٥٤/ ٥٠]. أي إنما نأمر مرة واحدة دون تكرار ولا تثنية ، فيكون ذلك الشيء سريعا كلمح البصر.
ودلت الآيات على خصائص عيسى عليه السلام وما أيده اللّه به من معجزات
ج ٣ ، ص : ٢٣٦

خارقة للعادة ، وهي كلها من صنع اللّه مباشرة ، ومعناها سنة جديدة بخلاف كل ما نراه يوميا من عظة وعظمة.
وكان عيسى أحد الرسل إلى بني إسرائيل. روي أن الوحي أتاه وهو ابن ثلاثين سنة ، وكانت نبوته ثلاث سنين ، ثم رفع إلى السماء.
ولا تختلف دعوة عيسى عن دعوات سائر الأنبياء ، كما أوضحت هذه الآيات ، فهو يدعو إلى تقوى اللّه وطاعته فيما جاء به عنه ، ويأمر بالتوحيد والاعتراف بالعبودية للّه ، وذلك هو الصراط المستقيم أي أقرب طريق موصل إلى اللّه تعالى.
عيسى مع قومه المؤمنين والكفار [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥٢ الى ٥٨]

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥(٢) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥(٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٥(٤) إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٥٦)

وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

ج ٣ ، ص : ٢٣٧

الإعراب :

إِذْ قالَ اللَّهُ إذ : تتعلق بفعل مقدر ، تقديره : اذكر أني متوفيك ورافعك إليّ وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا فيه وجهان : إما أنه معطوف على ما قبله ، وهو خطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وما قبله خطاب لعيسى ، وإما أنه معطوف على مُتَوَفِّيكَ وكلاهما لعيسى.

مِنَ الْآياتِ حال من الهاء في نَتْلُوهُ وعامله ما في ذلك من معنى الإشارة.

البلاغة :

فَلَمَّا أَحَسَّ استعارة ، إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يعلم ويفطن به.

وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ من باب المشاكلة. ويوجد جناس اشتقاق بين مَكَرُوا والْماكِرِينَ.

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة ، تنويعا للفصاحة.

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب.

المفردات اللغوية :

أَحَسَّ علم علما لا شبهة فيه ، كعلم ما يدرك بالحواس. واستعمالها في إدراك الأمور المعنوية مجاز مَنْ أَنْصارِي أعواني إِلَى اللَّهِ أي مع اللّه ، فإلى بمعنى مع ، أو من أعواني في السبيل إلى اللّه لأنه دعاهم إلى اللّه عز وجل ، أو من يضم نصرته إلى نصرة اللّه عز وجل.

قالَ الْحَوارِيُّونَ : واحدهم حواري ، وحواري الرجل : صفيّه وناصره ، فالحواريون : هم أصحاب عيسى وأنصاره وأصفياؤه. والحور : البياض الخالص ، وصفوا به لبياض قلوبهم وصفاء سريرتهم « ١ » .

ورد في الصحيحين : « لكل نبي حواري ، وحواريّ الزبير » .

نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ أعوان دينه ، وهم أول من آمن به ، وكانوا اثني عشر رجلا.
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ منقادون لما تريده منا مَعَ الشَّاهِدِينَ أي لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق.

---

(١) وقيل : كانوا قصارين يحورون الثياب ، أي : يبيضونها.
ج ٣ ، ص : ٢٣٨

وَ مَكَرُوا المكر : تدبير خفي يفضي بالممكور به إلى ما لم يكن يحتسب ، وغلب استعماله في التدبير السي ء. وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ أعلمهم به وأعرفهم بالتدابير ، وهو المجازي على المكر.
وكان مكر كفار بني إسرائيل بعيسى : أن وكلوا به من يقتله غيلة ، ولكن اللّه ألقى شبه عيسى على من قصد قتله ، فقتلوه ، ورفع عيسى إلى السماء.
إِنِّي مُتَوَفِّيكَ التوفي : أخذ الشيء وافيا تاما ، ثم استعمل بمعنى الإماتة ، كما قال تعالى :
اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها [الزمر ٣٩/ ٤٢] فمعنى مُتَوَفِّيكَ قابضك. وَرافِعُكَ إِلَيَّ من الدنيا من غير موت ، فإذا كان عيسى حيا حين الرفع كان في الآية تقديم وتأخير ، وتقديره : أني رافعك إليّ ومتوفيك ، والواو لا تدل على الترتيب. وقيل : معنى : إني متوفيك :
قابضك ورافعك إلي ، أي إلى كرامتي.
وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مبعدك ، وتطهيره من الذين كفروا : براءته مما كانوا يزمونه به بتهمة أمه بالزنا.
وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ صدقوا بنبوتك من المسلمين والنصارى فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا بك وهم اليهود ، والفوقية بمعنى العلو عليهم بالحجة والسيف. فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ يشمل المسيح والمختلفين معه والاختلاف بين أتباعه والكافرين به.
عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا بالقتل والسبي والجزية وَالْآخِرَةِ بالنار ناصِرِينَ مانعين منه وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ أي يعاقبهم ذلِكَ المذكور من أمر عيسى نَتْلُوهُ نقصه وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ المحكم أي القرآن.
سبب النزول : نزول الآية (٥٨) :

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال : أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم راهبا نجران ، فقال أحدهما : من أبو عيسى ؟ وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لا يعجل حتى يؤامر ربه ، فنزل عليه

ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ إلى قوله مِنَ الْمُمْتَرِينَ.

وسيأتي بيان روايات أخرى في بيان سبب نزول آية : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ إلى قوله مِنَ الْمُمْتَرِينَ.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى معجزات وخصائص عيسى عليه السلام ، ذكر هنا

ج ٣ ، ص : ٢٣٩

قصته مع قومه ، حيث دعاهم للإيمان ، فآمن به بعضهم ، وأعرض الآخرون ، وما لقيه منهم من إيذاء وعزم على قتله ، وإنجائه منهم برفعه إليه ، وإنذار الكافرين بالعذاب الشديد ، ومجازاة المؤمنين الذين عملوا الصالحات. وفي ذلك تسلية للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وبيان أن الأدلة وحدها لا تؤدي إلى الإيمان ، وإنما لا بد من هداية اللّه وتوفيقه.

التفسير والبيان :

لما شعر عيسى من قومه بني إسرائيل بالتصميم على الكفر ، والاستمرار على الضلال ، وتحقق من ذلك ، أراد التعرف صراحة عن المؤمنين بدعوته ، فقال :

من يتبعني إلى اللّه ، ومن ينصرني ملتجئا إلى اللّه ؟ والظاهر أنه يريد : من أنصاري في الدعوة إلى اللّه ، كما كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يقول في مراسم الحج قبل أن يهاجر : « من رجل يؤويني حتى أبلّغ كلام ربي ، فإن قريشا قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي ؟ »

فوجد الأنصار ، فآووه ونصروه وهاجر إليهم ، فواسوه ومنعوه من الأعداء.

وهكذا عيسى انتدب طائفة من بني إسرائيل لنصرته ، فآمنوا به وآزروه ونصروه ، كما جاء في آية أخرى : « كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ : مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ ؟ [الصف ٦١/ ١٤].

قال الحواريون أي الأنصار : نحن أنصار دين اللّه وجنوده المخلصون المؤيدون دعوتك ، آمنا بوجود اللّه وبوحدانيته إيمانا صادقا ، واشهد بأنا مسلمون ، أي خاضعون منقادون لأوامره ، وجوهر الإسلام متفق عليه بين كل الأديان.

ثم تضرعوا إلى اللّه قائلين : ربنا آمنا وصدقنا بما أنزلت في كتابك واتبعنا الرسول عيسى ابن مريم ، فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون لأنبيائك

ج ٣ ، ص : ٢٤٠

بالصدق. وذكر الاتباع في قولهم دليل على صحة الإيمان ، لأن الإيمان يقتضي العمل.

ثم أخبر اللّه تعالى عن مؤامرة جماعة من بني إسرائيل على قتل عيسى ، فوشوا به إلى ملك ذلك الزمان ، وكان كافرا : أن هنا رجلا يضل الناس ، ويصدهم عن طاعة الملك ، ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه ، وهذا هو مكرهم بتوكيل من يقتله غيلة ، فأبطل اللّه مكرهم وأفسد تدابيرهم ، إذ بعث الملك في طلبه لأخذه وصلبه والتنكيل به ، فلما أحاطوا بمنزله ، وظنوا أنهم قد ظفروا به ، بإلقاء شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل ، نجّاه اللّه تعالى من بينهم ، ورفعه إلى السماء.

واللّه خير المدبرين ، وأنفذهم خطة ، وأحكمهم وأقواهم صنعا ، وأقدرهم على إضرارهم ، وإتمام حكمته ، وإنفاذ مشيئته ، وتركهم في ضلالهم يعمهون :

يعتقدون أنهم قد ظفروا بمطلبهم ، وحققوا مأربهم.

وقال أبو حيان : معناه : أي المجازين أهل الخير بالفضل وأهل الجور بالعدل لأنه فاعل حق في ذلك ، والماكر من البشر فاعل باطل في الأغلب « ١ » .

ثم ذكر اللّه رفع عيسى إلى السماء مخاطبا نبيه محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم وقائلا : اذكر يا محمد حين قال اللّه لعيسى : إني موفيك أجلك كاملا ، ورافعك إلي ، وهذه بشارة له بنجاته من كيدهم وتدبيرهم.

وللمفسرين رأيان في تأويل هذه الآية :

١- إن في الآية تقديما وتأخيرا : والتقدير : إني رافعك إلي ومطهرك من

---

(١) البحر المحيط : ٢/ ٤٧٢

ج ٣ ، ص : ٢٤١

الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ، أي أنه رفعه إلى السماء حيا بجسمه وروحه ، وسينزل في آخر الزمان ، فيحكم بشريعة الإسلام ، ثم يميته اللّه. وهذا ما دلت عليه الأحاديث النبوية الصحيحة ،

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن عيسى لم يمت ، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة » .

٢- التوفي : الإماتة العادية ، والرفع : رفع الروح والمكانة ، لا المكان ، كما قال تعالى في شأن إدريس عليه السلام : وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا [مريم ١٩/ ٥٧] وقال في شأن المؤمنين : فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ [القمر ٥٤/ ٥٥] ويكون المعنى : إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان علي رفيع.

ويؤيد التأويل الأول أكثر العلماء ، وقال بعضهم وهو الربيع بن أنس :
المراد بالوفاة هاهنا : النوم ، كما قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ [الأنعام ٦/ ٦٠] وقال : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها [الزمر ٣٩/ ٤٢] و
كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول إذا قام من النوم : « الحمد للّه الذي أحيانا ، بعد ما أماتنا » .
وقال القرطبي : والصحيح أن اللّه تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم ، وهو اختيار الطبري ، وهو الصحيح عن ابن عباس.

(٢٥٣/٣)

و ذكر اللّه تعالى قصة صلب عيسى ورفعه في آيات أخرى هي : وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ ، وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ ، وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً. وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً [النساء ٤/ ١٥٦- ١٥٩]. والضمير في قوله قَبْلَ مَوْتِهِ عائد على عيسى عليه السلام ، أي : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن
ج ٣ ، ص : ٢٤٢
بعيسى ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم لأنه يضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام.
ثم أبان اللّه تعالى بعض وجوه أخرى من إكرام عيسى عليه السلام ، فقال :
وجاعل الذين آمنوا بأنه عبد اللّه ورسوله ، وصدقوه في قوله ، واتبعوا دينه فوق الذين كفروا أي أعلى منهم ، وهي إما فوقية روحانية : وهي فضلهم عليهم في حسن الأخلاق ، وكمال الآداب ، والقرب من الحق ، والبعد عن الباطل ، وإما فوقية دنيوية وهي كونهم أصحاب السيادة عليهم ، وليس ذلك أمرا مطردا دائما في كل وقت ، مما يرجح كون الفوقية روحانية ومعنوية وأدبية.
هذه الفوقية في صحة العقيدة وسمو الآداب والأخلاق وقوة الحجة وعلو القدر تدوم لأهل الإيمان إلى يوم القيامة.
ثم مصيركم جميعا إلى يوم البعث ، فأحكم بينكم فيما اختلفتم فيه من أمور الدين.

(٢٥٤/٣)

ثم بيّن اللّه جزاء المحق والمبطل : فأما الذين كفروا بعيسى وكذبوه وهم اليهود فلهم عذاب في الدنيا بذنوبهم بالإذلال والقتل والأسر وتسليط الأمم عليهم ، وعذاب في الآخرة بنار جهنم ، وما لهم في الآخرة من نصير ولا معين.

وأما الذين آمنوا بعيسى وصدقوا بنبوته وبما جاء به من عند اللّه ، وعملوا صالحا بتنفيذ الأوامر وترك النواهي ، فيعطيهم اللّه أجورهم كاملة غير منقوصة.

ثم أكد تعالى جزاء الكافرين فقال : واللّه لا يحب الظالمين أي يعاقبهم ويجازيهم بما يستحقون ، أو لا يريد ظلم الظالمين.

هذه الأخبار عن عيسى نتلوها عليك يا محمد ، وهي من الأدلة الواضحة الدالة على صدق نبوتك ، وهي من القرآن الحكيم الذي يبين وجوه العبرة والحكمة

ج ٣ ، ص : ٢٤٣

و العظة في الأخبار والأحكام ، فيهتدي المؤمنون بها إلى الحق ومعرفة سر الشريعة وجوهر الدين.

وشبيه ذلك قوله تعالى : ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ ، إِذا قَضى أَمْراً ، فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [مريم ١٩/ ٣٤- ٣٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

أصحاب الدعوات الإصلاحية وعلى رأسهم الأنبياء يتعرضون بسبب دعوتهم إلى مختلف أنواع الأذى والطرد ومحاولة الاغتيال. ولكن اقتضت الحكمة الإلهية ألا ينضب الخير والفلاح بين الناس ، فيهيّئ أناسا يؤازرون المصلحين ، ويحتاج القائد إلى أن يتعرف على أتباعه وأنصاره المخلصين ، كما فعل عيسى عليه السلام بالتعرف على الحواريين ، ليعتمد عليهم وقت الشدة والأزمة ، ويساعدونه في تحمل عبء الدعوة إلى اللّه ، وهذا هو المراد بقوله : مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ.

و لما أخرج بنو إسرائيل عيسى وأمه من بين أظهرهم ، عاد إليهم مع الحواريين ، وصاح فيهم بالدعوة ، فهموا بقتله ، وتواطؤوا على الفتك به ، فذلك مكرهم. ومكر اللّه في رأي الفراء : استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون ، وفي رأي الزجاج : مكر اللّه : مجازاتهم على مكرهم ، فسمى الجزاء باسم الابتداء ، كقوله : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَهُوَ خادِعُهُمْ

و هذا على طريق المشاكلة ، وهو الرأي المشهور بين العلماء : رأي الجمهور.

والصحيح لدى المحققين من العلماء أن اللّه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء من غير وفاة ولا نوم. وسينزل في آخر الزمان.

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « و اللّه لينزلن ابن مريم حكما عادلا ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركنّ القلاص « ١ » ،

---

(١) القلاص : جمع قلوص وهي الناقة الشابة.

ج ٣ ، ص : ٢٤٤

فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعونّ إلى المال ، فلا يقبله أحد » .

وأما تطهيره من الذين كفروا : فهو إنجاؤه مما كانوا يرمونه به ، أو يرومونه منه ، ويريدونه به من الشر.

وأما قوله وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ففيه رأيان : قال الضحاك ومحمد بن أبان : المراد الحواريون. وقال آخرون :

الخطاب لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، والفوقية : بالحجة وإقامة البرهان ، وقيل : بالعز والغلبة.

والتفوق بالحجة على صحة دين الإسلام بالمعنى العام الذي يتفق عليه جميع الأنبياء وأتباع عيسى وموسى وغيرهم من أتباع محمد صلوات اللّه وسلامه عليهم : هو الأولى ، مثل آية : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ .. [النور ٢٤/ ٥٥].

(٢٥٦/٣)

و جزاء الكافرين : النار في الآخرة ، والقتل والصلب والسبي والإذلال في الدنيا. وجزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات : السعادة والاطمئنان في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، فهي سعادة في الدارين.

الرّدّ على من زعم ألوهية عيسى والمباهلة [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥٩ الى ٦٣]

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

ج ٣ ، ص : ٢٤٥

الإعراب :

خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ جملة مفسّرة للمثل ، وهي موضع رفع خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل :

ما المثل ؟ فقال : خلقه من تراب ، أي المثل خلقه من تراب. ولا يجوز أن يكون وصفا لآدم لأن آدم معرفة ، والجملة لا تكون إلا نكرة ، والمعرفة لا توصف بالنكرة. ولا يجوز أيضا أن يكون حالا لأن خَلَقَهُ فعل ماض ، والفعل الماضي لا يكون حالا.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الحق : خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا الحقّ من ربّك ، أو هو الحقّ ، أي أمر عيسى.
وَما مِنْ إِلهٍ من : زائدة للتوكيد.
البلاغة :
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أتى بوصف الربوبية وأضافه إلى الرّسول عليه الصلاة والسلام لتشريفه.
فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ هذا من باب الإثارة والإلهاب ، لزيادة التّثبيت.
المفردات اللغوية :

(٢٥٧/٣)

إِنَّ مَثَلَ عِيسى المثل : الشأن الغريب والحال المدهشة. عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ أي كشأنه في خلقه من غير أم ولا أب ، وهو من تشبيه الغريب بالأغرب ، ليكون أوقع في النفس وأقطع لقول الخصم.
والمراد أنّ شبه عيسى وصفته في خلق اللّه إياه على غير مثال سبق ، كشأن آدم في ذلك ، ثم فسّر هذا المثل بقوله : خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ أي خلق قالبه وقدر أوضاعه وكون جسمه من تراب ميّت أصابه الماء ، فكان طينا لازبا لزجا. ثم قال له : كن بشرا ، فكان ، وكذلك عيسى قال له :
كن من غير أب فكان.
فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ الشاكين فيه ، الامتراء : الشّك. فَمَنْ حَاجَّكَ جادلك من النصارى. ثُمَّ نَبْتَهِلْ نتضرّع في الدّعاء ، وابتهل القوم : تلاعنوا ، والبهلة : اللعنة. فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ بأن نقول : اللهمّ العن الكاذب في شأن عيسى. و
قد دعا صلّى اللّه عليه وسلّم وفد نجران لذلك ، لما حاجوه به ، فقالوا : حتى ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك ، فقال ذو رأيهم- مستشارهم ، واسمه « العاقب » : « لقد عرفتم نبوّته ، وأنه ما باهل قوم نبيّا إلا هلكوا » ، فودّعوا الرجل وانصرفوا ، فأتوا الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد خرج ، ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي ، وقال لهم : إذا دعوت ، فأمّنوا ، فأبوا أن يلاعنوا وصالحوه على الجزية. رواه نعيم.
ج ٣ ، ص : ٢٤٦
الْقَصَصُ الخبر. الْحَقُّ الذي لا شكّ فيه. الْعَزِيزُ أي ذو العزّة الذي لا يغالبه أحد في ملكه. الْحَكِيمُ ذو الحكمة الذي لا يساميه أحد في صنعه.
سبب النزول :

(٢٥٨/٣)

قال المفسّرون : إن وفد نجران قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال : وما أقول ؟ قالوا : تقول : إنه عبد ، قال : أجل ، إنه عبد اللّه ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنسانا قط من غير أب ؟ فإن كنت صادقا فأرنا مثله ، فأنزل اللّه عزّ وجلّ هذه الآية « ١ » .

المناسبة :

ذكر اللّه تعالى سابقا قصة عيسى وأمه ، وإيمان بعض قومه به ، وكفر بعض آخر ، وهنا ذكر حال فريق ثالث لم يكفر به ، ولم يؤمن به إيمانا صحيحا ، بل افتتن به افتتانا ، لكونه ولد من غير أب ، فزعم أن معنى كونه « كلمة اللّه وروح اللّه » : أنّ اللّه حلّ في أمه ، وأن كلمة اللّه تجسّدت فيه ، فصار إنسانا وإلها ذا طبيعة مزدوجة ، فردّ اللّه عليهم بأن خلق آدم أعجب من خلق عيسى.

التفسير والبيان :

إن صفة عيسى في قدرة اللّه حيث خلقه من غير أب كمثل آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم ، بل خلقه من تراب ، وقدره جسدا من طين ، ثم قال له :

كن فيكون أي أنشأه بشرا بنفخ الروح فيه. شبّه الغريب بالأغرب منه ، والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم ، لا على أنه خلق من تراب ، والشيء قد يشبّه بالشيء لاتّفاقهما في وصف واحد ، وإن اختلفا في أمور أخرى.

فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ،

---

(١) البحر المحيط : ٢/ ٤٧٧

ج ٣ ، ص : ٢٤٧

و إن جاز ادّعاء النبوّة في عيسى ، لكونه مخلوقا من غير أب ، فجواز ادعائها في آدم بالطريق الأولى ، ومعلوم بالاتّفاق أن ذلك باطل ، فدعوى النبوّة في عيسى أشدّ بطلانا.

و لكن اللّه تعالى أراد أن يظهر قدرته للناس حين خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية البشر من ذكر وأنثى. ولهذا قال تعالى في سورة مريم : وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ [٢١] ، وقال هنا : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ.

هذا الذي أخبرتك به من شأن عيسى ومريم هو القول الحق ، لا ما اعتقده النصاري في المسيح من أنه إله ، ولا ما زعمه اليهود من رمي مريم بيوسف النّجار.

فلا تشكنّ في أمرهما بعد أن جاءك العلم اليقيني به. وهذا النهي يثير في النّبي وأمّته ضرورة الاعتصام باليقين واطمئنان النفس إلى الخبر الإلهي. أي واظب على يقينك وطمأنينة نفسك إلى الحقّ والبعد عن الشّك فيه ، أو أن الخطاب للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمراد أمته ، لأنه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يكن شاكّا في أمر عيسى عليه السّلام.

فمن جادلك في شأن عيسى عليه السّلام بعد معرفة الحقّ واليقين فادعهم إلى المباهلة أي الملاعنة : بأن نتباهل وندعو اللّه أن يلعن الكاذب ويطرده من رحمته. وهذه الآية تسمى آية المباهلة.

وقد ثبت أنّ النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم دعا نصارى نجران للمباهلة ، فأبوا.

جاء في سيرة ابن إسحاق : أنه قدم سنة تسع على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وفد نصارى نجران ستون راكبا : فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم ، منهم : « العاقب » واسمه عبد المسيح ، وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه. ومنهم السيّد وهو الأيهم ، وكان عالمهم ، ومنهم أبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وكان أسقفهم. فدخلوا بعد العصر

ج ٣ ، ص : ٢٤٨

مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فصلوا صلاتهم إلى المشرق ، ثمّ كلّموا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وقالوا عن عيسى : هو اللّه ، هو ولد اللّه ، هو ثالث ثلاثة ، فنزل القرآن للرّدّ عليهم.

و

أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه : أنه جاء العاقب والسيّد صاحب نجران إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يريد أن يلاعناه ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فواللّه لئن كان نبيّا ، فلاعناه ، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. فقال : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلا أمينا ، ولا تبعث معنا إلا أمينا ، فقال : لأبعثنّ معكم رجلا أمينا حق أمين ، قم يا أبا عبيدة بن الجرّاح ، فلما قام قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : هذا أمين هذه الأمّة.

و

روي أنّ النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم اختار للمباهلة عليّا وفاطمة وولديهما : الحسن والحسين ، وخرج بهم وقال : إن أنا دعوت ، فأمّنوا أنتم.

وبعد أن رفضوا المباهلة صالحوا النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم على الجزية : وهي دفع ألف حلّة في صفر ، وألف في رجب ودراهم.

وهذا يدلّ على قوة اليقين والثّقة بما يقول ، وعلى أن امتناعهم عن المباهلة فيه تقرير للخطر وكونهم على غير بيّنة فيما يعلنون ، فما أمكنهم الإقدام على المباهلة.

إن هذا الذي قصصته عليك في شأن عيسى هو القصص الحق الذي لا مرية فيه ولا جدال ، لا ما يدّعيه النصارى من كونه إلها أو ابن اللّه ، ولا ما يدّعيه اليهود من كونه ابن زنا. وسمّيت قصصا لأن المعاني تتابع فيها.

وليس هناك إله إلا اللّه العزيز الذي لا يغلبه أحد ، الحكيم : ذو الحكمة الذي يضع كل شيء في موضعه الصحيح المناسب له.

فإن أعرضوا بعد هذا عن اتّباعك وتصديقك ، ولم يعلنوا وحدانية اللّه ، ولم يجيبوا

ج ٣ ، ص : ٢٤٩

إلى المباهلة ، فإن اللّه عليم (واسع العلم) بحال المفسدين ، وسيجازيهم على أعمالهم شرّ الجزاء.

وكلّ من عدل عن الحقّ إلى الباطل فهو المفسد ، واللّه قادر عليه لا يفوته شي ء.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن عجائب الخلق وخلق الكائنات وأمر الخليقة تدلّ على وجود الخالق وهو اللّه تعالى ، كما قال : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ : كُنْ فَيَكُونُ ، قَوْلُهُ الْحَقُّ [الأنعام ٦/ ٧٣].

ومن خلقه تعالى : خلق الناس على وفق قوانين عادية ، أو على غير العادة ، مثل خلق آدم ، وحواء ، وعيسى. وعقد الشّبه بين آدم وعيسى هو في أنهما خلقا من غير أب ، وذلك للرّدّ على وفد نجران الذين أنكروا على النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قوله : إن عيسى عبد اللّه وكلمته ، فقالوا : أرنا عبدا خلق من غير أب ؟ !

فقال لهم النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : آدم ، من كان أبوه ؟ أعجبتم من عيسى ليس له أب ؟ فآدم عليه السّلام ليس له أب ولا أم.

وآية المباهلة حدّ فاصل في الجدال لأن اللعنة محقّقة فيها على الكاذب.

وهذه الآية من أعلام نبوّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم لأنه دعاهم إلى المباهلة ، فأبوا ورضوا بالجزية ، بعد أن أعلمهم كبيرهم : العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادي نارا ، فإن محمدا نبيّ مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى فتركوا المباهلة ، وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا في كل عام ألف حلّة في صفر ، وألف حلّة في رجب ، فصالحهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على ذلك بدلا من الإسلام.

ودلّ قوله تعالى : نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ ، و
قوله صلّى اللّه عليه وسلّم في الحسن : « إنّ ابني هذا سيّد » « ١ »
على خصوصية تسمية الحسن والحسين : ابني النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم دون غيرهما ،
لقوله عليه الصلاة والسلام : « كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي » « ٢ » .

---

(١) رواه أحمد والبخاري وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن أبي بكرة.
(٢) رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عمر.
ج ٣ ، ص : ٢٥٠
الدّعوة إلى توحيد اللّه وعبادته وملّة إبراهيم [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٦٤ الى ٦٨]
قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)
الإعراب :
سَواءٍ صفة لكلمة ، أي كلمة مستوية. أَلَّا نَعْبُدَ بدل مجرور من كلمة. ويجوز رفعه خبرا لمبتدأ محذوف وتقديره : هي ألا نعبد إلا اللّه ، أو جعله مبتدأ ، أي بيننا وبينكم ترك عبادة غير اللّه. ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ ها للتنبيه ، وأنتم : مبتدأ ، وهؤلاء : خبره. حاجَجْتُمْ جملة مستأنفة مبيّنة للجملة الأولى أي أنتم هؤلاء أنكم جادلتم لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ : خبر إن. وَهذَا عطف عليه. النَّبِيُّ صفة لهذا أو بدل منه أو عطف بيان.
البلاغة :

كَلِمَةٍ مجاز إذ أطلق الواحد على الجمع. أَرْباباً فيه تشبيه طاعتهم لرؤساء الدّين في أمر التحليل بالرّب المستحق وحده للعبادة. أَوْلَى وأَوْلَى فيه جناس اشتقاق.

ج ٣ ، ص : ٢٥١

المفردات اللغوية :

يا أَهْلَ الْكِتابِ هم اليهود والنصارى. تَعالَوْا أقبلوا. سَواءٍ مستو أمرها بين الفريقين ، والسّواء : العدل والوسط الذي لا تختلف فيه الشرائع. أَرْباباً جمع ربّ : وهو السّيّد المربي المطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد به هنا : ما له حق التشريع من تحريم وتحليل. أما الإله :

فهو المعبود الذي يدعى حين الشدائد ويقصد عند الحاجة لأنه مصدر الفرج.

مُسْلِمُونَ منقادون للّه مخلصون له موحدون.

تُحَاجُّونَ تخاصمون وتجادلون. حَنِيفاً مائلا عن العقائد الزائفة الباطلة إلى الدّين الحق القيّم. مُسْلِماً موحّدا مخلصا مطيعا له.

إِنَّ أَوْلَى أحق. وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ناصرهم وحافظهم.

سبب النزول :

نزول الآيات (٦٥- ٦٧) :

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : « اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إلا نصرانيا ، فأنزل اللّه : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ الآية » .

نزول الآية (٦٨) :

سأل اليهود قائلين : واللّه يا محمد ، لقد علمت أنّا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، وإنه كان يهوديا ، وما بك إلا الحسد ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

و

روى الترمذي عن عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إنّ لكلّ نبيّ ولاة من النّبيين ، وإن وليي أبي وخليل ربي ، ثم قرأ : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَهذَا النَّبِيُّ الآية.

(٣/٢٦٤)

ج ٣ ، ص : ٢٥٢

المناسبة :

أقام القرآن الحجة على النصارى في ادّعائهم ألوهية المسيح ، ثم دعا هنا اليهود والنصارى إلى أصل

الدّين وروحه الذي اتّفقت عليه دعوة الأنبياء جميعا وهو توحيد اللّه وعبادته ، والاقتداء بإبراهيم أبي الأنبياء عليهم السّلام إذ أن ملّته ملّة الإسلام ، ولم يكن يهوديا ولا نصرانيا.

التفسير والبيان :

قل يا محمد : يا أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى جميعا ، أقبلوا وهلمّوا إلى كلمة عادلة وسطى سواء بين الفريقين اتّفقت عليها جميع الشرائع والرّسل والكتب التي أنزلت إليهم ، فأمرت بها الصّحف والكتب الأربعة : التّوراة والزّبور والإنجيل والقرآن ، وهي كلمة التّوحيد : لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وعبادة اللّه وتفويض سلطة التشريع والتحليل والتحريم إليه ، وعدم الشرك به شيئا ، وعدم اتّخاذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه ، كالوثن والصليب والصنم والطاغوت والنار.

هذه الآية حوت وحدانية الألوهية في قوله : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، ووحدانية الرّبوبية في قوله : وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وهذه دعوة جميع الرسل إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، قال اللّه تعالى :

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ : لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء ٢١/ ٢٥] وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل ١٦/ ٣٦].

وكان اليهود موحدين ، ولكن مفهوم الإله فيهم أصبح ليس هو الإله الحق ، واتبعوا رؤساء الدين فيما يخترعون من أحكام ، وكذلك كان النصارى موحدين وما زالوا يدعون الوحدانية ، لكنهم انتقلوا من ادعاء نبوة عيسى للّه والتثليث إلى

ادعاء ألوهيته وأن الثلاثة واحد ، وهو عيسى ، ورفضت فرقة الإصلاح « البروتستانت » فكرة ألوهية عيسى.

روى عدي بن حاتم قال : « أتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال : يا عدي ، اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ في سورة براءة :

اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ [٣١] فقلت له : يا رسول اللّه ، لم يكونوا يعبدونهم ، فقال : ما كانوا يحللون لكم ويحرّمون ، فتأخذون بأقوالهم ؟ قال :

نعم ، فقال عليه الصّلاة والسّلام : هو ذاك »

، وعلى هذا خوطب أهل الكتاب بهذا الخطاب لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب.

فإن أعرضوا عن هذه الدعوة أو التحكيم ، وأبوا إلا أن يعبدوا غير اللّه ، فقولوا لهم : إنا مسلمون حقا

، منقادون للّه ، مخلصون له الدّين ، لا نعبد أحدا سواه ، ولا نطلب النّفع أو دفع الضّرر من غيره ، ولا نحلّ إلا ما أحلّه اللّه ، ولا نحرّم إلا ما حرّمه اللّه.

وهذه الآية هي جوهر رسائل النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم وكتبه إلى ملوك وأمراء العالم من أهل الكتاب وغيرهم ، مثل كسرى ملك الفرس الوثنيين ، وهرقل ملك الرّوم النصارى ، والنّجاشي النّصراني والمقوقس عظيم أقباط مصر وغيرهم. واشتملت كل تلك الكتب على هذه الآية ، وهنا أذكر كتابه إلى هرقل ،

(٢٦٦/٣)

جاء في صحيح مسلم : « بسم اللّه الرّحمن الرّحيم. من محمد رسول اللّه إلى هرقل عظيم الرّوم. سلام على من اتّبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم الأريسيين- أي الشعب من فلاحين وخدم وأتباع وغيرهم ، ويا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

ج ٣ ، ص : ٢٥٤

المحاجّة في انتماء إبراهيم :

أيها اليهود والنصارى ، لم تتنازعون في إبراهيم الخليل عليه السلام ويدّعي كل منكم أنه كان منكم على دينه ؟ كيف تدّعون أيها اليهود أنه كان يهوديا ، وقد كان زمنه قبل أن ينزل اللّه التوراة على موسى ؟

وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانيا ، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ؟

فما أنزلت التوراة على موسى ، ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأزمان طويلة ، قيل : كان بين إبراهيم وموسى سبعمائة سنة ، وبين موسى وعيسى حوالي ألف سنة.

لهذا قال تعالى : أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟ أن المتقدم على الشيء لا يكون تابعا له ؟ وألا تعقلون ضعف حجّتكم وانهيارها وبطلان قولكم ؟

(٢٦٧/٣)

ثم أشار اللّه تعالى إلى جهلهم وحماقتهم في دعواهم هذه ، فقال : ها أنتم هؤلاء تجادلون وتحاجّون فيما لكم به علم ومعرفة من أمر عيسى « ١ » عليه السّلام مما نطق به التّوراة والإنجيل ، وقد قامت عليكم الحجّة وظهر الغلط ، فكيف تحاجّون ، وعلى أي أساس تجادلون في شأن إبراهيم عليه السّلام

أنه كان يهوديا أو نصرانيا ، وليس لكم به علم ولا نزل في شأنه شيء في دينكم وكتبكم ، فمن أين أتاكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ؟ واللّه يعلم ما غاب عنكم ولم تشاهدوه ، وأنتم لا تعلمون إلا ما عرفتم وعاينتم وشاهدتم أو سمعتم ؟

فهذا إنكار من اللّه عليهم مثل تلك الدّعاوى والمحاجّة في إبراهيم والمحاجّة فيما لا علم لهم به ، وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقيقتها.

---

(١) وقال القرطبي : يعني في أمر محمد صلّى اللّه عليه وسلّم لأنهم كانوا يعلمونه من نعته في كتابهم. ج ٣ ، ص : ٢٥٥

ثم جاء القرار الإلهي الحاسم في شأن إبراهيم ، وهو أنه ما كان يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مائلا عن الشرك باللّه والوثنية ، مسلما منقادا للّه مطيعا لأوامره ، مجتنبا نواهيه ، فأهل دينه الذين هم على منهاجه وشريعته هم أهل الإسلام ، فهم الصادقون ، وأما اليهود والنصارى فهم الكاذبون.

وما كان أيضا من المشركين الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ، ويدّعون أنهم على ملّة إبراهيم ، وهم قريش ومن تبعهم من العرب.

ثم أكّد تعالى ما سبق بقوله : إن أحقّ الناس بإبراهيم ونصرته هم المؤمنون باللّه وحده لا شريك له ، المخلصون له الدّين ، وهذا النّبي محمد والذين آمنوا معه ، فهم أهل التوحيد المتفقون على وحدانية اللّه وألوهيته وربوبيته ، وهذا هو روح الإسلام ، واللّه ناصر المؤمنين ومؤيدهم ، وموفقهم ومتولي أمورهم ومصلح شؤونهم ، بإرسال الرّسل إليهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن إطاعة غير اللّه تعالى من الأحبار وعلماء الدّين في الأحكام الشرعية بالتحليل والتحريم يجعل الأحبار كالأرباب ، وهذا يقتضي تخصيص الطاعة للّه تعالى.

وإن ملتقى الأديان هو الانصياع تحت راية التوحيد وهي كلمة « لا إله إلا اللّه » وعبادته وحده ، والاعتماد في التشريع على اللّه تعالى فهو مصدر الشرائع الحقّ. لذا خاطبهم القرآن بقوله : أجيبوا إلى ما دعيتم إليه ، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق ، وهي قوله تعالى : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ.

ودلّ قوله تعالى : وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ على أنه لا يجوز اتّباع من سوى اللّه في تحليل شيء أو تحريمه ، إلا فيما حلله اللّه تعالى ،

ج ٣ ، ص : ٢٥٦

و هو نظير قوله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ [التوبة ٩/ ٣١] ، معناه : أنهم أنزلوهم منزلة ربّهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرّمه اللّه ولم يحلّه اللّه.

(٢٦٩/٣)

و في هذا حجّة على أنّ مسائل الدّين كالعبادات والتّحريم والتّحليل لا يؤخذ فيها إلا بقول النّبي المعصوم ، لا بقول إمام ولا فقيه ، وإلا كان إشراكا في الرّبوبية ، وهذا ما ندّد به القرآن في آيات مثل قوله تعالى : أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ [الشورى ٤٢/ ٢١] ، وقوله : وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هذا حَلالٌ ، وَهذا حَرامٌ [النحل ١٦/ ١١٦].

أما المسائل الدّنيوية كالقضاء والسياسة فهذه فوّض أمرها إلى أهل الحلّ والعقد وهم أهل الشورى ، فما أمروا به وجب تنفيذه وقبوله.

وإن أعرض أهل الكتاب عما دعوا إليه وهي الكلمة السواء نقول : نحن مسلمون أي متّصفون بدين الإسلام ، منقادون لأحكامه ، معترفون بما للّه علينا في ذلك من النّعم ، غير متّخذين أحدا ربّا ، لا عيسى ولا عزيرا ولا الملائكة لأنهم بشر مثلنا ، ولا نقبل من الرّهبان شيئا بتحريمهم علينا ما لم يحرّمه اللّه علينا ، فنكون قد اتّخذناهم أربابا.

وأبين آية وحجّة على اليهود والنصارى الذين ادّعوا أن إبراهيم كان على دين كل منهم آية : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ ... فهي تكذبهم بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده ، وذلك قوله : وَما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ فكيف يكون إبراهيم منسوبا إلى ملّة حادثة بعده ؟ هذا فضلا عن أن اليهودية ملّة محرّفة عن ملّة موسى عليه السلام ، والنّصرانية ملّة محرّفة عن شريعة عيسى عليه السلام.

ودلّت آية : ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ ... على المنع من الجدال لمن لا علم

ج ٣ ، ص : ٢٥٧

له. أما الجدال لمن علم وأيقن ، والاحتجاج للحقّ فهو جائز ، لقوله تعالى :

وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل ١٦/ ١٢٥] ، ومثاله :

(٢٧٠/٣)

ما روي عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال : يا رسول اللّه ، إن امرأتي ولدت غلاما أسود.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر ، قال : هل فيها من أورق « ١ » ؟ قال : نعم. قال : « فمن أين ذلك ؟ » قال : لعل عرقا نزعه ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « و هذا الغلام لعل عرقا نزعه »

ودلّت هذه الآية على وجوب المحاجّة في الدّين وإقامة الحجّة على المبطلين ، كما احتجّ اللّه تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في أمر المسيح عليه السلام ، وأبطل بها شبهتهم.

وإبراهيم كان على الحنيفية الإسلامية ، ولم يكن مشركا ولا يهوديا ولا نصرانيا ، وأحقّ الناس بإبراهيم ونصرته : هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده ، وكانوا حنفاء مسلمين مثله غير مشركين ، وأيضا هذا النّبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم والذين آمنوا معه ، فإنهم أهل التوحيد. واللّه ولي المؤمنين ، أي ناصرهم.

أخرج الترمذي عن ابن مسعود أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن لكل نبيّ ولاة من النّبيين ، وإن وليي أبي وخليل ربّي ، ثم قرأ : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ » .

محاولة بعض أهل الكتاب إضلال المسلمين والتلاعب بالدين والعصبية الدينية [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٦٩ الى ٧٤]

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (٦٩) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

---

(١) الأورق : الذي لونه بين السواد والغبرة.

ج ٣ ، ص : ٢٥٨

الإعراب :

أَنْ يُؤْتى مفعول به لتؤمنوا ، وتقدير الكلام : ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم ،

فتكون لام لِمَنْ على هذا زائدة وهو اختيار السيوطي ، ومن في موضع نصب لأنه استثناء منقطع.
ويجوز أن تكون اللام غير زائدة ، ومتعلّقة بفعل مقدّر دلّ عليه الكلام لأن معناه : لا تقرّوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم ، فتتعلّق الباء واللام (بتقروا).
والتأويل عند الزمخشري : ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم ، أي أسرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب اللّه مثل ما أوتيتم. وجملة قُلْ : إِنَّ الْهُدى ..

(٢٧٢/٣)

اعتراضية. وقوله : أَوْ يُحاجُّوكُمْ عطف على أَنْ يُؤْتى . والضمير في يُحاجُّوكُمْ عائد لكلمة أَحَدٌ لأنه في معنى الجمع.
البلاغة :
الْحَقَّ وبِالْباطِلِ بينهما طباق.
يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ فيهما جناس تام.
المفردات اللغوية :
وَدَّتْ أحبّت ورغبت. طائِفَةٌ جماعة وهم الأحبار والرؤساء. يُضِلُّونَكُمْ
ج ٣ ، ص : ٢٥٩
يوقعونكم في الضلال بالرّجوع عن دين الإسلام والمخالفة له ، والضلال : نوع من الهلاك.
وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ لأن إثم إضلالهم عليهم ، والمؤمنون لا يطيعونهم فيه.
بِآياتِ اللَّهِ ما يدلّ على صدق نبوّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو القرآن المشتمل على نعته عليه الصلاة والسلام.
تَلْبِسُونَ تخلطون الحقّ بالباطل ، بالتّحريف والتّزوير. وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ أي نعت النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم.
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنه حق.
وَجْهَ النَّهارِ أوله. لَعَلَّهُمْ أي المؤمنين. يَرْجِعُونَ عن دينهم.
وَلا تُؤْمِنُوا تصدقوا.
قُلْ : إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ الذي هو الإسلام ، والخطاب لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، والجملة اعتراضية.
إِنَّ أي بأن ، وأن : مفعول تؤمنوا. مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ من الكتاب والحكمة والفضائل.
أَوْ يُحاجُّوكُمْ أي بأن يحاجّوكم وهم المؤمنون ، أي يغلبوكم بالحجّة.

الْفَضْلَ الزيادة ، والمراد به هنا النّبوة.

سبب النزول :

نزول الآية (٦٩) :

نزلت في معاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان حين دعاهم اليهود إلى دينهم.

نزول الآية (٧٢) :

(٢٧٣/٣)

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : قال عبد اللّه بن الصيف ، وعدي بن زيد ، والحارث بن عوف بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل اللّه على محمد وأصحابه غدوة ، ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم ، لعلهم يصنعون كما نصنع ، فيرجعوا عن دينهم ، فأنزل اللّه فيهم : يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ إلى قوله : واسِعٌ عَلِيمٌ.

ج ٣ ، ص : ٢٦٠

و أخرج ابن أبي حاتم عن السّدّي عن أبي مالك قال : كانت اليهود تقول أحبارهم للذين من دونهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم فأنزل اللّه : قُلْ : إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ.

المناسبة :

ذكر اللّه تعالى سابقا موقفا لأهل الكتاب وهو الإعراض عن الحق ، وذكر هنا موقفا آخر وهو شدّة حرصهم على إضلال المؤمنين.

التفسير والبيان :

أحبّت طائفة من الأحبار والرؤساء إيقاع الضلال بين المسلمين ، بزرع الشّبهات ومحاولة كسب بعض المسلمين بإدخالهم في دينهم ، ولكنهم خائبون ، فهم لا يضلون إلا أنفسهم وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم ، إذ شغلوها بما لا يجدي ، بل بما يضرّ ، ويوقعهم في الإثم والمعصية ، وما يشعرون بذلك وما يفطنون إلى سوء حالهم ، وفي هذا نهاية الذّم والاحتقار لهم. والآية نظير قوله تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً .. [البقرة ٢/ ١٠٩].

يا أهل الكتاب (اليهود والنصارى) : لأي سبب تكفرون بالآيات الدّالة على صدق نبوّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنتم تشهدون بصحّتها ، بما جاء في كتبكم من نعته والبشارة به.

(٢٧٤/٣)

يا أهل الكتاب لم تخلطون الحقّ الذي جاء به الأنبياء بالباطل الكذب الذي لفّقه أحباركم ورؤساؤكم بتأويلاتهم الفاسدة ، وبإلقاء الشّبه ، والتّحريف والتّبديل ، وأنتم تكتمون شأن محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو مكتوب عندكم في التّوراة والإنجيل وهو البشارة بنبيّ من بني إسماعيل يعلّم الناس الكتاب والحكمة ، وأنتم تعلمون أنكم مخطئون مبطلون ، وتفعلون ذلك حسدا وعنادا.

ج ٣ ، ص : ٢٦١

ثمّ ذكر نوعا آخر من مكرهم وكيدهم : وهو أن طائفة منهم كما بان في سبب النزول المتقدم أظهروا الإسلام في أول النّهار فصلّوا مع المسلمين صلاة الصّبح ، ثم ارتدّوا عنه في آخره ، ليلبسوا على الضعفاء والجهلة من الناس أمر دينهم ، فيقولوا : إنما ردّهم إلى دينهم اطّلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ، ولهذا قالوا : لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عنه. ولم يدروا أن من عرف الحقّ لم يرجع عنه ، سأل هرقل أبا سفيان عن شؤون محمد صلّى اللّه عليه وسلّم : هل يرجع عنه من دخل في دينه ؟

فقال أبو سفيان : لا.

ومن تتمة كلام اليهود أن قالوا لبعضهم زعما منهم أنّ النّبوة لا تكون إلا فيهم « ١ » : أسرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب اللّه مثل ما أوتيتم ، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم ، دون المسلمين ، لئلا يزيدهم ثباتا على دينهم ، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام ، أي أن المعنى كتم التصديق بأن للمسلمين من كتاب اللّه مثل أهل الكتاب. وقال ابن كثير : لا تطمئنوا أو تظهروا سرّكم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين ، فيؤمنوا به ويحتجّوا به عليكم ، فالمعنى حجب أسرارهم عن المسلمين.

(٢٧٥/٣)

و لا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجّونكم يوم القيامة بالحق ، ويغالبونكم عند اللّه تعالى بالحجّة. وقال ابن كثير في تفسير ذلك : لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلّموه منكم ، ويساووكم فيه ، ويمتازوا به عليكم لشدّة الإيمان به ، أو يتّخذوه حجّة عليكم بما في أيديكم ، فتقوم به عليكم الدّلالة ، وتترتب الحجة في الدّنيا والآخرة.

وتخلل ذلك جملة اعتراضية : وهي أن الهدى هدى اللّه ، فمن شاء اللّه هدايته

---

(١) قوله : وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ : من جملة قول اليهود لأنه معطوف على كلامهم ، وهو الظاهر ، قال ابن عطية : ولا خلاف في ذلك.

ج ٣ ، ص : ٢٦٢

إلى الإيمان آمن بما أنزله على عبده ورسوله محمد صلّى اللّه عليه وسلّم من الآيات البيّنات والدّلائل القاطعات والحجج الواضحات ، ولا يؤثر كيدكم وخبثكم وحيلكم وكتمكم شيئا ، فسواء أظهرتم الحق ، أم كتمتم أيها اليهود ما عندكم من صفة محمد النّبي الأميّ في كتبكم ، فلن يغيّر ذلك شيئا من نعمة الهداية الإلهية على أحد من الناس.

ثم ردّ اللّه على اليهود ردّا قاطعا لزعمهم أنّ النّبوة لا تكون إلّا فيهم فقال : إن الأمور كلها ومنها أمر النّبوة تحت تصرفه ، وليس إليكم ، وإنما بيد اللّه وحده ، فهو المعطي المانع ، يمنّ على من يشاء بالإيمان والعلم ، ويضلّ من يشاء فيعمي بصيرته وبصره ويختم على قلبه وسمعه ، وهو صاحب الفضل المطلق ، والخير كله بيده ، يؤتيه من يشاء من عباده ، يختصّ برحمته أي بالنّبوة من شاء ، ويختصّ المؤمنين بالفضل بما لا يحدّ ولا يوصف ، وفضله واسع عظيم ، ورحمته وسعت كل شيء ، فلا حدّ لها ، ولا حصر لآثارها ، ولا قصر للنّبوة على بني إسرائيل على حدّ زعمهم ، ولا لنسب أو شرف معين.

فقه الحياة أو الأحكام :

يحسد اليهود المؤمنين ويبغون إضلالهم ، ولكن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم ، وهم لا يشعرون.

وهكذا يحلم الكفار قديما وحديثا بردّ المسلمين عن دينهم ، إلى دين اليهودية أو النصرانية ، أو أن يصبحوا من غير دين ، ولكنهم خابوا وخسروا ، وأثبتوا أنهم ضعاف العقول ، سفهاء الأحلام فإن العقيدة الإسلامية في قلب المسلم أثبت من رواسخ الجبال ، وهم لا يعلمون بصحّة الإسلام ، وواجب عليهم أن يعلموا لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة على وحدانية اللّه ، وعلى صحّة الشريعة ونضارتها وأصالتها ووفائها بالحاجات وسمّوها وتفضيلها على كلّ شرائع العالم قاطبة لأنها شرع اللّه ودينه.

ومن المستنكر عقلا وعادة أن يخلط أهل الكتاب الحقّ بالباطل ، أو يكتموا

الحقّ الأبلج ، وهم به عالمون.

ومحاولة التّدليس والخداع في إظهار أناس إيمانهم فترة ما ، للتضليل والتشكيك ، ثم العودة إلى الكفر هي محاولة صبيانية طائشة ، لا يغترّ بها إلا السّذّج أمثالهم لأن التلاعب بالدّين والإيمان ليس من سمة المخلصين ، ولأن الإيمان إذا وقر في القلب عن دليل وبرهان ، استحال نزعه وسلخه من صاحبه إلا بالموت أو القتل.

والنّبوات ليست قصرا على أمة من الأمم أو شعب من الشعوب ، وإنما يختص اللّه برحمته من يشاء ، واللّه أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو صاحب السلطان المطلق والأمر المبرم ، ينزّل الوحي أو الملائكة

على من يشاء من عباده ، فليس لليهود أن يقولوا : إن النّبوات محصورة فيهم ، أو أن تفوق الحجة عند اللّه لهم ، فهم لا حجّة لهم ، والإسلام أصح من معتقداتهم ، والمسلمون أصحّ منهم دينا.

(٢٧٧/٣)

و إن الهدى إلى الخير والدلالة إلى اللّه عزّ وجلّ بيد اللّه جلّ ثناؤه ، يؤتيه أنبياءه ، فليس لأهل الكتاب أن ينكروا أن يؤتى أحد مثلما أوتوا ، فإن أنكروا يقال لهم : إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ فالأمور كلها تحت تصرف اللّه ، وهو المعطي المانع ، يمنّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتّصرف التامّ ، ويضلّ من يشاء ، فيعمي بصره وبصيرته ، ويختم على قلبه وسمعه ، ويجعل على بصره غشاوة ، وله الحجّة التّامة والحكمة البالغة.

أداء الأمانة والوفاء بالعهد عند بعض أهل الكتاب [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧٥ الى ٧٧]

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

ج ٣ ، ص : ٢٦٤

الإعراب :

بَلى إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين ، أي بلى عليهم سبيل فيهم. مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ جملة مستأنفة مقررة للجملة التي سدّت مسدها. والضمير في بِعَهْدِهِ راجع إلى مَنْ أَوْفى . ويجوز أن يرجع الضمير إلى اللّه تعالى.

البلاغة :

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا أشار إليهم بالبعيد لازدياد غلوهم في الشّر والفساد.

(٢٧٨/٣)

لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ مجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل الأموال سبيل.

يَشْتَرُونَ فيه استعارة ، استعار لفظ الشراء للاستبدال أي يستبدلون.

وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ مجاز عن شدّة الغضب والسخط الإلهي.

وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم ، تقول : « فلان لا ينظر إلى فلان » أي لا يعتدّ به.

وَلا يُزَكِّيهِمْ أي لا يحسن إليهم ولا يثني عليهم ، فهو مجاز عن معنى الإحسان.

يوجد جناس اشتقاق بين اتَّقى والْمُتَّقِينَ.

المفردات اللغوية :

تَأْمَنْهُ أي تأتمنه ، وهو من فعل أمنته. بِقِنْطارٍ المراد العدد الكثير ، وقيل : هو المعيار الذي يوزن به ، ومقداره عند أهل الشام مائة رطل ، والرطل كيلوان ونصف. بِدِينارٍ المراد العدد القليل. فِي الْأُمِّيِّينَ أي العرب. سَبِيلٌ مؤاخذة وذنب أو تبعة. بَلى

ج ٣ ، ص : ٢٦٥

كلمة تقع جوابا عن نفي سابق ، لإثباته ، أي عليهم فيه سبيل. بِعَهْدِهِ العهد : ما تلتزم الوفاء به لغيرك ، وإذا كان الالتزام من جانبين يقال : عاهد فلان غيره عهدا. ويَشْتَرُونَ يستبدلون. بِعَهْدِ اللَّهِ ما أنزله في كتابه من الإيمان بالنّبي وأداء الأمانة. وَأَيْمانِهِمْ جمع يمين : وهي الحلف باللّه ، والمراد هنا : أيمانهم الكاذبة أو حلفهم باللّه تعالى كاذبين. ثَمَناً قَلِيلًا أي عوضا يأخذونه من الدّنيا ، أو رشوة ، وهو قليل لأن المال الذي يكون سببا في العقاب قليل مهما كثر.

لا خَلاقَ لَهُمْ لا نصيب لهم. وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ أي يغضب عليهم. وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ أي يسخط عليهم ولا يرحمهم. وَلا يُزَكِّيهِمْ أي لا يثني عليهم ولا يطهرهم. وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ مؤلم.

سبب النزول : نزول الآية (٧٧) :

روى الشيخان وغيرهما أن الأشعث قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض ، فجحدني ، فقدمته إلى النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : ألك بيّنة ؟ قلت : لا ، فقال لليهودي : احلف ، فقلت : يا رسول اللّه ، إذن يحلف ، فيذهب مالي ، فأنزل اللّه : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا.

وأخرج البخاري عن عبد اللّه بن أبي أوفى : أن رجلا أقام سلعة له في السوق ، فحلف باللّه ، لقد أعطي بها ما لم يعطه ، ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت هذه الآية : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ .. الآية.

قال الحافظ ابن حجر في (شرح البخاري) : لا منافاة بين الحديثين ، بل يحمل على أن النزول كان لسببين معا.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة : أن الآية نزلت في حييّ بن الأخطب وكعب بن الأشرف وغيرهما من

اليهود الذين كتموا ما أنزل اللّه في التوراة وبدلوه ، وحلفوا أنه من عند اللّه. وقيل : نزلت في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق

ج ٣ ، ص : ٢٦٦

و حيي بن أخطب : حرّفوا التّوراة ، وبدّلوا صفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأخذوا الرّشوة على ذلك « ١ » .

قال الحافظ ابن حجر : والآية محتملة ، لكن العمدة في ذلك ما ثبت في الصحيح.

المناسبة :

تتابع الآيات في تبيان أوصاف أهل الكتاب ، فمنهم الأمين ، ومنهم الخائن ، ومنهم المستحل أموال غير اليهود بالباطل بتأويلات واهية ، لذا فإن القرآن يحذر المؤمنين من الاغترار بهم.

التفسير والبيان :

لقد أنصف القرآن في وصف أهل الكتاب ، فمنهم طائفة تؤتمن على الأموال القليلة والكثيرة ، والودائع أو الأمانات ، مثل عبد اللّه بن سلام استودعه رجل من قريش ألفا ومائتي أوقية ذهبا ، فأدّاها إليه ، ومثل السموءل بن عاديا اليهودي المشهور بالوفاء.

و منهم طائفة أخرى تخون الأمانة ، وإن كانت قليلة ، ويتعذر استردادها منهم إلا بمتابعة المطالبة والتحصيل ، أو باللجوء إلى التقاضي والمحاكمة وإقامة البيّنة عليهم ، مثل كعب بن الأشرف أو فنحاص بن عازوراء ، استودعه رجل قرشي دينارا ، فجحده وخانه.

والذي حمل هذه الطائفة من اليهود على الخيانة : زعمهم أن التوراة تبيح لهم أكل أموال الأميين وهم العرب ، قائلين : إنه لا تبعة ولا إثم عليهم في أكل أموال العرب بل وكل ما عدا اليهود ، إذ هم شعب اللّه المختار ، فلهم السمو والتفوق

---

(١) البحر المحيط : ٢/ ٥٠١ [.....]

ج ٣ ، ص : ٢٦٧

العنصري على غيرهم ، وأما من سواهم فلا حرمة له عند اللّه ، فهو مبغوض عنده ، محتقر لديه ، ولا حق له ولا حرمة ، روي أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلال أموال العرب لكونهم أهل أوثان ، فلما جاء الإسلام ، وأسلم من أسلم من العرب ، بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد ، فنزلت الآية مانعة من ذلك « ١ » .

وهذا أمر مرفوض في شرعة اللّه التي لا تفرق في أداء الحقوق بين المؤمن والكافر ، ولكنهم اليهود الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه ، ويتأوّلون النصوص على وفق أهوائهم. ومن أمثلة ذلك أيضا : ما رواه ابن جرير الطبري : أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم في الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم الثمن ، فقالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه ، وادّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم.

فليحذر أتباع شرع مثل فعل اليهود ، روى عبد الرزاق وأبو إسحاق أنّ رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة : الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فما ذا تقولون ؟ قال : نقول : ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب : لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ إنهم إذا أدّوا الجزية ، لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

و

روى ابن أبي حاتم وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل ، قال نبيّ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « كذب أعداء اللّه ، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين ، إلا الأمانة ، فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر »

هذا ردّ عليهم.

وردّ اللّه عليهم أيضا بأنهم يكذبون على اللّه بادعائهم أن ذلك في كتابهم ، وهم يعلمون كذبهم الصريح فيه لأن التوراة خالية من هذا الحكم الجائر وهو خيانة الأميين.

---

(١) البحر المحيط : ٢/ ٥٠٠

ج ٣ ، ص : ٢٦٨

بل إن حكم التوراة عكس ذلك ، فإنها توجب الوفاء بالعقود ، وتأمر بوفاء الأمانات ، وقال اللّه لهم : بلى عليهم في الأميين سبيل العذاب بكذبهم ، واستحلالهم أموال العرب ، فمن اقترض إلى أجل ، أو باع بثمن مؤجل ، أو اؤتمن على شيء مثلا ، وجب عليه الوفاء به ، وأداء الحق لصاحبه في حينه ، دون حاجة إلى إلحاح في الطلب أو تقاض ، وهكذا فإن كل من أوفى بما عاهد عليه ، واتقى اللّه في ترك الخيانة والغدر ، فإن اللّه يحبه ويرضى عنه لأن اللّه عهد إلى الناس في كتبه أن يلتزموا الصدق والوفاء بالعهود والعقود.

و ليس العهد مقصورا على الوفاء بالعقود والالتزامات وأداء الأمانات وإنما يشمل أيضا عهد اللّه تعالى : وهو الوفاء بما التزم به المؤمن من تكاليف وأوامر وواجبات شرعية. ولو وفي اليهود بعهودهم لآمنوا بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولو أنصفوا لما فرقوا في وفاء العهد بين اليهودي وغيره.

ثم بيّن اللّه تعالى جزاء الذين يخونون العهد ، ويكتمون ما أنزل اللّه ، ويبدلون بالحق الباطل ، ويستبدلون بكلام اللّه وأوامره عوضا حقيرا ، وثمنا قليلا : وهو متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء ونحو ذلك ، ذلك الجزاء هو خسارة نعيم الآخرة ، واستحقاق غضب اللّه وسخطه ، وعدم الثناء عليهم ، وانعدام الإحسان إليهم والرحمة بهم ، والاستهانة بأحوالهم وأوضاعهم ، ولهم عذاب مؤلم شديد في نار جهنم.

وقد عبر اللّه تعالى عن كل ذلك بطريق المجاز ، فجعل نكث العهد وأخذ شيء مقابله بمثابة الشراء والمعاوضة ، ولكنها صفقة خاسرة لأن المقابل أو الثمن مهما كان كثيرا ، فهو في الواقع قليل إذا قيس بعظم الجرم والذنب وشدة العقاب الذي يلقاه في الآخرة.

ج ٣ ، ص : ٢٦٩

فقه الحياة أو الأحكام :

أخبر اللّه تعالى أن في أهل الكتاب الخائن والأمين ، والمؤمنون لا يستطيعون التمييز بينهم ، فعليهم اجتناب جميعهم. وخصّ أهل الكتاب بالذكر ، وإن كان المؤمنون كذلك لأن الخيانة فيهم أكثر ، فخرج الكلام على الغالب. والأمين لا فرق عنده بين الكثير والقليل ، فمن حفظ الكثير وأداه فالقليل أولى ، ومن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر.

واستدل أبو حنيفة على مذهبه في ملازمة الغريم (المدين) بقوله تعالى :

إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً وأباه سائر العلماء.

والأمانة عظيمة القدر في الدّين ، ومن عظم قدرها أنها تقوم هي والرّحم على جنبتي الصراط ، كما في صحيح مسلم ، فلا يمكّن من العبور بسلام إلا من حفظهما.

(٢٨٣/٣)

و ليس في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم ، في رأي المالكية ، خلافا لمن ذهب إلى ذلك لأن فسّاق المسلمين يوجد فيهم من يؤدّي الأمانة ، ويؤمن على المال الكثير ، ولا يكونون بذلك عدولا ، فطريق العدالة وقبول الشهادة لا يدل عليه أداء الأمانة في المال في التعامل والوديعة.

ولا يوجد في شرع اللّه مطلقا التفريق في أداء الحقوق والأمانات بين المؤمن وغيره لأن الحق مقدس ،

لا تتأثر صفته بشخص مستحقه ، أما اليهود فلم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبا لذاته.
ودلّ قوله تعالى : وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ على أن الكافر ليس أهلا لقبول شهادته لأن اللّه تعالى وصفه بأنه كذّاب. وفيه ردّ على الكفرة الذين يحرّمون ويحللون غير تحريم اللّه وتحليله ، ويجعلون ذلك من الشرع.
ج ٣ ، ص : ٢٧٠
و إن الوفاء بالعهد : عهد اللّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وعهد الناس في المعاملات والعقود والأمانات من الإيمان ، بل من أجل خصال الإيمان ، وهو الذي يقرب العبد من ربه ، ويجعله أهلا لمحبته ورضوانه. أما الانتساب إلى أمة أو عنصر أو شعب بعينه فلا أثر له عند اللّه. وإن خائن العهد ليس من التقوى في شيء ، بل هو في زمرة المنافقين ، وإن آكل المال بالباطل يستحق غضب اللّه وسخطه ،
روى أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق ، لقي اللّه وهو عليه غضبان »
و
قال أيضا فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »
و
روى الطبراني في الأوسط عن أنس حديثا هو : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » .

(٢٨٤/٣)

و جزاء ناكثي العهد وخائني الأمانات أشدّ عند اللّه من مرتكبي بقية الكبائر كالزنا والسرقة وشرب الخمر ولعب الميسر وعقوق الوالدين لأن مفسدة نقض العهد عامة شاملة ، وضررها أعظم وأخطر.
ودلت هذه الآية وأحاديث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم المتقدمة على أن حكم الحاكم لا يحلّ المال في الحقيقة والباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانه ،
روى الأئمة عن أم سلمة قالت : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إنكم تختصمون إليّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع منكم ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة » .

ورأى أبو حنيفة أن قضاء القاضي ينفذ في الظاهر والباطن إذا حكم بعقد أو فسخ أو طلاق لأن مهمته القضاء بالحق ، وأما الحديث السابق فهو في قضية لا بينة فيها ، فإذا ادّعى رجل على امرأة أنه تزوجها ، فأنكرت ، فأقام على زواجها شاهدي زور ، فقضى القاضي- دون أن يعلم بزور الشهود- بالنكاح

ج ٣ ، ص : ٢٧١

بينهما ، وهما يعلمان أنه لا نكاح بينهما ، حلّ للرجل ووطؤها ، وحلّ لها التمكين.

ومثله لو قضى بالطلاق فرق بينهما عنده ، وإن كان الرجل منكرا. ويقاس عليه البيع ونحوه.

من أكاذيب اليهود : [سورة آل عمران (٣) : آية ٧٨]

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

المفردات اللغوية :

يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ من اللّي وهو الفتل والعطف ، أي يفتلون ألسنتهم ويميلونها ويعطفونها عن الكلام المنزل إلى المحرّف والمبدل كإثبات النبوة الحقيقية لعيسى عليه السلام ، بدلا من المعنى المجازي الوارد على لسان عيسى ، وكتحريف صفة نبي آخر الزمان. لِتَحْسَبُوهُ أي المحرف مِنَ الْكِتابِ الذي أنزله اللّه. وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنهم كاذبون.

سبب النزول :

عن ابن عباس : قال عن هذه الفئة الثالثة من أهل الكتاب الذين افتروا على اللّه ما لم يقله : هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف- وكان من ألدّ أعداء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم- غيّروا التوراة ، وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم أخذت قريظة ما كتبوه ، فخلطوه بالكتاب الذي عندهم « ١ » .

---

(١) الكشاف : ١/ ٣٣١

ج ٣ ، ص : ٢٧٢

التفسير والبيان :

إن من أهل الكتاب جماعة من أحبارهم وعلمائهم وزعمائهم ، وهم كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وحييّ بن أخطب وغيرهم ، يفتلون ألسنتهم بقراءة كتابهم المنزل عن الصحيح إلى المحرّف ، بالزيادة في كلام اللّه أو النقص أو تغيير المعنى ، أو قراءته بنغمة توهم الناس أنه من التوراة ، وتجعلهم

يظنون أن ذلك المحرّف من كلام اللّه ، وما هو من عند اللّه ، فهم كاذبون فيما يقولون ، فإنهم يدعون أنه من عند اللّه ، وهذا تأكيد لقوله : هُوَ مِنَ الْكِتابِ.

فهم لم يكتفوا بالتعريض ولكنهم يصرحون بنسبة الكلام إلى اللّه كذبا ، لفرط جرأتهم على اللّه وقساوة قلوبهم ، ويأسهم من الآخرة. وبناء عليه سجّل اللّه تعالى عليهم صفة الكذب الدائمة الملازمة لهم وهي افتراء الكذب على اللّه عمدا ، لا خطأ لأنهم يعلمون تمام العلم أنه كذب وافتراء محض ، فهذه الجملة تنعى عليهم قبيح ما يرتكبون من الكذب.

(٣/٢٨٦)

من أمثلة ليّ لسانهم : أنهم كانوا إذا سلّموا على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أخفوا لام « السلام » وقالوا : « السام عليكم » والسام هو الموت. ومن الأمثلة قولهم :

راعِنا من الرعونة والحمق ، لا من الرعاية ، كما جاء في آية : مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ : سَمِعْنا وَعَصَيْنا ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، وَراعِنا ، لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَطَعْناً فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا : سَمِعْنا وَأَطَعْنا ، وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ [النساء ٤/ ٤٦].

التحريف والتبديل : هذا وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة في تحريف التوراة والإنجيل ، منها هذه الآية ، وآية النساء المتقدمة ، وآية البقرة :

ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ [البقرة ٢/ ٧٥] وآية المائدة :

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

ج ٣ ، ص : ٢٧٣

الْكِتابِ

[المائدة ٥/ ١٥] والآية الأخرى في المائدة : يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ [المائدة ٥/ ١٣] وآيات الإسراء : وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ إلى قوله : وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً [الإسراء ١٧/ ٤- ٧] وآية إبراهيم : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ [إبراهيم ١٤/ ٩] وآية الأنعام : قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها ، وَتُخْفُونَ كَثِيراً [الأنعام ٦/ ٩١].

فقه الحياة أو الأحكام :

(٣/٢٨٧)

أثبتت الآية صفتين شنيعتين لليهود والنصارى وهما تحريف التوراة والإنجيل ، وتأويلهما ، ووضع كتب يكتبونها من عند أنفسهم ، والكذب والافتراء على اللّه. وهاتان الصفتان يصدر عنهما عادة أسوأ الأفعال وأخس المؤامرات ، وأخطر أنواع التضليل والتدليس والخداع الذي يمارسونه في حق البشرية.

افتراء أهل الكتاب على الأنبياء [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧٩ الى ٨٠]

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

ج ٣ ، ص : ٢٧٤

الإعراب :

وَلا يَأْمُرَكُمْ على قراءة النصب معطوف على أَنْ يُؤْتِيَهُ أو على ثُمَّ يَقُولَ وضميره وهو « كم » للبشر. وعلى قراءة الرفع على الاستئناف والاقتطاع مما قبله ، وتكون لا بمعنى « ليس » والضمير المرفوع في يَأْمُرَكُمْ للّه تعالى.

البلاغة :

يوجد طباق بين لفظ بِالْكُفْرِ ومُسْلِمُونَ.

لا يَأْمُرَكُمْ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي لا ينبغي له.

المفردات اللغوية :

لِبَشَرٍ إنسان ذكرا أو أنثى ، واحدا أو جمعا. وَالْحُكْمَ الحكمة وهي فقه الشريعة وفهم القرآن ، وذلك يوجب العمل به. عِباداً مفرده عبد بمعنى عابد. رَبَّانِيِّينَ واحده رباني :

منسوب إلى الرب لأنه عالم به مواظب على طاعته ، مثل : رجل إلهي. فالمراد بالربانيين : هم العلماء الفقهاء العاملون المنسوبون إلى الرب. قال محمد بن الحنفية حين مات ابن عباس : « اليوم مات ربانيّ هذه الأمة » . تَدْرُسُونَ تقرؤون الكتاب.

سبب النزول :

أخرج ابن إسحاق والبيهقي عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول اللّه ، ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ؟ قال : معاذ اللّه ، فأنزل اللّه في ذلك : ما كانَ لِبَشَرٍ إلى قوله : بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

و

أخرج عبد الرزاق في تفسيره عن الحسن البصري قال : بلغني أن رجلا قال : يا رسول اللّه ، نسلّم عليك ، كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟

قال : لا ، ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون اللّه ، فأنزل اللّه : ما كانَ لِبَشَرٍ إلى قوله : بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

ج ٣ ، ص : ٢٧٥

و الغرض من الآية تكذيب أهل الكتاب الذين يعظمون عيسى والعزير تعظيم عبادة.

التفسير والبيان :

لا ينبغي لبشر ينزل اللّه عليه الكتاب ، ويعلمه الحكمة : فقه الدين ومعرفة أسرار الشرع ، ويؤتيه النبوة والرسالة ، ثم يقول بعد هذا للناس : اعبدوني من دون اللّه أي متجاوزين ما يجب من إفراد العبادة للّه تعالى ، فهذا هو الشرك بعينه ، وإنما يجب إخلاص العبادة للّه وحده ، كما قال : قُلِ : اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي [الزمر ٣٩/ ١٤].

و

روى مسلم وغيره حديثا قدسيا عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيري ، تركته وشركه »

و

في رواية : « فأنا منه بريء ، هو للذي عمله » .

و

روى أحمد عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إذا جمع اللّه الناس يوم القيامة نادى مناد : من أشرك في عمل عمله للّه أحدا ، فليطلب ثوابه من عند غير اللّه ، فإن اللّه أغنى الشركاء عن الشرك » .

و لكن يقول الرسول للناس : كونوا ربانيين أي علماء فقهاء عاملين بما أمر اللّه ، مطيعين له طاعة تامة لأن العلم الصحيح هو الذي يبعث على العمل ، وإن تعلم الكتاب الإلهي ودراسته يوجب الطاعة ، ويحقق وصف الرباني. ولا يعقل أن يأمر الرسول باتخاذ إله أو رب غير اللّه ، أو بعبادة أحد غير اللّه ، لا نبي مرسل ولا ملك مقرّب. وقد كان مشركو العرب يعبدون الملائكة ، وحكى القرآن : وَقالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ، وَقالَتِ النَّصارى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ [التوبة ٩/ ٣٠]. وهذا كله مخالف لرسالات الأنبياء التي تأمر بعبادة اللّه وحده.

أ يأمركم هذا النبي بالكفر بعد الإسلام ، وهذه شهادة لهم بأنهم مسلمون ، أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير اللّه ، ومن دعا إلى عبادة غير اللّه فقد دعا

ج ٣ ، ص : ٢٧٦

إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة اللّه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء ٢١/ ٢٥] وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل ١٦/ ٣٦] وقال : وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ، أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ [الزخرف ٤٣/ ٤٥] وقال إخبارا عن الملائكة : وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ ، فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ [الأنبياء ٢١/ ٢٩].

فقه الحياة أو الأحكام :

من المستبعد أن يأتمن اللّه تعالى رسولا أو نبيا على وحيه ، ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه ، فإن الأمين يقوم عادة بما كلفه به المؤتمن له. وإنما تكون دعوة الأنبياء موجّهة نحو عبادة اللّه وحده لا شريك له ، والعبادة تتطلب الإخلاص ، قال تعالى : قُلِ : اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي [الزمر ٣٩/ ١٤] وقال :

وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ [البينة ٩٨/ ٥].

ودلّت الآية على أن العلم الصحيح والفقه وفهم أسرار الشريعة يستدعي العمل والطاعة والتزام التكاليف الشرعية لأن من عرف اللّه هابه ، ومن هابه امتثل أمره ، ومن آتاه اللّه الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس باللّه.

فمن تعلم علوم الشريعة وترك العمل بها فهو ساقط الاعتبار أمام اللّه ، وكان علمه وبالا عليه ، وحجة على ضلاله وهلاكه وفساده.

والتقرب إلى اللّه لا يكون إلا بالعمل بالعلم ، والعلم الذي لا يبعث على العمل لا يعدّ علما صحيحا.

والكفر يتنافى مع الإسلام ، والإسلام دين الفطرة ، وهو في عرف القرآن : دين جميع الأنبياء.

ج ٣ ، ص : ٢٧٧

ميثاق الأنبياء بتصديق بعضهم بعضا وأمرهم بالإيمان [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨١ الى ٨٣]

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

(٨(١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٨(٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

الإعراب :

لَما : من قرأ بكسر اللام علقها بأخذ ، وما بمعنى الذي. ومن فتح اللام جعلها لام الابتداء ، وهي جواب لما دل عليه الكلام من معنى القسم لأن أخذ الميثاق إنما يكون بالأيمان والعهود ، ويجوز حينئذ أن تكون « ما » بمعنى الذي أو شرطيه ، فإذا كانت بمعنى « الذي » كانت مرفوعة مبتدأ ، وآتَيْتُكُمْ : صلته ، والعائد محذوف تقديره : آتيتكموه ، وخبر المبتدأ : مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ، ومِنْ : زائدة ، وقوله : ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ معطوف على الصلة ، وعائده محذوف تقديره : ثم جاءكم رسول به.

وإذا كانت شرطية فهي في موضع نصب بآتيتكم ، وآتَيْتُكُمْ في موضع جزم بما ، وكذا ثُمَّ جاءَكُمْ. وقوله : لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ جواب قسم مقدر ينوب عن جواب الشرط ، وحينئذ لا تحتاج الجملة إلى عائد ، ولهذا كان هذا الوجه أوجه عند كثير من المحققين ، لعدم العائد في الجملة المعطوفة إذا كانت شرطية.

طَوْعاً وَكَرْهاً منصوبان على المصدر في موضع الحال ، أي طائعين ومكرهين.

البلاغة :

لَما آتَيْتُكُمْ التفات من الغيبة في قوله : النَّبِيِّينَ إلى الحاضر.

ج ٣ ، ص : ٢٧٨

و يوجد جناس اشتقاق بين لفظ فَاشْهَدُوا والشَّاهِدِينَ.

ويوجد طباق بين طَوْعاً وكَرْهاً.

المفردات اللغوية :

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ اذكر حين قبل اللّه مِيثاقَ الميثاق : العهد المؤكد الموثّق : وهو أن يلتزم المعاهد شيئا ويؤكد ذلك بيمين أو بمؤكدات أخرى من ألفاظ العهود. أَأَقْرَرْتُمْ أقرّ بالشي ء : أخبر بما يلزمه أو بما يدل على ثبوته ، مأخوذ من : قرّ الشي ء : إذا ثبت في مكانه.

وَأَخَذْتُمْ قبلتم. إِصْرِي عهدي ، الإصر : العهد المؤكد الذي يحمل صاحبه على الوفاء بما التزمه.

تَوَلَّى أعرض. بَعْدَ ذلِكَ الميثاق. الْفاسِقُونَ الخارجون عن الطاعة وحدود اللّه.

أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ الهمزة للإنكار أي : أيتولون غير دين اللّه ؟ وقدم المفعول الذي هو فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ على فعله لأنه أهم من حيث إن الإنكار متجه إلى المعبود بالباطل. وَلَهُ أَسْلَمَ انقاد. طَوْعاً اختيارا بلا إباء. وَكَرْهاً بالسيف بمعاينة ما يلجئ إليه.

المناسبة :

الآيات السابقة من أول السورة إلى هنا ، وعلى التخصيص المتضمنة خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام اللّه ، وتغييرهم أوصاف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الموجودة في كتبهم ، قصد بها حملهم على الإيمان برسالة النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وإثبات نبوته ، وتؤكد هذه الآية القصد المذكور من طريق إقامة الحجة عليهم : وهو أن اللّه تعالى أخذ الميثاق على جميع الأنبياء من لدن آدم إلى عيسى عليهم السلام أن يؤمن كل واحد بمن يأتي بعده ، ويصدق برسالته ، وينصره في مهمته ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع المبعوث بعده ونصرته.

فإذا كان هذا هو ميثاق الأنبياء ، فالواجب على أتباعهم الإيمان بكل المرسلين والتصديق بما معهم لأن رسالتهم واحدة ، وهي رسالة الإسلام بالمعنى العام وبالمعنى الخاص الذي هو رسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم : وهو الخضوع والانقياد لأوامر اللّه ،

ج ٣ ، ص : ٢٧٩

و إعلان مبدأ التوحيد ، والتمسك بأصول الفضائل والأخلاق ، وهو الدين الحق الذي لا يقبل اللّه سواه.

التفسير والبيان :

اذكر يا محمد لهم وقت أن قبل اللّه الميثاق المأخوذ على جميع الأنبياء أنهم مهما آتيناهم من كتاب وحكم ونبوة ، ثم جاءهم رسول مصدق وموافق لما معهم ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين : محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، لتؤمنن به ولتنصرنه لأن رسالات الأنبياء يكمل بعضها بعضا ، والقصد من إرسالهم واحد ، فهم متفقون في الأصول ، وأما اختلافهم في الفروع فهو لخير الإنسان ومصلحته ، ولمناسبته مع تقدم وتطور الحياة الإنسانية.

فإن تعاصر نبيان مثلا في أمة واحدة مثل موسى وهرون عليهما السلام ، كانا متفقين في كل شيء وإن اختلفت أقوامهما فالمتأخر يؤمن بدعوة المتقدم وبالعكس ، كما آمن لوط بما جاء به إبراهيم عليهما السلام وأيده في دعوته ، وإن تعاقبا مثل موسى وعيسى عليهما السلام صدق كل منهما بدعوة الآخر. وهكذا بعثة خاتم النبيين يجب على أتباع الأنبياء السابقين الإيمان بها وتأييدها. فليس الدين مصدر

شقاق واختلاف ، وسبب عداوة وبغضاء ، كما فعل أهل الكتاب حين عادوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإنما هو سبب تجمع واتحاد ، وسبيل حب ووداد ، وطريق إنقاذ وإسعاد.

ثم قال اللّه تعالى لمن أخذ عليهم الميثاق من النبيين : أأقررتم وقبلتم ذلك الإيمان والعهد بالرسول المصدق لما معكم ، ونصرته وتأييده ، أقبلتم عهدي وميثاقي المؤكد ؟ ! قالوا : أقررنا واعترفنا بذلك ، فقال تعالى : فليشهد بعضكم على بعض ، وأنا معكم شاهد عليكم وعلى إقراركم ، أعلم بكل شيء عنكم ، لا يفوتني شي ء.

روى

ج ٣ ، ص : ٢٨٠

الشيخان عن أنس بن مالك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به ؟ قال :

فيقول : نعم ، فيقول اللّه : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك » .

(٣/٢٩٤)

هذه المحاورة على طريق التمثيل توكيد عليهم وتحذير من الرجوع عن الإقرار إذا عملوا بشهادة اللّه ، وشهادة بعضهم على بعض.

فمن تولى بعد ذلك الميثاق والتوكيد ، واتخذ الدين أداة للتفريق والعداء ، ولم يؤمن بالنبي المبعوث في آخر الزمان ، المصدّق لمن تقدمه ، المهيمن على الرسالات والكتب السابقة ، كما حصل من أهل الكتاب المعاصرين للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأولئك هم المتمردون من الكفار ، الخارجون عن عهد اللّه وميثاقه ، الناقضون العهد.

وإذا كان الدين واحدا ، وأن الرسل متفقون في الأصول العامة لوحدة الدين الحق ، كما بيّن تعالى ، فلما ذا ينكر أهل الكتاب نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ؟ ! أيتولون غير دين اللّه ، وغير الحق بعد ما تبين ، ويريدون غير الإسلام دينا ؟ وقد أسلم وخضع للّه تعالى وانقاد لحكمه ومراده أهل السموات والأرض ، إما طوعا واختيارا من أنفسهم بالإنصاف والنظر في الأدلة ، أو كرها بالسيف أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل ، وإدراك الغرق فرعون والإشراف على الموت ، فلما رأوا بأس اللّه وتصرفه بالكون والتكوين والإيجاد قالوا : آمنا باللّه وحده ، وإلى اللّه المرجع والمآب يوم المعاد ، يرجع إليه سائر الخلق ، فيجازي كلّا بعمله ، سواء من أسلم وخضع وانقاد للّه ، ومن اتخذ غير الإسلام دينا من اليهود والنصارى ، وهذا تهديد ووعيد لهم.

ج ٣ ، ص : ٢٨١

فقه الحياة أو الأحكام :

أخذ اللّه تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضا ، ويأمر بعضهم بعضا ، فذلك معنى النصرة بالتصديق ، ومن بنود الميثاق : أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم.

(٢٩٥/٣)

ثم جاءهم الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، فما عليهم إلا أن يؤمنوا برسالته ويؤيدوا دعوته ، تنفيذا للميثاق العظيم على الأنبياء ، إن كانوا من أتباعهم ، ووفاء بالعهد المؤكد ، ولأنه مصدّق لرسالات الأنبياء السابقين لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف ، وهم قد شهدوا على بعضهم بموجب الميثاق وشهد اللّه عليهم جميعا به.

ومن لم يؤت الكتاب فهو في حكم من أوتي الكتاب.

ومن أعرض عن اتباع رسالة الإسلام التي جاء بها محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتولى من أمم الأنبياء أو من غير أممهم عن الإيمان بوحدانية اللّه وبصدق رسالة خاتم الأنبياء ، بعد أخذ الميثاق ، فأولئك هم الخارجون عن دائرة الإيمان ، المصنّفون مع الكفار المتمردين عن طاعة اللّه.

أهم يطلبون غير دين اللّه ؟ ! وقد خضع لحكمه أهل السموات والأرض ، وكل مخلوق هو منقاد مستسلم لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه.

قال الكلبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : أيّنا أحق بدين إبراهيم ؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « كلا الفريقين بريء من دينه » فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك ، فنزل : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ يعني : يطلبون.

ج ٣ ، ص : ٢٨٢

و هذه الآية نظير قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [الزخرف ٤٣/ ٨٧] وقوله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [لقمان ٣١/ ٢٥].

عن مجاهد عن ابن عباس قال : إذا استصعبت دابّة أحدكم أو كانت شموسا « ١ » ، فليقرأ في أذنها هذه الآية : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ.

(٢٩٦/٣)

و الخلاصة : إن الدين الحق هو الانقياد للّه والإخلاص له ، وإن دين اللّه واحد ، وإن رسالات الأنبياء ومللهم واحدة في أصولها العامة ، وإن الأنبياء يكمل بعضهم بعضا وينصر بعضهم بعضا ويؤيد دعوته ، وهم جميعا عبيد للّه مؤمنون بوحدانيته ، مذعنون لوجهه الكريم ، مخلصون له الدين حنفاء ، وقد أدّوا رسالتهم على الوجه الأكمل ، وما على البشرية إلا التزام منهجهم ، والسير على سنتهم ، دون اختلاف ولا نزاع ولا معاداة ، ولا تمسك بالموروثات ، وبما عندهم من كتاب وحكمة ، فقد انصبّت كل الأديان في الإسلام في صورته الأخيرة ، وانصهرت كل الأحكام في حكم رسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكان القرآن مصدّقا لما بين يديه وما تقدمه من الكتب السماوية ومهيمنا عليها ، ودين اللّه الواحد : هو عبادة اللّه وحده لا شريك له الذي أسلم له من في السموات والأرض ، أي استسلم له من فيهما طائعين أو كارهين ، كما قال تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً [الرعد ١٣/ ١٥] وقال : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ ، عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ ، سُجَّداً لِلَّهِ ، وَهُمْ داخِرُونَ ، وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ ، وَالْمَلائِكَةُ ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ، يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ [النحل ١٦/ ٤٨- ٥٠] فالمؤمن مستسلم بقلبه

---

(١) الشموس : الدابة النفور التي لا تخضع لأمر صاحبها.

و قالبه للّه ، والكافر مستسلم للّه كرها ، بالقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.

الإيمان بكل الأنبياء وقبول دين الإسلام [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨٤ الى ٨٥]

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (٨٥)

الإعراب :

قُلْ : آمَنَّا بِاللَّهِ فيه وجهان : أحدهما- على تقدير محذوف : قل : قولوا : آمنا باللّه ، وحذف القول كثير في القرآن وكلام العرب. الثاني- أن يكون المقصود من خطاب النبي عليه الصلاة والسلام خطاب أمته ، مثل : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ومثل : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد به الأمة.

دِيناً منصوب إما لأنه مفعول يَبْتَغِ ، ويكون غَيْرَ حالا منصوبا ، تقديره :

ومن يبتغ دينا غير الإسلام ، فلما قدم صفة النكرة عليها انتصبت على الحال ، أو لأنه منصوب على التمييز.

وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ .. متعلق بفعل مقدر تقديره : وهو خاسر في الآخرة ، من الخاسرين ، ولا يجوز أن يتعلق بالخاسرين لأن الألف واللام فيه بمنزلة الاسم الموصول ، فلو تعلّق به لأدى إلى أن يتقدم معمول الصلة على الموصول ، وهو لا يجوز.

البلاغة :

وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ هو من عطف العام على الخاص.

ج ٣ ، ص : ٢٨٤

المفردات اللغوية :

وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا يعني القرآن. وَالْأَسْباطِ الأحفاد وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وأبناؤهم ، وخصهم بالذكر لأن أهل الكتاب يقرّون بنبوتهم. لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بالتصديق والتكذيب. مُسْلِمُونَ موحدون مخلصون له عبادتنا ، ومستسلمون مطيعون له.

(٢٩٨/٣)

غَيْرَ الْإِسْلامِ يعني التوحيد وإسلام الوجه للّه تعالى ، ويمكن أن يراد به شريعة نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم. مِنَ الْخاسِرِينَ أريد به تضييع رصيد الفطرة وهو الانقياد للّه وطاعته.

سبب النزول ، نزول الآية (٨٥) :

قال مجاهد والسدّي : نزلت هذه الآية في الحارث بن سويد أخو الحلاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتد عن الإسلام هو واثنا عشر معه ، ولحقوا بمكة كفارا ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة. قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات.

المناسبة :

ذكر فيما سبق ميثاق النبيين أن يؤمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم وينصروه ، وهنا أمر لمحمد وأمته أن يؤمنوا بجميع الأنبياء المتقدمين وبكتبهم وبالإسلام الذي هو دين الأنبياء قاطبة.

التفسير والبيان :

قل يا محمد : آمنت وأمتي بوجود اللّه ووحدانيته وسلطانه. فهذا أمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بأن يخبر عن نفسه وعن أمته بالإيمان ، فلذلك وحّد الضمير في قُلْ وجمع في آمَنَّا ، ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالا من اللّه لقدر نبيه ، كما ذكر الزمخشري.

وآمنا بما أنزل علينا وهو القرآن ، وصدقنا بما أنزل اللّه من وحي على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق

ويعقوب وذريته الأسباط ، فجوهر المنزّل واحد ، كما قال

ج ٣ ، ص : ٢٨٥

تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ [النساء ٤/ ١٦٣].

وصدّقنا بما أوتي موسى من التوراة وعيسى من الإنجيل وسائر المعجزات.

وخص هذان النبيان بالذكر ، تبيانا لأتباعهم وهم اليهود والنصارى بأن الإيمان عام في منهج القرآن.

وكذلك صدقنا بما أوتي بقية النبيين من رسالات كداود وسليمان وصالح وهود وأيوب وغيرهم ممن لم نعلم قصصهم.

(٢٩٩/٣)

و قدم الإيمان باللّه على الإيمان بالكتب لأنه المصدر والأساس ، وقدم المنزل علينا وهو القرآن ، مع أنه متأخر عن نزول الكتب الأخرى لأنه طريق المعرفة بما سبق ، ولأنه المهيمن على سائر الكتب السماوية ، ولأنه الكتاب الإلهي إلى الأبد ، وأما غيره فاندثر وضاع ، ثم بدّل وغيّر.

والأمر بالإيمان باللّه وبأنبيائه أمر شامل عام ، لا يختلف فيه أهل ملة عن غيرهم ، ولا تفرقة فيه بين الأنبياء تصديقا وكفرا ، فلسنا في ذلك كاليهود والنصارى نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بل نؤمن بالكل على أن كل نبي مرسل من قبل اللّه تعالى ، ونحن له مستسلمون منقادون له بالطاعة.

وبعد الأمر بالإيمان جاء الأمر بالإسلام لأن الإيمان بوجود اللّه وهو التصديق به هو الأصل ، وعنه يصدر العمل الصالح ، وأما الإسلام فهو توحيد اللّه وإخلاص العبادة له والانقياد لشرعه ومنهجه ، وهو يأتي تبعا لأصل الاعتقاد.

ومن يطلب غير الإسلام (و هو التوحيد وإسلام الوجه للّه تعالى) دينا ، فلن يقبل منه قطعا ، وهو من الذين وقعوا في الخسران مطلقا لأنه سلك طريقا سوى ما شرعه اللّه ، وأضاع ما جبلت عليه الفطرة السليمة من توحيد اللّه

ج ٣ ، ص : ٢٨٦

و الانقياد لأوامره ، كما قال تعالى : قُلْ : إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ [الزمر ٣٩/ ١٥] ، و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد ومسلم عن عائشة : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ »

و

قال أيضا فيما رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع : « كل مولود يولد على الفطرة ،

فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجّسانه » .
فقه الحياة أو الأحكام :

(٣٠٠/٣)

إن خلود شريعة الإسلام نابع من شيئين : أولهما- الإيمان الشامل المطلق بكل الأنبياء وبكتبهم ورسالاتهم ، دون تفرقة بين أحد منهم ، فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل هم يصدقون بما أنزل من عند اللّه ، وبكل نبي بعثه اللّه.
وثانيهما- الإيمان بوجود اللّه ووحدانيته ، والانقياد لطاعته ، والتزام منهجه وشرعه ، وهو شرع الأنبياء ، ودين الرسل الذي ارتضاه لعباده ، وجعله أساس الاحتكام إليه ، وطريق النجاة به يوم المعاد ، فمن سلك طريقا آخر سوى ما شرعه اللّه ، فلن يقبل منه قطعا في الآخرة ، وكان من الذين خسروا أنفسهم ، وأضاعوا حياتهم في غير المفيد لهم.
أنواع الكفار من حيث التوبة [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨٦ الى ٩١]
كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٩١)
ج ٣ ، ص : ٢٨٧
الإعراب :

(٣٠١/٣)

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ : أُولئِكَ : مبتدأ ، وجَزاؤُهُمْ : مبتدأ ثان ، وأَنَّ عَلَيْهِمْ : خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول. ويجوز أن يكون جَزاؤُهُمْ بدلا من أُولئِكَ بدل اشتمال ، وأَنَّ عَلَيْهِمْ خبر أُولئِكَ. إِلَّا الَّذِينَ تابُوا استثناء متصل.
خالِدِينَ فِيها حال من ضمير عَلَيْهِمْ ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ حال أخرى ، ويجوز أن يكون مستأنفا منقطعا عن الأول.

وَهُمْ كُفَّارٌ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من ضمير ماتُوا. ذَهَباً تمييز. وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ما : نافية ، ومِنْ : زائدة ، وناصِرِينَ :

مبتدأ ، ولَهُمْ : خبره ، والجملة الاسمية حال من ضمير لَهُمْ الأول. ودخلت الفاء في خبر إن فَلَنْ يُقْبَلَ لشبه الذين بالشرط ، وإيذانا بتسبب الكفر لعدم القبول.

البلاغة :

أَلِيمٌ مؤلم ، وهو صيغة فعيل للمبالغة.

المفردات اللغوية :

كَيْفَ يَهْدِي أي لا يهدي. الْبَيِّناتُ الحجج الظاهرات على صدق النبي.

الظَّالِمِينَ أي الكافرين ، والظلم : الانحراف عن سبيل الحق والعدل. لَعْنَةَ اللَّهِ اللعن :

الطرد والإبعاد من رحمة اللّه. خالِدِينَ فِيها أي اللعنة أو النار المدلول بها عليها.

يُنْظَرُونَ يمهلون ويؤخرون.

ج ٣ ، ص : ٢٨٨

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بعيسى بَعْدَ إِيمانِهِمْ بموسى ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً بمحمد لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ إذا غرغروا أو ماتوا كفارا. مِلْ ءُ الْأَرْضِ مقدار ما يملؤها. أَلِيمٌ مؤلم.

ناصِرِينَ مانعين منه.

سبب النزول : نزول الآية (٨٦) :

روى النسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ، ثم ارتد ، ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول اللّه : هل لي من توبة ؟ فنزلت : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا إلى قوله : فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فأرسل إليه قومه ، فأسلم.

و

أخرج مسدّد في مسنده وعبد الرزاق عن مجاهد قال : جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم كفر ، فرجع إلى قومه ، فأنزل اللّه فيه القرآن :

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا إلى قوله : غَفُورٌ رَحِيمٌ فحملها إليه رجل من قومه ، فقرأها عليها ، فقال الحارث : « إنك واللّه ما علمت لصدوق ، وإن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لأصدق منك ، وإن اللّه لأصدق الثلاثة » فرجع وأسلم وحسن إسلامه.

وقال الحسن البصري وقتادة : نزلت في اليهود لأنهم كانوا يبشّرون بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ،

ويستفتحون على الذين كفروا ، فلما بعث عاندوا وكفروا ، فأنزل اللّه عز وجل : أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ ، وَالْمَلائِكَةِ ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أخرجه عبد بن حميد وغيره « ١ » .

أي أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، رأوا نعت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في كتابهم ، وأقروا بذلك ، وشهدوا أنه حق ، ولذا كانوا يستفتحون به

---

(١) البحر المحيط : ٢/ ٥١٩

ج ٣ ، ص : ٢٨٩

على المشركين ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك ، وأنكروه ، وكفروا به بعد إيمان سابق.

وأرى أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول ، وإن كانت القرائن ترجح أن الآية نزلت في أهل الكتاب- ومثلهم المشركون- لأن الآيات السابقة تدور حول محاورتهم ومناقشتهم واستئصال جذور الشرك من نفوسهم.

وهذا ما رجحه أيضا ابن جرير الطبري ، وأيده في (تفسير المنار).

(٣٠٣/٣)

مجمل بيان الآيات : هذه الآيات جعلت الكفار أصنافا ثلاثة :

١- الذين تابوا توبة صادقة ، وهم الذين أشارت إليهم الآية : إِلَّا الَّذِينَ تابُوا.

٢- الذين تابوا توبة غير صحيحة ، وهم المذكورون في قوله : لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ.

٣- الذين لم يتوبوا أصلا وماتوا على الكفر ، وهم الموصوفون بقوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ.

التفسير والبيان :

كيف يهدي اللّه قوما كاليهود والنصارى الذين كفروا بعد إيمانهم وشهادتهم أن الرسول حق ، وأرشدتهم الآيات الواضحات من القرآن والكتب السابقة وسائر المعجزات الدالة على صدق نبوته وصحة رسالته ؟ ! هذا استبعاد لهداية هؤلاء وتيئيس للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم منهم ، كما قال البيضاوي. فمن سنن اللّه تعالى في هداية البشر إلى الحق أن يقيم لهم الدلائل والبينات ، مع إزالة الموانع من النظر فيها على النحو المؤدي إلى المطلوب ، وقد مكنهم اللّه من هذا كله ، وآمنوا به ثم كفروا.

ج ٣ ، ص : ٢٩٠

و اللّه لا يهدي أولئك الظالمين لأنفسهم لأنهم عرفوا الحق وحادوا عنه ، وتركوا دلائل النبوة ، وهداية العقل.

فجزاؤهم استحقاق غضب اللّه وسخطه والطرد من رحمته ، وسخط الملائكة والناس ، وصبّ اللعنات عليهم ، والدعاء عليهم بالطرد من رحمة اللّه في الدنيا ، وكذا في الآخرة ، كما قال تعالى : وَقالَ : إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً [العنكبوت ٢٩/ ٢٥].

وهم خالدون أبدا في اللعنة أو في النار لأن مستحق اللعنة جزاؤه النار ، ولا يخفف عنهم العذاب ساعة واحدة ، ولا يؤجلون لعذر يعتذرون به.

(٣٠٤/٣)

ثم استثنى اللّه تعالى التائبين ، فمن تاب من هؤلاء عن ذنبه ، وترك الكفر ، ورجع إلى اللّه ، وأصلح قلبه وعمله ، وندم على ما فعل ، فإن اللّه غفور لما تقدّم منه ، رحيم بعباده كما قال : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ [الشورى ٤٢/ ٢٥]. هذا هو الصنف الأول من الكفار وهم التائبون.

وأما الصنف الثاني فهم أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وشهدوا قبل بعثته أنه حق ، ثم كفروا به بعد البعث ، ثم ازدادوا كفرا بالإصرار والعناد ، ومقاومة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومحاربة المؤمنين ، فهؤلاء لن تقبل توبتهم ما داموا على الكفر ، ثم ماتوا وهم كفار ، وأولئك هم الواقعون في الضلال ، المخطئون سبيل الحق والنجاة ، الذين تمكن الكفر في قلوبهم.

والآية تشير إلى أن الكفر يزداد قوة واستقرارا ، وتمكنا في القلب بعمل ما يقتضيه ويقويه وينميه ، من طريق القيام بأعمال تنافي الإيمان ، وتدعم الكفر وأهله. وكذلك الإيمان يزداد وينقص بعمل الصالحات أو بالإنقاص منها ، كما

ج ٣ ، ص : ٢٩١

قال تعالى في الحالين : وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ، وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ [التوبة ٩/ ١٢٤- ١٢٥].

(٣٠٥/٣)

و التوبة سبيل التزكية والتطهير والإصلاح ، كما قال تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها [الشمس ٩١/ ٩- ١٠] فمن أهمل إصلاح نفسه خسر ، ومن حاول الإصلاح نجح ، فإذا تراكمت

المساوئ ، وأهملت تزكية النفس ، وتدنست بالمعاصي الكثيرة ، صعب في العادة الرجوع إلى جادة الاستقامة. وهذا ما أشارت إليه آيات التوبة : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً. وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ، حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ، قالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً [النساء ٤/ ١٧- ١٨].

وأما الصنف الثالث فهم الذين يموتون وهم كفار ، فهؤلاء لن يقبل منهم الفداء ، ولو كان ملء الأرض ذهبا ، ولو افتدى به في الآخرة ، لا يقبل منه ، على افتراض أنه يملكه ، ويريد استخدامه وسيلة النجاة ، ولهم عذاب أليم أي عقاب مؤلم ، وليس لهم ناصر ولا شفيع يمنع عنهم العذاب ، أو يخففه ، كما قال تعالى : فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ، وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْواكُمُ النَّارُ ، هِيَ مَوْلاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [الحديد ٥٧/ ١٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

صنفت الآيات الكفار إلى أصناف ثلاثة بحسب بقائهم على الكفر وقبولهم الإيمان ، وهو تصنيف صريح واقعي.

فمن كفر بعد إسلامه ، وكان ظالما مقيما على الظلم لا يهديه اللّه ما دام مقيما

على كفره وظلمه ، ولا يقبل على الإسلام ، وله جزاء شديد هو استحقاق غضب اللّه وسخطه ، والخلود في نار جهنم ، دون تخفيف لشيء من العذاب ، ولا تأجيل له لمعذرة ما. فأما إذا أسلم هؤلاء وتابوا ، وأصلحوا ما أفسدوا ، فباب المغفرة والرحمة مفتوح لهم. وهذا الباب مفتوح أيضا بالأولى لمن كان مسلما عاصيا ثم تاب وأصلح وأخلص عمله للّه.

ولن تقبل التوبة من الكفار الذين كفروا بعد إيمانهم ، وبقوا مقيمين على الكفر ، وسماها اللّه تعالى توبة غير مقبولة لأنه لم يصح منهم عزم عليها ، واللّه عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم وصدقت الإرادة.

كما لا تقبل توبتهم إذا عزموا عليها عند الموت ، كما قال عز وجل : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ، حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ [النساء ٤/ ١٨] ويؤيده

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر : « إن اللّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » .

ومن مات كافرا فلن يقبل منه خير أبدا ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربة ، ولن ينفعه بعد موته بديل ولا فداء مهما كثر ، كما قال تعالى : وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ [البقرة ٢/ ١٢٣] وقال :

لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ [البقرة ٢/ ٢٥٤] وقال : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ [المائدة ٥/ ٣٦].

و

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « يجاء بالكافر يوم القيامة ، فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا ، أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك » « ١ » .

(٣٠٧/٣)

---

(١) هذا لفظ البخاري ، وقال مسلم بدل « قد كنت » : « كذبت ، قد سئلت » وقد تقدم الحديث قريبا في تفسير الآية (٨١).

ج ٣ ، ص : ٢٩٣

و أما عدم جدوى فعل الخير الذي صدر منه في الدنيا ، ففيه حديث آخر وهو

أن عبد اللّه جدعان سئل عنه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكان يقري الضيف ، ويفك العاني « ١ » ، ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا ، إنه لم يقل يوما من الدهر : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

نوع النفقة المبرورة وجزاء الإنفاق [سورة آل عمران (٣) : آية ٩٢]

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

المفردات اللغوية :

لَنْ تَنالُوا لن تصيبوا وتجدوا. الْبِرَّ كلمة جامعة لوجوه الخير ، والمراد بها هنا : لن تنالوا ثواب البر وهو الجنة. تُنْفِقُوا تصدّقوا. مِمَّا تُحِبُّونَ من أموالكم. فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ فيجازي عليه.

المناسبة :

ادعى أهل الكتاب في الآيات السابقة الإيمان ، وأن النبوة محصورة فيهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، وناسب هنا أن يذكّرهم بأن آية الإيمان هو الإنفاق في سبيل اللّه من أحب الأموال ، مع الإخلاص.

التفسير والبيان :

لن تصلوا إلى ثواب البر وهو الجنة ، ولن تكونوا بررة تستحقون رضوان اللّه وفضله ورحمته ، وصرف عذابه عنكم ، حتى تنفقوا من أحب الأموال إليكم من

---

(١) العاني : الأسير.

ج ٣ ، ص : ٢٩٤

كرائم الأموال. وما تنفقون من شيء ، سواء أكان كريما أم رديئا ، فإن اللّه به عليم فيجازي عليه ، ولا يخفى عليه أمر الإخلاص والرياء.

ومما يدل على سمو رتبة الصحابة أنهم كانوا يتصدقون بأحب الأموال لديهم ،

(٣٠٨/٣)

روى الأئمة الستة عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلا بالمدينة ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء « ١ » (بستان في المدينة) وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها ، فلما نزلت : لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ قال أبو طلحة :

يا رسول اللّه ، إن أحب أموالي إليّ بيرحاء ، وإنها صدقة للّه تعالى ، أرجو برّها وذخرها عند اللّه تعالى ، فضعها يا رسول اللّه حيث أراك اللّه تعالى ، فقال عليه الصلاة والسلام : بخ بخ (كلمة استحسان تدل على الرضا والإعجاب) ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقال : أفعل يا رسول اللّه ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

و

في رواية لمسلم : فجعلها بين حسان بن ثابت وأبيّ بن كعب.

قال العلماء : إنما تصدّق به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على قرابة المصدّق لوجهين : أحدهما- أن الصدقة في القرابة أفضل ، الثاني- أن نفس المتصدق تكون بذلك أطيب وأبعد عن الندم.

وكذلك فعل زيد بن حارثة ،

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر قال : لما نزلت هذه الآية ، جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها (سبل) لم يكن له مال أحب إليه منها فقال : هي صدقة ، فقبلها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وحمل عليها ابنه أسامة- أي أعطاها له- ، فكأن زيدا وجد من ذلك في نفسه (أي حزن) ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن اللّه قد قبلها منك » .

(١) وضبطها ابن العربي « بيرحاء » وفي الموطإ : « و كانت أحب أمواله إليه بئرحاء » .
ج ٣ ، ص : ٢٩٥
و
في الصحيحين : أن عمر قال : يا رسول اللّه ، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر ، فما تأمرني به ؟ قال : « حبّس الأصل ، وسبّل الثمرة » .

و أعتق ابن عمر نافعا مولاه ، وكان أعطاه فيه عبد اللّه بن جعفر ألف دينار ، قالت صفية بنت أبي عبيد : أظنه تأوّل قول اللّه عز وجل : لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ. وأخرج عبد بن حميد والبزار عن ابن عمر قال :
حضرتني هذه الآية : لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ ، فذكرت ما أعطاني اللّه تعالى فلم أجد أحبّ إليّ من مرجانة (جارية رومية) فقلت : هي حرة لوجه اللّه ، فلو أني أعود في شيء جعلته للّه تعالى لنكحتها ، فأنكحتها نافعا (مولاه الذي كان يحبه). ولم يمت ابن عمر إلا وأعتق ألف رقبة.
أما معنى البر فاختلفوا في تأويله على أقوال ثلاث : الجنة ، أو العمل الصالح ، أو الطاعة ، والتقدير على المعنى الأول : لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون أي لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون ، وعلى المعنى الثاني : لن تصلوا إلى العمل الصالح ... وعلى المعنى الثالث وهو معنى جامع : لن تصلوا إلى الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات حتى تنفقوا مما تحبون. وقال الحسن البصري : حَتَّى تُنْفِقُوا : هي الزكاة المفروضة. والأولى أن يكون المراد كما قال الزمخشري : لن تبلغوا حقيقة البر حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها ، كقوله : أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ [البقرة ٢/ ٢٦٧].
وكان السلف رحمهم اللّه إذا أحبوا شيئا جعلوه للّه تعالى.
فقه الحياة أو الأحكام :
دلت الآية على أمرين :
الأول- أن يكون الإنفاق في سبيل اللّه للوصول إلى حقيقة البر من أحب
ج ٣ ، ص : ٢٩٦
الأموال وأفضلها عند مالكها ، وبمقدار طيبها وحسنها يكون الثواب عليها.
الثاني- الترغيب والحث على إخفاء الصدقة ، بعدا عن الرياء ، وإخلاصا في العمل لوجه اللّه ، وترفعا

عن نفاذ الشيطان إلى قلب المؤمن الصالح.
انتهى الجزء الثالث وللّه الحمد

ج ٤ ، ص : ٥
[الجزء الرابع]
[تتمة سورة آل عمران]
الرّد على اليهود في تحريم بعض الأطعمة [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٣ الى ٩٥]
كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)
البلاغة :
قُلْ : فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ الأمر للتوبيخ واللوم.
المفردات اللغوية :
الطَّعامِ المراد به هنا المطعومات كلها ، ويكثر استعماله في البرّ وفي الخبز. حِلًّا حلالا. إِسْرائِيلَ لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، ومعناه : الأمير المجاهد مع اللّه ، ثم أطلق على جميع ذريته ، فالمراد الآن شعب إسرائيل لا يعقوب نفسه. مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ على موسى ، وذلك بعد إبراهيم ، ولم تكن المطعومات على عهده حراما كما زعموا. افْتَرى
اختلق الكذب. مِنْ بَعْدِ ذلِكَ
أي بعد ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب ، لا من عهد إبراهيم. الظَّالِمُونَ المتجاوزون الحق إلى الباطل. حَنِيفاً مائلا عن الباطل إلى الحق.
المناسبة :
اشتملت سورة آل عمران من أولها إلى هنا على إقامة الدلائل على إثبات وحدانية اللّه ، ونبوّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومحاجّة أهل الكتاب وإبطال مزاعمهم وبدعهم وتقاليدهم. وجاءت هذه الآيات وما بعدها إلى الآية (٩٧) حول البيت الحرام للرّد على شبهتين لليهود :

الأولى- قولهم للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إنك تدّعي أنك على ملّة إبراهيم وذريته ، فكيف تستحلّ ما كان محرّما عندهم من الطعام كلحم الإبل ؟ فنزلت الآية :

ج ٤ ، ص : ٦

كُلُّ الطَّعامِ ردّا عليهم.

قال أبو روق والكلبي : نزلت حين قال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إنه على ملّة إبراهيم ، فقالت اليهود : كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ، فقال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « كان ذلك حلالا لإبراهيم ، فنحن نحلّه » ، فقالت اليهود : كلّ شيء أصبحنا اليوم نحرّمه ، فإنّه كان على نوح وإبراهيم ، حتى انتهى إلينا ، فأنزل اللّه عزّ وجلّ تكذيبا لهم : كُلُّ الطَّعامِ ...

الثانية- قولهم أيضا : كيف تدّعي أنك على ملّة إبراهيم وأنك أولى الناس به ؟ وإبراهيم وإسحاق وذريته من الأنبياء كان يعظمون بيت المقدس ويصلّون إليه ، فلو كنت على منهجهم لعظّمته ، ولما تحوّلت عنه إلى الكعبة ، فنزلت آية :

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ ... للرّد عليهم. قال مجاهد : تفاخر المسلمون واليهود ، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة ، لأنه مهاجر الأنبياء ، وفي الأرض المقدسة ، وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية « ١ » .

التفسير والبيان :

كلّ الطعام بأنواعه الطّيبة المباحة كان حلالا لبني إسرائيل ولإبراهيم من قبله إلا ما حرّم إسرائيل أو شعب إسرائيل على نفسه ، وهو لحوم الإبل وألبانها ، وذلك قبل أن تنزل التوراة على موسى ، والذي حرّم اللّه تعالى على شعب إسرائيل في التوراة هو بعض الطّيبات عقوبة لهم وتأديبا ، كما قال تعالى : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ [النساء : ٤/ ١٦٠] ، وقال :

وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا ، أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ [الأنعام ٦/ ١٤٦].

والمراد في رأي بعضهم من

---

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري : ص ٦٥- ٦٦

ج ٤ ، ص : ٧

إِسْرائِيلَ هنا ليس يعقوب عليه السّلام الذي ذكرت بعض الرّوايات « أنه لما حصل له عرق النّسا ، فنذر

إن شفي لا يأكل الإبل » لأنه كان بينه وبين نزول التوراة زمن طويل ، وإنما المراد شعب إسرائيل كما هو مستعمل عند اليهود ، والمعنى في تحريمهم أشياء على أنفسهم : أنهم كانوا سبب التحريم لارتكابهم الظلم واجتراح السيئات. هذا ما رجحه صاحب (تفسير المنار) « ١ » .

أما الذي سار عليه جمهور المفسرين : فهو أن المراد بإسرائيل يعقوب عليه السّلام ،

روى التّرمذي عن ابن عباس : أنّ اليهود قالوا للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم :

أخبرنا ، ما حرّم إسرائيل على نفسه ؟ قال : « كان يسكن البدو ، فاشتكى عرق النّساء ، فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها ، فلذلك حرّمها » قالوا :

صدقت ، وذكر الحديث « ٢ » .

وجاء في رواية الإمام أحمد أن اليهود سألوا النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن أشياء ، فقالوا :

أخبرنا أي الطعام حرّم إسرائيل على نفسه ؟ فقال : « أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا شديدا ، وطال سقمه ، فنذر للّه نذرا : لئن شفاه اللّه من سقمه ليحرّمنّ أحبّ الطّعام والشّراب إليه ، وكان أحبّ الطّعام إليه لحم الإبل ، وأحبّ الشّراب إليه ألبانها » .

و خلاصة الجواب : كلّ أنواع المطعومات كانت حلالا لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة ، وإلا ما حرّمه اللّه في التّوراة على شعب إسرائيل من مطعومات تأديبا وزجرا لهم بسبب جرائم ومخالفات ارتكبوها ، والنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأمته لم يرتكبوا هذه السّيئات والمخالفات ، فلا تحرم عليهم هذه الطّيبات ، وإبراهيم لم يكن محرّما عليه شيء من هذا لأن التّحريم حصل بعد نزول التّوراة ، وكان كلّ طعام حلالا له.

---

(١) تفسير المنار : ٤/ ٤

(٢) تفسير القرطبي : ٤/ ١٣٤ ، تفسير الكشاف : ١/ ٣٣٥ ، تفسير ابن كثير : ١/ ٣٨١

ج ٤ ، ص : ٨

ثم أمر اللّه نبيّه محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم بالاحتكام إلى التوراة كتاب اليهود لتكذيب دعواهم ، وقال لهم : فأتوا بالتوراة كتابكم فاتلوها إن كنتم صادقين في دعواكم ، لا تخافون تكذيبها لكم ، ولو جئتم بها لوجدتم أن تحريم شيء على بني إسرائيل ما كان إلا عقوبة تأديبية زاجرة ، فيظل غير الجاني على أصل الحلّ لأن الأصل في الأطعمة الحلّ والإباحة.

فمن اخترع الكذب على اللّه ، وزعم أن التّحريم كان على الأنبياء السابقين وأممهم قبل نزول التّوراة ،

وادّعى ما لم ينزله اللّه في كتابه ، فأولئك هم الظالمون أنفسهم بطمس معالم الحق وإظهار الكذب على اللّه.

روي أنهم لم يتجاسروا على الإتيان بالتوراة ، فبهتوا ، وفي ذلك دليل واضح على صحّة نبوّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنه يعلم بوحي من اللّه ما في التوراة ، وهو لم يقرأها لأمّيته المعروفة ، وأنها مؤيّدة لما في القرآن.

و إذ ظهر الحقّ واندحر الباطل ، قل لهم يا محمد : صدق اللّه فيما أخبرني به أن سائر الأطعمة كانت حلالا لبني إسرائيل ، وأنه لم يحرّم اللّه شيئا على إسرائيل قبل التوراة ، وأن ما حرّم اللّه على اليهود كان جزاء وتأديبا وعقوبة لهم بسبب أفعالهم القبيحة.

وإذ استبان الحق ، وظهرت الحجّة عليكم ، فعليكم اتّباع ملّة إبراهيم التي أدعوكم إليها ، والتي تبيح أكل لحوم الإبل وألبانها ، وهي الملّة الحنيفيّة السمحاء الوسط التي لا إفراط فيها ولا تفريط ، وهي التي شرعها اللّه في القرآن ، وكان إبراهيم حنيفيّا مائلا عن الأديان الأخرى الباطلة إلى الدّين الحقّ الذي يقوم على مبدأ التوحيد وإباحة الطّيبات ، وما كان مشركا يدعو مع اللّه إلها آخر ، أو يعبد سواه ، كما يفعل عبدة الأوثان ، ويدعيه اليهود أن عزيرا ابن اللّه ، ويعتقده النصارى أن المسيح ابن اللّه.

ج ٤ ، ص : ٩

فملّة إبراهيم القائمة على التوحيد : هي شرعة القرآن التي دعا إليها محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهي الحقّ الذي لا مرية فيه ، كما قال تعالى : قُلْ : إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام ٦/ ١٦١] ، وهو الذي أمره اللّه به صراحة ، كما جاء في آية أخرى : ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل ١٦/ ١٢٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

إن شريعة القرآن واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، وهي التي تلتقي مع الشرائع السابقة في أصول الحلال والحرام ، فلذا اتّفقت مع ملّة إبراهيم ومع ما كان مقررا من إباحة أنواع المطعومات كلها على بني إسرائيل ، إلا أمرين :

الأول– ما حرّمه يعقوب (إسرائيل) على نفسه باجتهاد منه ، لا بإذن من اللّه تعالى ، على الصحيح لأن اللّه تعالى أضاف التّحريم إليه بقوله تعالى :

.. إِلَّا ما حَرَّمَ .. ، وأنّ النّبي إذا أدّاه اجتهاده إلى شيء ، كان دينا يلزمنا اتّباعه ، لتقرير اللّه سبحانه إياه على ذلك. وقد حرّم نبيّنا صلّى اللّه عليه وسلّم العسل على نفسه– على الرواية الصحيحة ، أو خادمه « ١ » مارية ، فلم يقرّ اللّه تحريمه ، ونزل في القرآن : لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ [التحريم ٦٦/ ١] ، وهل عليه الكفارة بتحريم المباح ؟ رأيان لعلمائنا : أو حنيفة أجراه مجرى اليمين وجعله أصلا في تحريم كلّ مباح ، والشافعي : لم يوجب فيه الكفارة ، وجعله مخصوصا بموضع النّص.

وأما سبب تحريم يعقوب لحوم الإبل فهو كما قال ابن عباس : « لما أصاب يعقوب عليه السلام عرق النّسا ، وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل ، فحرّمها على نفسه ، فقالت اليهود : إنما نحرّم على أنفسنا لحوم الإبل لأن يعقوب حرّمها ، وأنزل اللّه تحريمها في التّوراة فأنزل اللّه هذه الآية :

---

(١) الخادم : الغلام أو الجارية.

قُلْ : فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فلم يأتوا ، فقال عزّ وجلّ : فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

» .

قال الزّجاج : « في هذه الآية أعظم دلالة لنبوّة محمد نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم ، أخبرهم أنه ليس في كتابهم ، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة ، فأبوا ، يعني عرفوا أنه قال ذلك بالوحي » .

الثاني– ما حرّمه اللّه في التّوراة على بني إسرائيل من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم ، كما قال تعالى : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ [النساء ٤/ ١٦٠] ، وقال : وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ إلى قوله : ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ [الأنعام ٦/ ١٤٦].

ويرى الكلبي : أنه لم يحرّم اللّه عزّ وجلّ لحوم الإبل في التوراة عليهم ، وإنما حرمه بعد التوراة بظلمهم وكفرهم ، وكان بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظيما ، حرم اللّه تعالى عليهم طعاما طيّبا ، أو صبّ عليهم رجزا وهو الموت ، فذلك قوله تعالى : فَبِظُلْمٍ ... وقوله : وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا ....

ودلّت الآيات صراحة على اتّفاق شريعة القرآن مع ملّة إبراهيم ، بل وملل الأنبياء قاطبة في الدّعوة إلى

توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، ومحاربة الشرك والوثنية ، واتّباع الإسلام بالمعنى العام : وهو الخضوع والانقياد إلى اللّه تعالى في كلّ ما أمر به وما نهى عنه.

منزلة البيت الحرام وفرضية الحج [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٦ الى ٩٧]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٩٧)

ج ٤ ، ص : ١١

الإعراب :

بِبَكَّةَ صلة الذي ، وتقديره : استقرّ ببكّة. مُبارَكاً وَهُدىً منصوبان على الحال من ضمير : استقر. مَقامُ إِبْراهِيمَ مبتدأ وخبره محذوف تقديره : من الآيات مقام إبراهيم.

و قيل : هو بدل من الآيات. وَمَنْ دَخَلَهُ معطوف على مقام. ويجوز كونه مبتدأ منقطعا عما قبله ، وكانَ آمِناً خبر المبتدأ. مَنِ اسْتَطاعَ إما بدل مجرور من الناس ، وإما مرفوع بالمصدر وهو : حج البيت ، وتقديره : أن يحج ، ويجوز إضافة المصدر إلى المفعول ، أو مرفوع على أن مَنْ شرطية مبتدأ ، واستطاع : مجزوم بمن ، وجواب الشرط محذوف تقديره ، فعليه الحج.

والهاء في إِلَيْهِ إما عائدة على الحج أو على البيت.

البلاغة :

لَلَّذِي بِبَكَّةَ حذف الموصول للتفخيم وتقديره : للبيت الذي ببكّة.

وَمَنْ كَفَرَ وضع موضع « و من لم يحجّ » تأكيدا لوجوبه. وكان إيجاب الحج بالجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار. وفي الآية تدرج من التعميم إلى التخصيص ، ومن الإبهام إلى التبيين ، ومن الإجمال إلى التفصيل.

المفردات اللغوية :

بِبَكَّةَ مكّة ، أبدلت ميمها باء ، والعرب كثيرا ما تبدل الباء ميما وبالعكس ، وسميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة ، أي تدقها. مُبارَكاً أي ذا بركة وكثير الخيرات. وَهُدىً لِلْعالَمِينَ لأنه قبلتهم. آياتٌ بَيِّناتٌ علامات ودلائل. مَقامُ إِبْراهِيمَ موضع قيامه وعبادته ، وفيه الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت ، فأثر قدماه فيه ، وبقي إلى الآن ، مع تطاول الزمان ، وتداول الأيدي عليه. وهو من الآيات البينات ، التي منها تضعيف الحسنات فيه وأن الطير لا يعلوه. حِجُّ الْبَيْتِ الحج لغة : القصد ، شرعا : قصد بيت اللّه

الحرام للنّسك.

سَبِيلًا طريقا ، فسّره صلّى اللّه عليه وسلّم- فيما رواه الحاكم وغيره- بالزّاد والرّاحلة. وَمَنْ كَفَرَ باللّه أو بما فرضه من الحجّ. فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ عن الإنس والجنّ والملائكة وعن عبادتهم.

سبب النزول :

نزول آية وَمَنْ كَفَرَ :

أخرج سعيد بن منصور عن عكرمة قال : لما نزلت : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً الآية ، قالت اليهود : فنحن مسلمون ، فقال لهم النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « فرض اللّه على المسلمين حجّ البيت » ، فقالوا :

لم يكتب علينا ، وأبوا أن يحجّوا ، فأنزل اللّه : وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.

وقد ذكرت عن مجاهد سبب نزول آية إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ في مقدّمة تفسير الآيات السابقة.

التفسير والبيان :

إنّ البيت الحرام قبلة المسلمين في الصلاة والدعاء : هو أوّل بيت وضع معبدا للناس ، بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام للعبادة : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ [البقرة ٢/ ١٢٧] ، ثمّ بني المسجد الأقصى بعد ذلك بقرون ، بناه سليمان بن داود سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد ، فكان جعله قبلة أولى ، فيكون النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم على ملّة إبراهيم الذي كان يتّجه بعبادته إلى الكعبة المشرّفة.

فالبيت الحرام أول بيت عبادة ، وهي أولية زمان ، تستتبع أولية الشرف والمكانة ، وله مزايا عديدة هي :

١- إنه مبارك كثير الخيرات ، فهو بالرغم من كونه في واد غير ذي زرع ، بصحراء جرداء ، كما قال تعالى : يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ [القصص ٢٨/ ٥٧] ، ففيه الخضار والفواكه ومنتجات الدّنيا ، وهو أيضا كثير البركة في الثواب والأجر ، ففيه تضاعف الحسنات ، ويستجاب الدّعاء.

٢- إنه مصدر هداية للناس ، يتّجه إليه المصلّون ، وتهواه الأفئدة ، ويزحف إليه الملايين مشاة وركبانا ، يأتون إليه من كلّ فجّ عميق ، لأداء مناسك الحجّ والعمرة ، ببركة دعوة إبراهيم عليه السّلام : رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ ، لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ [إبراهيم ١٤/ ٣٧] ، وقد

ج ٤ ، ص : ١٣

أجاب اللّه دعاء إبراهيم : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ ... الآية [الحجّ ٢٢/ ٢٧- ٢٨].

٣- فيه آيات واضحات ، منها مقام إبراهيم (موضع قيامه للصلاة والعبادة) تعرفه العرب بالنقل المتواتر جيلا عن جيل ، ويدلّ عليه أثر قدمه الشريف على الحجر.

٤- ومن دخله كان آمنا على نفسه وماله من أي اعتداء وإيذاء ، فلا يسفك فيه دم حرام ، ولا يقتل الشخص فيه ولو كان مطلوبا للثأر أو القصاص ، لقوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ [العنكبوت ٢٩/ ٦٧] ، وقوله : أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً [القصص ٢٨/ ٥٧] ، وقوله : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً [البقرة ٢/ ١٢٥] ، وكما دعا إبراهيم عليه السّلام : رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً [البقرة ٢/ ١٢٦]. وقال عمر بن الخطاب : « لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه » .

و قال أبو حنيفة : « من وجب قتله في الحلّ بقصاص أو ردّة أو زنا ، فالتجأ إلى الحرم ، لم يتعرّض له ، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج منه » . واتّفقت قبائل العرب على تعظيمه واحترامه ، بنسبته إلى اللّه ، حتى إن القاتل اللاجئ إلى الحرم يصير فيه آمنا ما دام فيه.

قال الجصاص الرازي : « هذه الآي متقاربة المعاني في الدلالة على حظر قتل من لجأ إلى الحرم ، وإن كان مستحقا للقتل قبل دخوله ، ولما عبّر تارة بذكر البيت ، وتارة بذكر الحرم ، دلّ على أنّ الحرم في حكم البيت في باب الأمن ومنع قتل من لجأ إليه » « ١ » .

وقد أقرّ الإسلام ميزة البيت الحرام. وأما ما كان من فتح مكّة عنوة بالسّيف

---

(١) أحكام القرآن : ١/ ٢٣

ج ٤ ، ص : ١٤

فكان لضرورة تطهيره من الشّرك ، ولأجل أن يعبد اللّه وحده ، واستحلّ ساعة من نهار لم تحلّ لأحد

بعد النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم
أعلن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم كما جاء في السيرة : « من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .
وأما ما حدث أيام الحجاج فهو شذوذ لم يقرّه عليه أحد ، ولم يعتقد أحد حل ما فعل بابن الزّبير ، وإنما هو ظلم وإلحاد فيه : وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ [الحج ٢٢/ ٢٥].
وأما بعض حوادث الاعتداء على الأنفس والأموال فهو فعل الفجار الفساق الذين لم يرعوا للّه حرمة في كعبة ولا غيرها.
وأما ما أجازه الإمامان مالك والشافعي من الاقتصاص من القاتل عمدا في الحرم كله فهو عقوبة حقّ وعدل أمر بها القرآن الكريم ، لا تجاوز فيها على أحد.
واتّفق أهل العلم على أنه إذا قاتل أحد في الحرم قتل ، قال اللّه تعالى :

وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ [البقرة ٢/ ١٩١] ، ففرّق بين الجاني في الحرم وبين الجاني في غيره إذا لجأ إليه. روي عن ابن عبّاس وبان عمر وغيرهما من الصّحابة والتابعين ، فيمن قتل غيره ثم لجأ إلى الحرم : إنه لا يقتل. قال ابن عبّاس : « و لكنه لا يجالس ولا يؤوى ولا يبايع حتى يخرج من الحرم فيقتل ، وإن فعل ذلك في الحرم أقيم عليه الحدّ » « ١ » .
٥- ومن مزايا البيت الحرام تجمع الحجيج فيه وجعل الحجّ واجبا على المسلمين ، فيجب الحجّ على المستطيع منهم ، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وفي هذا تعظيم للبيت. واستطاعة السبيل إلى الشي ء : إمكان الوصول إليه ، والسبيل عام يشمل الشيء البدني والمالي ، فالحج فريضة على كلّ مسلم ما لم يوجد مانع من

---

(١) المرجع السابق : ص ٢١
ج ٤ ، ص : ١٥
الوصول إلى الحرم ، سواء أكان بدنيا أم ماليا أم بدنيا وماليا ، فالبدني : كالمرض والخوف على النفس من العدو ومن السّباع ، أي ألا يكون الطريق مأمونا.
والمالي كفقد الزّاد والرّاحلة إذا كان ممن يتعسّر عليه الوصول إلى البيت إلا بزاد وراحلة. والبدني والمالي معا : فقد الزّاد والراحلة والمرض أو عدم أمن الطريق.

وقد اتّفق أكثر العلماء على أنّ الزّاد والرّاحلة شرطان في الاستطاعة ، بدليل
ما رواه علي عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال فيما رواه الترمذي من حديث ضعيف : « من ملك زادا وراحلة تبلّغه بيت اللّه ، ولم يحجّ ، فلا عليه أن يموت يهوديّا أو نصرانيّا »
، وذلك أن اللّه تعالى يقول في كتابه : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. وفسّر الصحابة كابن عمر وغيره استطاعة السبيل :
بالزّاد والرّاحلة.

(١٢/٤)

وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ أي من جحد كون هذا البيت أول بيت وضع للعبادة ، ولم يمتثل أمر اللّه في الحجّ ، فإن اللّه غير محتاج إليه ، إذ هو الغني عن جميع العالمين. والجمهور حملوا ذلك على تارك الحجّ إعراضا عنه مع توافر الاستطاعة ، بدليل
قوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الترمذي وفيه ضعف : « من مات ولم يحجّ ، فليمت إن شاء يهوديّا أو نصرانيّا » .
وبدليل
ما روي عن الضّحّاك في سبب النزول قال : لما نزلت آية الحج جمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أهل الأديان الستّة : المسلمين واليهود والنصارى والصابئين والمشركين والمجوس وقال فيما رواه أحمد وسلم والنسائي : « إنّ اللّه كتب عليكم الحج ، فحجّوا » فآمن به المسلمون ، وكفر به الباقون ، وقالوا : لا نؤمن به ولا نصلّي ولا نحجّ ، فأنزل اللّه قوله تعالى : وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.
والغرض من الآية والأخبار التنفير من ترك الحجّ والتغليظ على المستطيعين حتى يؤدّوا الفريضة.
ج ٤ ، ص : ١٦
فقه الحياة أو الأحكام :
أرشدت الآية الأولى إلى أن البيت الحرام أول بيت وضعه اللّه للعبادة ، بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام.
وهو يمتاز بمزايا عديدة هي وجود مقام إبراهيم عليه السّلام ، وكونه ذا بركة وخير كثير ، ومصدر هداية للناس ، وسبب وحدة المسلمين لاتّجاههم إليهم في صلاتهم ، وموضع أمن وسلام لمن دخله في الدّنيا : بمنع قتله والاعتداء عليه ، وفي الآخرة : يكون آمنا من النّار ، لقضاء النّسك معظّما له ، عارفا بحقّه ، متقرّبا إلى اللّه تعالى.

وأرشدت الآية الثانية إلى فرضيّة الحجّ على المستطيع الذي لم يجد مانعا من الوصول إلى البيت الحرام ، وهو فرض في العمر مرّة ، وتكراره كل خمس سنوات سنّة ، لحديث في هذا المعنى

(١٣/٤)

أخرجه ابن حبّان في صحيحة والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « يقول اللّه عزّ وجلّ : إن عبدا صححت له جسمه ، ووسّعت عليه في المعيشة ، تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إليّ المحروم »

أي من الأجر ومطرود من رضوان اللّه.

ودلّ الكتاب والسّنة على أنّ الحجّ على التّراخي ، لا على الفور ، وهو مذهب الشافعية ومحمد بن الحسن ، قال القرطبي : وهو الصحيح لأن اللّه تعالى قال :

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا [الحج ٢٢/ ٢٧] وسورة الحج مكيّة ، وقال تعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ [آل عمران ٣/ ٩٧] ، وهذه السورة نزلت عام أحد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ، ولم يحجّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى سنة عشر. و

ورد في السّنة ما يدل على فرضية الحج مثل حديث ضمام بن ثعلبة السعدي قدم على النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فسأله عن الإسلام ، فذكر الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج.

واختلف في وقت قدومه ، فقيل : سنة خمس ، وقيل : سنة سبع ، وقيل : سنة تسع.

قال ابن عبد البرّ : ومن الدّليل على أن الحج على التراخي : إجماع العلماء

ج ٤ ، ص : ١٧

على ترك تفسيق القادر على الحج إذا أخّره العام والعامين ونحوهما ، وأنه إذا حجّ من بعد أعوام من حين استطاعته ، فقد أدّى الحجّ الواجب عليه في وقته ، وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاة حتى خرج وقتها ، فقضاها بعد خروج وقتها ، ولا كمن فاته صيام رمضان لمرض أو سفر فقضاه ، ولا كمن أفسد حجّه فقضاه ، فلما أجمعوا على أنه لا يقال لمن حجّ بعد أعوام من وقت استطاعته : أنت قاض لما وجب عليك ، علمنا أن وقت الحج موسّع فيه ، وأنه على التّراخي ، لا على الفور.

(١٤/٤)

و قال أبو حنيفة وأبو يوسف ، والمالكية في أرجح القولين ، والحنابلة : يجب الحجّ بعد توافر الاستطاعة وبقية شروط الوجوب على الفور في العام الأول ، أي في أول أوقات الإمكان ، فيفسق وتردّ

شهادته بتأخيره سنينا لأنّ تأخيره معصية صغيرة ، وبارتكابه مرة لا يفسق إلا بالإصرار ، لأنّ الفورية ظنيّة ، بسبب كون دليلها ظنيّا ، كما ذكر الحنفيّة. واستدلّوا بقوله تعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ، وقوله : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ [البقرة ٢/ ١٩٦] ، والأمر على الفور. واستدلّوا أيضا بأحاديث منها :

« حجّوا قبل أن لا تحجّوا » « ١ »

، ومنها :

« تعجّلوا إلى الحجّ- يعني الفريضة- فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له » « ٢ »

، ومنها :

« من لم يحبسه مرض أو حاجة ظاهرة أو مشقة ظاهرة أو سلطان جائر ، فلم يحجّ ، فليمت إن شاء يهوديا ، وإن شاء نصرانيا » « ٣ »

و

رواية الترمذي المتقدمة : « من ملك زادا أو راحلة تبلّغه إلى بيت اللّه ، ولم يحجّ ، فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا ، وذلك لأن اللّه تعالى قال في كتابه : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا [آل عمران ٣/ ٩٧] » « ٤ » .

---

(١) حديث صحيح رواه الحاكم والبيهقي عن علي. [.....]

(٢) رواه أحمد والأصبهاني عن ابن عباس ، وهو ضعيف.

(٣) رواه سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى والبيهقي عن أبي أمامة مرفوعا ، وهو ضعيف.

(٤) قال الترمذي : غريب ، في إسناده مقال ، وفيه ضعف.

ج ٤ ، ص : ١٨

هذه الأخبار مع غيرها تدلّ على وجوب الحجّ على الفور فإنه ألحق الوعيد بمن أخّر الحجّ عن أوّل أوقات الإمكان لأنه قال : « من ملك .. فلم يحجّ » والفاء للتعقيب بلا فصل ، أي لم يحجّ عقب ملك الزاد والراحلة ، بلا فاصل.

و أجمع العلماء على أن الخطاب في قوله تعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ عام في جميع الناس ، ذكرهم وأنثاهم ، ما عدا الصغار فإنهم غير مكلّفين.

وإذا وجدت الاستطاعة فقد يمنع مانع من الحجّ كالغريم يمنعه الدّائن عن الخروج حتى يؤدّي الدّين ، أو يكون له عيال يجب عليه نفقتهم ، فلا يلزمه الحجّ ، حتى يوفّر لهم النّفقة مدّة الغياب ، وتقديم

العيال أولى ،
قال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عمرو : « كفى المرء إثما أن يضيّع من يقوت » .
وكذا الأبوان يخاف الضيعة عليهما ، ولم يكن له من يتلطف بهما ، فلا سبيل له إلى الحجّ ، فإن منعاه لأجل الشوق والوحشة ، فلا يلتفت إليه. وإذا منع الرجل زوجته من الحجّ ، لم تحجّ على الصّحيح.
وإذا لم يتوافر المحرم للمرأة أو الزّوج فلا يجب عليها الحجّ ،
لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم في الصحيحين عن ابن عمر : « لا يحلّ لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن تسافر فوق ثلاث إلا مع ذي رحم محرم أو زوج »
فليس للمرأة أن تحجّ إلا مع زوج أو ذي محرم.
وهل تكون الاستطاعة للبعيد عن البيت بالمشي ؟ قال الشافعية والحنابلة :
لا حجّ على الفقير البعيد عن البيت الذي لا يجد الزّاد والرّاحلة إذا أمكنه المشي ، وإن حجّ أجزأه ذلك عن حجّة الإسلام.
وحكي عن مالك : أن عليه الحجّ إذا أمكنه المشي ، ووجد الزّاد أو القدرة على الكسب ، أو لم يجد الزّاد والرّاحلة أيضا إذا أطاق المشي.
والحجّ لا يجب في العمر إلا مرّة واحدة لأنه ليس في الآية ما يوجب

التّكرار ، وقد روى أحمد والنسائي عن ابن عبّاس أن الأقرع بن حابس سأل النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : يا رسول اللّه ، الحجّ في كلّ سنة ، أو مرّة واحدة ؟ فقال : « بل مرّة ، فمن زاد فتطوع » .

و لم يجز الإمام مالك خلافا للجمهور النّيابة في الحجّ ، فلا يجزئ أن يحجّ عن الشّخص غيره لأن حجّ الغير لو أسقط عنه الفرض ، لسقط عنه الوعيد المذكور في الآية : وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ. أما المريض والمغضوب الذي لا يستطيع الثبات على الراحلة ، فيسقط عنه فرض الحج أصلا ، في رأي مالك ، سواء كان قادرا على من يحجّ عنه بالمال أو بغير المال ، واحتجّ بقوله تعالى : وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى [النجم ٥٣/ ٣٩] ، والمغضوب لا يستطيع السّعي ، ولأنه غير مستطيع ، والحجّ فرض على المستطيع.
لكن أجاز المالكية الإجارة على الحجّ عن الميت الذي أوصى به ، ويجوز أن يكون الأجير على الحجّ عندهم لم يحجّ حجّة الفريضة.

ويجوز في رأي الجمهور النّيابة في الحجّ عن الغير لمن مات ولم يحج ، أو كان مريضا عاجزا عن الحجّ لعذر وله مال ، لحديث ابن عبّاس وغيره الذي رواه الجماعة : « أن المرأة من خثعم ، قالت : يا رسول اللّه ، إن أبي أدركته فريضة اللّه في الحجّ شيخا كبيرا ، لا يستطيع أن يستوي على ظهره ؟ قال : فحجّي عنه » وكان ذلك الإذن في حجّة الوداع. وجاء في رواية : « لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره » ، فقال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « فحجّي عنه ، أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته ؟ » قالت : نعم ، قال : « فدين اللّه أحقّ أن يقضى » ، فأوجب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم الحجّ بطاعة ابنتها إياه ، وبذلها من نفسها له بأن تحجّ عنه ، فيجوز له أن يستأجر عنه شخصا يحجّ عنه إذا كان قادرا على المال.

ولا تتحقق الاستطاعة بالهبة بأن يهب له شخص أجنبي عنه مالا يحجّ به ،

ج ٤ ، ص : ٢٠

و لا يلزمه قبوله إجماعا ، لما يلحقه من المنّة في ذلك. وقال الشافعي : لو وهب الابن لأبيه مالا يلزمه قبوله لأن ابن الرّجل من كسبه ، ولا منّة عليه في ذلك. وقال مالك وأبو حنيفة : لا يلزمه قبوله لأن فيه سقوط حرمة الأبوة إذ يقال : قد جزاه ، وقد وفّاه.

هذا ... وقد تقدّمت أحكام أخرى للحجّ والعمرة في تفسير سورة البقرة– الجزء الثاني.

إصرار أهل الكتاب على الكفر وصدهم عن سبيل اللّه [سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٨ الى ٩٩]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

الإعراب :

وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ جملة حالية فيها تهديد ووعيد ، وشَهِيدٌ : صيغة مبالغة ، وما : متعلقة بقوله شَهِيدٌ ، وهي اسم موصول.

المفردات اللغوية :

بِآياتِ اللَّهِ دلائل اللّه الدالة على إثبات نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم. شَهِيدٌ عالم بالشيء مطلع عليه ، فيجازي عليه. تَصُدُّونَ تصرفون. عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ دينه ، والسبيل يذكر ويؤنث ، وهو الطريق.

تَبْغُونَها تطلبون السبيل. عِوَجاً مصدر بمعنى معوجة أي مسائلة عن الحق ، فالعوج : الميل عن الاستواء في الأمور المعنوية كالدين والقول ، والمراد هنا : الزيغ

ج ٤ ، ص : ٢١

و الانحراف. وَأَنْتُمْ شُهَداءُ عالمون بأن الدين المرضي القيم دين الإسلام ، كما في كتابكم. وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ من الكفر والتكذيب ، وإنما يؤخركم إلى وقتكم ، ليجازيكم.

سبب النزول :

أخرج ابن جرير الطبري عن زيد بن أسلم قال : مرّ شاس بن قيس اليهودي- وكان شيخا قد غبر في الجاهلية عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم- على نفر من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام ، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة ، فقال :

قد اجتمع ملأ بني قيلة (الأوس والخزرج) بهذه البلاد ، لا واللّه ، مالنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار.

فأمر شابا من اليهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم ذكّرهم يوم بعاث « ١ » وما كان فيه ، وأنشدهم بعض ما كان تقاولوا فيه من الأشعار. وكان بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج.

ففعل ، فتكم القوم عند ذلك ، فتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين : أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الأوس ، وجابر بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، وقال أحدهما لصاحبه : إن شئت رددتها جذعا « ٢ » وغضب الفريقان جميعا وقالا : ارجعا ، السلاح السلاح ، موعدكم الظاهرة « ٣ » ، وهي حرّة ، فخرجوا إليها ، فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى

---

(١) أحد أيام الجاهلية التي وقع فيها حرب طاحنة بين الأوس والخزرج.

(٢) أي شابة فتية ، يعنون الحرب.

(٣) وهي الحرة : وهي أرض مستوية بظاهر المدينة. والحرة : ذات حجارة سود.

بعض ، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم ، فقال :

يا معشر المسلمين ، أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن أكرمكم اللّه بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألّف بينكم ، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ، اللّه اللّه ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوّهم ، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم سامعين مطيعين.

فأنزل اللّه عز وجل : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا- يعني الأوس والخزرج- إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ- يعني شاسا وأصحابه- يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ.

قال جابر بن عبد اللّه : ما كان طالع أكره إلينا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فأومأ إلينا بيده ، فكففنا وأصلح اللّه تعالى ما بيننا ، فما كان شخص أحبّ إلينا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فما رأيت يوما أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم « ١ » .

المناسبة :

بعد أن أورد اللّه تعالى أدلة نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم واعتراضهم على ذلك ، وإبطال شبهاتهم ومزاعمهم ، وبخهم على إصرارهم على الكفر ، وصدهم عن دين اللّه ، مستعملا الخطاب بأهل الكتاب ، ليدعوهم باللين إلى تغيير موقفهم من دعوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وإيمانهم برسالته ، مع علمهم بصدقه وصحة ما جاء به.

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٦٦ وما بعدها ، البحر المحيط : ٣/ ١٣

ج ٤ ، ص : ٢٣

التفسير والبيان :

قل لهم يا محمد : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات اللّه ، وما سبب ذلك ، وما دليلكم على موقفكم الرافض دعوة الإسلام ، ولأي سبب تصرفون المؤمنين عن جادة الإيمان الذي يرقى بالعقل عن طريق إعمال النظر في الكون ، ويزكي الروح بالأخلاق ، ويرفع مستوى الإنسان بالأعمال الطيبة الصالحة ؟

إنكم بهذا الموقف المعاند القائم على الحسد والاستعلاء والكبر وإلقاء الشبهات الباطلة ، تريدون الانحراف عن منهج الحق ، والزيغ عن سبيل الاستقامة على الهدى ، وأنتم عارفون معرفة تامة بصدق محمد في نبوته ، وتقدم البشارة به ، وقد غيّرتم وبدّلتم صفاته ، وكذبتم على اللّه ، وما اللّه بغافل عن أعمالكم ومكائدكم ، فمجازيكم عليها.

والسبب في ختم الآية الأولى بقوله : وَاللَّهُ شَهِيدٌ ... : هو أن العمل الذي فيها وهو الكفر ظاهر

مشهود ، وأما سبب ختم الآية الثانية بقوله : وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ ... فهو أن الصد عن الإسلام كان عن طريق المكر والاحتيال.

وتكرر الخطاب بقوله : يا أَهْلَ الْكِتابِ للتوبيخ بلطف ولين ، ولحملهم على الانضمام لدعوة الإسلام المتفقة مع أصول كتبهم الصحيحة.

والآية الأولى لكفهم عن الضلال ، والثانية لكفهم عن الإضلال « ١ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن أصول الأديان واحدة ، وغاياتها واحدة ، وطريقها بالدعوة إلى التوحيد الإلهي ، وسمو الأخلاق والفضائل ، وعبادة اللّه واحدة أيضا ، فما على أتباع الأديان إلا أن ينضم بعضهم إلى بعض ، دون تمسك بما لديه ، وبما أن الإسلام خاتم

---

(١) تفسير المراغي : ٤/ ١٤

ج ٤ ، ص : ٢٤

الرسالات السماوية ، فعلى المتقدمين من أتباع الملل الأخرى الانضمام تحت لوائه ، ليكون جند الإيمان في خندق واحد وصف واحد أمام معسكر الشرك والوثنية ، وأما المسلمون فهم مؤمنون بكل الرسل دون تفرقة بين أحد منهم ، وبما أنزل عليهم من كتب وصحف ووصايا.

و هذا ما ركز عليه القرآن بدعوة أهل الكتاب بالكف عن عنادهم وحسدهم ، وقبولهم سراعا دعوة القرآن. وهاتان الآيتان لون من ألوان التعنيف والتوبيخ من اللّه تعالى بلطف ولين لأهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات اللّه (و هي القرآن وما اشتمل عليه من دلائل نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم) وصدّهم عن سبيل اللّه من أراده من أهل الإيمان بجهدهم ، ومكرهم ، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من اللّه ، وبما عندهم من بشائر الأنبياء المتقدمين بالنبي محمد.

واستحقوا في هاتين الآيتين التهديد والوعيد ، والإعلان الصريح عن إحباط المؤامرات ، وكشف أنواع الخداع ، وإلقاء الشبهات ، وألوان المكر لأن اللّه تعالى شهيد على صنيعهم ذلك ، غير غافل عن مكائدهم ، وسيجازيهم على سوء أعمالهم ومواقفهم المستغربة المتسمة بالتكذيب والجحود والعناد.

أجل! إنه إنذار في الدنيا قبل فوات الأوان ، وإعلام بالحق لئلا يضل الناس ، وتحذير من الميل مع أهواء النفوس التي من أخصها الحسد والعناد والكبر التي حملت أصحابها على الضلال بأنفسهم ومحاولة الإضلال لغيرهم.

توجيه المؤمنين إلى الحفاظ على الشخصية والاعتصام بالقرآن والإسلام [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٣]

(٢٢/٤)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

ج ٤ ، ص : ٢٥

الإعراب :

وَكُنْتُمْ عَلى شَفا الجار والمجرور في موضع نصب لأنه خبر كان. وشَفا : أصله شفو ، فتحركت الواو وانفتح ما قبلها ، فقبلت ألفا.

البلاغة :

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ استفهام تعجب وتوبيخ واستبعاد وقوع الكفر منهم مع تلاوة القرآن ووجود الرسول فيهم

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ استعارة تصريحية ، شبه القرآن بالحبل ، وأستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو القرآن ، بجامع النجاة في كل منهما.

شَفا حُفْرَةٍ استعارة تمثيلية ، شبه حالهم في الجاهلية بحال المشرف على حفرة عميقة.

المفردات اللغوية :

(٢٣/٤)

وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ تجحدون ، وهو استفهام تعجب وتوبيخ يَعْتَصِمْ يتمسك به حَقَّ تُقاتِهِ الحق : الوجوب والثبوت ، والتقاة : التقوى ، والأصل فيه : اتقاء حقا ، أي اتقوه التقوى الواجبة : بأن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى ، فقالوا : يا رسول اللّه ، ومن يقوى على هذا ، فنسخ بقوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ.

وَاعْتَصِمُوا تمسكوا بِحَبْلِ اللَّهِ هو العهد أو الدين أو القرآن أو الإسلام ، وكل ذلك مترادف المعنى شَفا حُفْرَةٍ طرف حفرة ، وأشفى على الشي ء : أشرف عليه. وهو مثل يضرب في القرب من الهلاك. وأريد به

هنا القرب من النار أي ليس بينكم وبين الوقوع في النار إلا أن تموتوا كفارا فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها بالإيمان كَذلِكَ كما بيّن لكم ما ذكر يبين لكم الآيات.

ج ٤ ، ص : ٢٦

سبب النزول :

أخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانت الأوس والخزرج في الجاهلية بينهم شر ، فبينما هم جلوس ، ذكروا ما بينهم حتى غضبوا ، وقام بعضهم إلى بعض بالسلاح ، فنزلت : وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ الآية والآيتان بعدها. وهذا مؤيد لما ذكر في بيان سبب نزول الآيتين المتقدمتين.

التفسير والبيان :

حذر اللّه المؤمنين من إطاعة الكافرين وإغوائهم وإضلالهم ، بعد أن وبخ أهل الكتاب على كفرهم وصدهم عن سبيل اللّه ، وذلك من أجل تماسك الشخصية الإسلامية والحفاظ على تميزها واستقلالها ، بعد أن انحرف أهل الكتاب عن صراط اللّه المستقيم ، وتبيان ذلك فيما يأتي :

أيها المؤمنون إذا أطعتم هؤلاء اليهود فيما يثير الفتنة ويؤجج نار الجاهلية العمياء ، ردّوكم إلى الكفر بعد الإيمان ، وإلى التفرق بعد الوحدة ، وإلى الكراهية والحقد والضغينة بعد المحبة والصفاء والوداد ، كما قال تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً ، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ [البقرة ٢/ ١٠٩] والكفر مهلكة في الدين بخسارة الآخرة وسوء الحال في الدنيا والمعاش ، ومهلكة في الدنيا بإثارة الفتنة والعداوة والبغضاء.

وكيف تكفرون باللّه وحاشاكم منه وكيف تطيعون الكفرة فيما يشيرون به ؟

والحال أن فيكم أمرين : الأول- تلاوة آيات اللّه التي تنزل على رسوله ليلا ونهارا ، وهو يتلوها عليكم ، ويبلّغها إليكم ، وهو القرآن الظاهر الإعجاز ، كقوله تعالى : وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [الحديد ٥٧/ ٨].

والثاني- وجود الرسول فيكم الذي ظهرت على يديه الخوارق المؤيدة

ج ٤ ، ص : ٢٧

لدعوته. ووجود هاتين الحالتين ينافي الكفر ، وليس المعنى أنه وقع منهم الكفر ، فوبخوا على وقوعه لأنهم مؤمنون ، ولذلك نودوا بوصف الإيمان : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا « ١ » .

ومن يعتصم باللّه وكتابه ويتمسك بدينه ويتوكل عليه ، فقد أحرز الهداية ، وابتعد عن الغواية ، وسار في طريق الرشاد والسداد وتحقيق المراد.

ثم أمر اللّه تعالى المؤمنين بالتزام التقوى حقا ، بأن يؤدوا الواجبات ويجتنبوا المنهيات ، وذلك باجتناب المعاصي كلها ، واتباع الأوامر قدر المستطاع ، كما قال تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن ٦٤/ ١٦] و

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » « ٢ »

وقال ابن مسعود : « حق تقاته : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر » « ٣ » وقال ابن عباس : هو ألّا يعصى طرفة عين.

وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول اللّه ، من يقوى على هذا ؟ وشقّ عليهم ، فأنزل اللّه عز وجل : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فنسخت هذه الآية. قال مقاتل : وليس في آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذه الآية.

والأصوب أن قوله فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ بيان لهذه الآية. والمعنى : فاتقوا اللّه حق تقاته ما استطعتم لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع ، والجمع ممكن فهو أولى.

ثم نهاهم بقوله : ولا تموتن إلا ونفوسكم مخلصة للّه ، أي : ولا تكوننّ على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت. وهذا حث على المبادرة إلى الإسلام ابتداء

---

(١) البحر المحيط : ٣/ ١٤

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة.

(٣) إسناده صحيح موقوف رواه البخاري.

و استمرارا ، والمحافظة عليه في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، وليس معناه النهي عن الموت حتى يسلموا ، وإنما المطلوب هو التدين بالإسلام قبل مفاجأة الموت.

ثم أمر بالاعتصام بكتاب اللّه وعهده الذي عهد به إلى الناس ، ونهى عن التفرق عنه أبدا ، والتزام الألفة والاجتماع على طاعة اللّه والرسول. وحبل اللّه :

هو الإيمان والطاعة والعمل بالقرآن ،

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : فيما أخرجه الترمذي : « القرآن : حبل اللّه المتين ، ونوره المبين ، لا

تنقضي عجائبه ، ولا تفنى غرائبه ، ولا يخلق على كثرة الردّ ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به ، هدي إلى صراط مستقيم » .

(٤/٢٦)

ثم ذكّرهم بالنعمة العظمى التي أنعم بها على العرب وهي نعمة الوحدة والتجمع بعد التفرق ، والألفة بعد العداوة والخصام ، وقتل بعضهم بعضا ، وتسلط القوي على الضعيف ، والأخوة الإيمانية : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات ٤٩/ ١٠] بعد الكفر والشرك ، والإشراف على حافة النار والهلاك بسبب الشرك والوثنية ، فصاروا سادة البشر وأساتذة العالم ، وأنقذهم اللّه بالإسلام من الدمار والهلاك : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها [إبراهيم ١٤/ ٣٤].

وقد كان بين العرب ومنهم الأوس والخزرج حروب كثيرة في الجاهلية ، وعداوة شديدة ، وضغائن وإحن ، طال بسببها قتالهم واقتتالهم ، فلما جاء اللّه بالإسلام ، فدخل فيه من دخل ، صاروا إخوانا متحابين بجلال اللّه متواصلين في ذات اللّه ، متعاونين على البر والتقوى ، كما قال تعالى : هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ [الأنفال ٨/ ٦٣].

مثل هذا البيان الناصع الذي بيّنه لكم ربكم في هذه الآيات لما يضمره اليهود

ج ٤ ، ص : ٢٩

نحوكم ، ولما أمركم به ونهاكم عنه ، ولما كنتم عليه في الجاهلية ، وما صرتم إليه في الإسلام ، يبين سائر آياته وحججه في تنزيله على رسوله ، لتهتدوا هداية دائمة ، وتزدادوا هداية ، حتى لا تعودوا إلى أوضاع الجاهلية من التفرق والعدوان ، والوثنية والشرك ، والضلال في العقيدة والأخلاق والتعامل.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١- الحفاظ على الشخصية الإسلامية وتميزها ، ورفض تبعتها لغير المسلمين ، والتحذير من الإصغاء لمشورتهم ، والتفكير العميق في آرائهم ، كيلا تؤدي إلى الضرر والشر والفساد ، أو الفرقة والخلاف والانقسام.

(٤/٢٧)

٢- تحكيم القرآن والسنة فيما قد يقع فيه المسلمون من نزاع أو اختلاف في الرأي ، كما قال تعالى : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ [الشورى ٤٢/ ١٠] فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء ٤/ ٥٩].

٣- الاعتصام والتمسك بالقرآن وبدين اللّه تعالى وطاعته ، والالتفاف الموحد حول أحكام اللّه حلالها وحرامها ، واجتماع المسلمين على وحدة الهدف والغاية من أجل صون الحرمات والبلاد من عدوان المعتدين فإنه لم يتوافر لأمة مقومات تجمع بين شعوبها وأفرادها مثل ما توافر لأمة الإسلام ، وهي الآن مع الأسف أبعد الناس عن اجتماع الكلمة ووحدة الصف والغاية والمنهج ، وتلك المقومات واضحة في تلاوة آي القرآن وآثار رسول اللّه. قال قتادة : في هذه الآية علمان بيّنان :

كتاب اللّه ونبيّ اللّه فأما نبي اللّه فقد مضى ، وأما كتاب اللّه فقد أبقاه اللّه بين أظهرهم رحمة منه ونعمة ، فيه حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته.

٤- ليس الاختلاف مذموما إذا كان في مجال مسائل الاجتهاد واستخراج

ج ٤ ، ص : ٣٠

الفرائض ودقائق معاني الشرع ، وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث ، وهم مع ذلك متآلفون ، ولا فيما كان أثناء تبادل الآراء فيما يحقق مصلحة الأمة بإخلاص ، فليس في الآية دليل على تحريم الاختلاف في الجزئيات والفروع ، وتقدير المصالح العامة ، وإنما الخلاف المذموم هو في اتباع الأهواء والأغراض المختلفة ، وما يؤدي إليه من تقاطع وتدابر وتقاتل.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » « ١ » وأخرجه أيضا عن ابن عمر بزيادة : « كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : من هي يا رسول اللّه ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي » .

٥- أوجب اللّه تعالى علينا التّمسك بكتابه وسنّة نبيّه صلّى اللّه عليه وسلّم والرّجوع إليهما عند الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسّنة اعتقادا وعملا ، وذلك سبب اتّفاق الكلمة ، وانتظام الشّتات الذي يتمّ به مصالح الدّنيا والدّين ، والسّلامة من الاختلاف ، كما بيّنا. وقرن ذلك بأمره تعالى بتذكّر نعمه وأعظمها الإسلام واتّباع نبيّه محمد عليه الصّلاة والسّلام ، فإن به زالت العداوة والفرقة ، وكانت المحبّة والألفة.

الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وتأكيد النّهي عن التّفرّق [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠٤ الى

[١٠٩
وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (١٠٨)

(٢٩/٤)

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث صحيح.

ج ٤ ، ص : ٣١

الإعراب :

يَوْمَ تَبْيَضُّ يوم : منصوب إما بمحذوف مقدر بفعل ، تقديره : اذكر يا محمد يوم تبيض وجوه ، وإما بقوله : لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ أي استقر لهم هذا العذاب في يوم تبيض وجوه.

أَكَفَرْتُمْ فيه محذوف مقدر تقديره : فيقال لهم : أكفرتم ، وحذف لدلالة الكلام عليه ، وحذفت الفاء تبعا للقول ، وحذف القول كثير في كلامهم. والهمزة : همزة استفهام ومعناها التّوبيخ والإنكار.

البلاغة :

يوجد طباق مقابلة في قوله : يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فيه قصر صفة على موصوف ، حيث قصر الفلاح عليهم.

ويوجد طباق أيضا بين كلمتي تَبْيَضُّ وتَسْوَدُّ.

فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ مجاز مرسل ، من باب إطلاق الحال وإرادة المحل ، أي في الجنة لأنها مكان تنزل الرّحمات.

أما معنى المقابلة الذي جعله بعض البلغاء من أنواع الطباق : فهو أن يؤتي بمعنيين متوافقين أو أكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

ج ٤ ، ص : ٣٢

المفردات اللغوية :

مِنْكُمْ من للتبعيض لأن ما ذكر فرض كفاية ، لا يلزم كلّ الأمّة ، ولا يليق بكلّ أحد كالجاهل. أُمَّةٌ جماعة

تربطهم رابطة معينة تجمعهم. إِلَى الْخَيْرِ ما فيه المنفعة وصلاح الناس في الدين والدنيا. بِالْمَعْرُوفِ ما استحسنه الشرع والعقل. الْمُنْكَرِ ما استقبحه الشرع والعقل. الْمُفْلِحُونَ الفائزون. تَبْيَضُّ تشرق وتسرّ. وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ تكتئب وتحزن ، وذلك يوم القيامة. بِالْحَقِّ أي بالأمر الذي له ثبوت وتحقق ولا شبهة فيه. ظُلْماً الظّلم :

(٣٠/٤)

وضع الشيء في غير موضعه ، إما بالنّقص أو الزّيادة أو بالتعديل في وقته أو مكانه.

المناسبة :

هذه الآيات كالشّرح لقوله تعالى : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا فشرح الاعتصام بحبل اللّه بقوله : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ وشرح وَلا تَفَرَّقُوا بقوله : وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا « ١ » . أمرنا تعالى بالاعتصام بالقرآن والتّمسك بالدّين ، ونهانا عن التّفرّق والاختلاف ، ثمّ بيّن لنا سبيل الاعتصام بالدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، فهذه تذكّر باللّه وباليوم الآخر ، وترشد إلى الإسلام ، وتعصم من الزّيغ والانحراف ، بقصد الحفاظ على وحدة الأمة ، وترشد أبنائها ، وتكثير سوادها بالأتباع الذين يؤمنون بدعوة الإسلام ، وتضامن الأفراد في كلّ ما هو حضاري يؤدّي إلى القوة والتقدّم والسّمو ، روى مسلم وأحمد حديثا معروفا عن النّعمان بن بشير هو :

« مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر السجد بالحمّى والسّهر » .

وروى البخاري ومسلم والتّرمذي والنّسائي عن أبي موسى الأشعري : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا » .

---

(١) البحر المحيط : ٣/ ٢١

ج ٤ ، ص : ٣٣

التفسير والبيان :

يأمر اللّه تعالى الأمة الإسلامية بأن يكون منها جماعة متخصصة بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وأولئك الكمّل هم المفلحون في الدّنيا والآخرة.

وتخصص هذه الفئة بما ذكر لا يمنع كون الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر واجبا على كلّ فرد من أفراد الأمّة بحسبه ، كما ثبت

(٣١/٤)

في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »

، و

في رواية : « و ليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل » .

و

روى أحمد والترمذي وابن ماجه عن حذيفة بن اليمان رضي اللّه عنه أنّ النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « و الذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكنّ اللّه أن يبعث عليكم ، عقابا من عنده ، ثّم لتدعنّه فلا يستجيب لكم » .

وكان الواحد من السّلف الصالح لا يتوانى في هذا الواجب ، ولا يخشى في اللّه لومة لائم ، فقد خطب عمر على المنبر قائلا : « إذا رأيتم فيّ اعوجاجا فقوّموه » فقام أحد رعاة الإبل ، وقال : لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا.

ولا تكونوا أيّها المؤمنون كأهل الكتاب الذين تفرّقوا ، في الدّين ، وكانوا شيعا ، واختلفوا اختلافا كثيرا ، من بعد ما جاءتهم الأدلّة الواضحات التي تهديهم إلى السبيل لو اتّبعوها ، لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، فاستحقّوا العذاب العظيم في الدّينا والآخرة ، أما في الدّنيا فيجعل بأسهم بينهم شديدا ، ويذيقهم الخزي والنّكال ، وأما في الآخرة ففي جهنم هم فيها خالدون ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ ، كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ [المائدة ٥/ ٧٨- ٧٩].

ج ٤ ، ص : ٣٤

و هذا الوعيد لأهل الكتاب يقابل الوعد بالفلاح والنّجاة والفوز لأهل الإيمان ، والاختلاف المنهي إنما هو الاختلاف في أصول الدّين وتحكيم الهوى والمصلحة الشخصية في القضايا العامة. أما الاختلاف في الفروع المذهبية والاجتهادات الجزئية ، كاختلاف المذاهب في كثير من تفاصيل العبادات والمعاملات ، فليس مذموما لتعدد المفاهيم المستوحاة من النّصّ القرآني ، وتعدّد أفعال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكيفيّة ثبوت الأخبار والرّوايات.

وزمان العذاب للكفار هو يوم القيامة ، يوم تبيضّ وتشرق وتسرّ وجوه المؤمنين كما في آية أخرى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ [القيامة ٧٥/ ٢٢- ٢٣] وتسودّ وجوه المختلفين الذين لم يتواصوا

بالحقّ والصّبر من أهل الكتاب والمنافقين حينما يرون ما أعدّ لهم من العذاب الدّائم ، وذلك مثل قوله تعالى : وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ [القيامة ٧٥/ ٢٤- ٢٥] ، وقوله : وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ [عبس ٨٠/ ٤٠- ٤١] ، وقوله : وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ ، كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً [يونس ١٠/ ٢٧].

ثمّ أوضح اللّه تعالى مصير الفريقين ، فبيّن سوء حال الفريق الثاني ثمّ حال الفريق الأوّل على طريقة اللّف والنّشر المشوش ، أمّا الذين اسودّت وجوههم بسبب تفرّقهم واختلافهم ، فيوبخهم تعالى ويؤنّبهم بقوله : أكفرتم بالرّسول محمد بعد إيمانكم به ، فقد كنتم على علم ببعثته ، ولديكم أوصافه والبشارة به ؟ ولكن كفرتم به حسدا وحقدا ، فكان جزاؤكم أن تذوقوا العذاب بكفركم.

وأمّا الذين ابيضّت وجوههم باتّحاد الكلمة وعدم التّفرق في الدّين ، فهم خالدون في رحمة اللّه ، أي ماكثون في الجنّة أبدا ، لا يبغون عنها حولا.

هذه الآيات : آيات اللّه وحججه وبيّناته نتلوها عليك يا محمد مقررة ما هو

الحقّ الثابت الذي لا شبهة فيه ، كاشفة حقيقة الأمر في الدّنيا والآخرة.

واللّه لا يريد ظلما للعباد ، أي ليس بظالم ، بل هو الحاكم العدل الذي لا يجوز لأنه القادر على كلّ شيء ، العالم بكلّ شيء ، ولأن الظلم يصادم الحكمة والكمال في النّظام وفي التّشريع ، فلا يحتاج إلى ظلم أحد من خلقه ، وأما ما يأمر به وينهى عنه ، فإنما يريد هدايتهم إلى أقوم الطّرق ، فإذا خرجوا عن حدود الطّاعة وفسقوا كانوا هم الظالمين لأنفسهم ، والظالم هو الذي سبب لنفسه العقاب ، كما قال تعالى : وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود ١١/ ١٠٢] ، وقال : وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ ، وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ [هود ١١/ ١١٧].

ومما يدلّ على عدم احتياج اللّه لظلم أحد من خلقه : أن جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات وكائنات ملك له وعبيد له ، وأنهم إليه راجعون ، فهو الحاكم المتصرّف في الدّنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أوّلا- إنّ الدعوة إلى الإسلام ونشرها في آفاق العالم والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من فروض الإسلام الكفائية ، لقوله تعالى : وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ، فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ ، لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ [التوبة ٩/ ١٢٢].

و يجب أن يكون الدّعاة علماء بما يدعون الناس إليه ، وقائمين بفرائض الدّين ، وهم الذين وصفهم اللّه تعالى بقوله : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ ، وَآتَوُا الزَّكاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج ٢٢/ ٤١] ، والسبب أن الدّاعية هو القدوة الحسنة والمثل الصالح

ج ٤ ، ص : ٣٦

الذي يحتذي به ، ويقلّده الآخرون ويتأثّرون به ، وتحليل تلك الضوابط يتجلّى في الشروط الآتية المطلوبة في الدّعاة :

١- العلم بالقرآن والسّنّة والسّيرة النّبويّة وسيرة الرّاشدين.

٢- تعلّم لغة القوم الذين يراد دعوتهم إلى الدّين ، إذ يتعذّر تحقيق الغاية بدون ذلك ، وقد أمر النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعض الصحابة بتعلّم العبريّة لمحاورة اليهود.

٣- معرفة الثقافة الحديثة والعلوم العامة وأحوال الأقوام وأخلاقهم وطبائعهم ، والملل والنحل ، وشبهات التّيارات والمبادئ الاقتصادية والاجتماعية السائدة في العالم المعاصر ، وموقف الإسلام منها.

ثانيا- إن التّفرق في الدّين وسياسة الأمة العامة أمر حرام ومنكر عظيم مؤذن بتدمير المصلحة العامة والقضاء على وجود الدولة المسلمة والأمة المؤمنة ، وقد عدّ القرآن المتفرقين في الدين من الكفار والمشركين ، كما في قوله تعالى :

وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ، وَكانُوا شِيَعاً ، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم ٣٠/ ٣٢] وقوله : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ [الأنعام ٦/ ١٥٩].

و من خرج عن حدود الدين ومقاصده كان ظالما ، ومن لازم الظلم كان كافرا ، كما قال تعالى : وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة ٢/ ٢٥٤].

ومن ترك الاعتصام بالقرآن والإسلام ورد الأمر المتنازع فيه إلى غير الكتاب والسنة كان أيضا من الكافرين.

هذا .. والاختلاف المحظور إنما هو الاختلاف في العقيدة وأصول الدين ، وأما اختلاف الفقهاء في الفروع الاجتهادية فهو محمود غير مذموم ومن يسر الشريعة.

ج ٤ ، ص : ٣٧

ثالثا- إن أهل الطاعة للّه عز وجل والوفاء بعهده هم الذين تبيض وجوههم وتسر يوم القيامة ، ولهم الخلود في الجنة ودار الكرامة ، جعلنا اللّه منهم ، وجنبنا الضلالة بعد الهدى.

وأما أهل المعصية الذين كفروا بعد الإيمان فلهم سوء العذاب بسبب كفرهم.

وكل من بدل أو غيّر أو ابتدع في دين اللّه ما لا يرضاه ، ولم يأذن به اللّه فهو من المسوّدي الوجوه ، وأشدهم طردا وإبعادا من رحمة اللّه من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم ، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع. ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد ليس في قلبه مثقال ذرة من خير أو حبة من إيمان.

رابعا- كل ما في الكون وكل ما في السموات والأرض ملك للّه تعالى وعبيد له ، يتصرف بهم كيفما شاء ، ولا يشاء إلا ما فيه الحكمة والخير ومصلحة العباد ، فهو قادر على كل شيء ، وغني عن الظلم ، لكون كل شيء في قبضته وتصرفه ، فلا يصح لأحد من الخلق أن يسأل غير اللّه أو يعبد غير اللّه ، وعليهم أن يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره.

سبب خيرية الأمة الإسلامية وضرب الذلة والمسكنة على اليهود [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٠ الى ١١٢]

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (١١(١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

ج ٤ ، ص : ٣٨

الإعراب :

أُخْرِجَتْ جملة فعلية في موضع جر لأنها صفة لأمة. لِلنَّاسِ جار ومجرور في موضع نصب ، ويتعلق إما ب أُخْرِجَتْ أو ب خَيْرَ وقوله : تَأْمُرُونَ .. كلام مستأنف أبان به كونهم خير أمة.

إِلَّا أَذىً منصوب لأنه استثناء منقطع ، وكذلك قوله إِلَّا بِحَبْلٍ أي ولكن قد يثقفون بحبل من اللّه وحبل من الناس ، فيأمنون على أنفسهم وأموالهم.

والجملتان وهما مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ولَنْ يَضُرُّوكُمْ واردتان على طريق الاستطراد ، بمناسبة الكلام عن أهل

الكتاب.

البلاغة :

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ استعارة تبعية حيث شبه الذل بالخباء المضروب على أصحابه ، ثم حذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهو الضرب.

وَباؤُ بِغَضَبٍ نكّر كلمة الغضب للتفخيم والتهويل.

ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ تساءل الزمخشري قائلا : هلا جزم المعطوف في قوله : ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ ؟ ثم أجاب بقوله : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون ، أي لا يكون لهم نصر من أحد ، ولا يمنعون منكم. والفرق بين الجزم والرفع :

أنه لو جزم لكان نفي النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقا (الكشاف : ١/ ٣٤٢).

المفردات اللغوية :

كُنْتُمْ أي وجدتم وخلقتم خير أمة ، أي في الماضي ، وقد تستعمل للأزلية والدوام كما في ج ٤ ، ص : ٣٩

صفاته تعالى مثل : وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً. أُخْرِجَتْ أي أظهرت. أَذىً أي ضررا يسيرا كالسب باللسان والوعيد. يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ كناية عن الانهزام أي يكونوا منهزمين ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ وعد مطلق من اللّه للمسلمين في الماضي ، كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم أنهم بعد التولي مخذولون غير منصورين ، لا تنهض لهم قوة بعدها ، ولا يستقيم لهم أمر ، وكان ذلك كما أخبر في هزيمة طوائف اليهود في المدينة وهم « بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع » ويهود خيبر. والتراخي في ثُمَّ هو في المرتبة.

الذِّلَّةُ الذل الذي يحدث في النفوس من فقد السلطة ، وضربها عليهم : إلصاقها بهم وظهور أثرها فيهم ، كضرب السكة بما ينقض فيها. ثُقِفُوا حيثما وجدوا. بِحَبْلٍ أي عهد ، وهو تأمينهم وعهد المؤمنين إليهم بالأمان على أداء الجزية ، أي لا عصمة لهم غير ذلك ، وتظل صفة الذل بهم ، سواء كانوا حربا أو أهل ذمة.

وَباؤُ رجعوا ، من البوء وهو المكان أي حلوا فيه يَعْتَدُونَ يتجاوزون الحد.

سبب النزول :

نزول الآية (١١٠) :

قال عكرمة ومقاتل : نزلت في ابن مسعود وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة ، وذلك أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين قالا لهم : إن ديننا خير مما تدعونا إليه ، ونحن خير وأفضل منكم ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

نزول الآية (١١)(١) :

قال مقاتل : إن رؤوس اليهود : وهم كعب ويحرى والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وابن صوريا عمدوا إلى مؤمنهم : عبد اللّه بن سلام وأصحابه ، فآذوهم لإسلامهم ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

المناسبة :

هذه الآيات تثبيت للمؤمنين على ما هم عليه من الاعتصام باللّه والاتفاق على

ج ٤ ، ص : ٤٠

الحق والدعوة إلى الخير ، وهي أيضا ترغيب لهم في المحافظة على مزيتهم باتباع الأوامر وترك النواهي ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان باللّه ، وأعقب ذلك بمقارنتهم بحال أهل الكتاب وبيان سبب إلحاق صفة الذل بهم والغضب عليهم.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن الأمة الإسلامية بأنها خير الأمم في الوجود الآن ، ما دامت تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن باللّه إيمانا صحيحا صادقا كاملا. وإنما قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان لأنهما أدل على بيان فضل المسلمين على غيرهم ، ولأن الإيمان يدعيه غيرهم ، وتظل الخيرية والفضيلة لهذه الأمة ما دامت تؤمن باللّه حق الإيمان وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وأما الأمم الأخرى فقد غلب عليهم تشوية حقيقة الإيمان ، وشاع فيهم الشر والفساد ، فلا يؤمنون إيمانا صحيحا ، ولا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر.

و الإيمان المطلوب : هو الموصوف بقوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا ، وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [الحجرات ٤٩/ ١٥] وقوله أيضا : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ ، زادَتْهُمْ إِيماناً ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [الأنفال ٨/ ٢].

وفي قوله : تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيمانا باللّه لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك ، لم يعتد بإيمانه ،

فكأنه غير مؤمن باللّه ، كما قال تعالى :

وَيَقُولُونَ : نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ، وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ

ج ٤ ، ص : ٤١

سَبِيلًا ، أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا

[النساء ٤/ ١٥٠- ١٥١]. والدليل عليه قوله تعالى :

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ مع إيمانهم باللّه ، لكان الإيمان خيرا لهم مما هم عليه لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام ، حبا للرياسة ، واستتباع العوام ، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع ، وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله ، مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين.

هذه المقومات والأوصاف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان الحق باللّه وبعناصر الإيمان الأخرى هي سبب الفضيلة والخيرية ، ولا تثبت للأمة إلا بمحافظتها على هذه الأصول الثلاثة ، روى ابن جرير عن قتادة قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه في حجة حجها ، رأى من الناس دعة ، فقرأ هذه الآية : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ثم قال : « من سرّه أن يكون من هذه الأمة ، فليؤد شرط اللّه فيها » .

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم اللّه بقوله تعالى :

كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ [المائدة ٥/ ٧٩].

ولهذا لما مدح اللّه تعالى هذه الأمة على هذه الصفات ، شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم ، فقال : ولو آمنوا بما أنزل على محمد ، لكان خيرا لهم إذ هم يؤمنون ببعض الكتاب ، ويكفرون ببعض ، ويؤمنون ببعض الرسل كموسى وعيسى ، ويكفرون بمحمد ، مع أن كتبهم تتضمن البشارة بمحمد وصفته! إلا أن هذا الذم ليس كليا ولا جماعيا شاملا ، لذا استطرد اللّه تعالى فذكر أن بعض أهل الكتاب ، كعبد اللّه بن سلام وأصحابه والنجاشي ورهطه مؤمنون إيمانا حقا ، لكن أكثرهم فاسقون خارجون عن حدود دينهم وكتبهم ، متمردون في الكفر ، فقليل منهم من يؤمن باللّه وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان. ومرة يعبر تعالى بالأكثر كما هنا ، وكما في قوله

ج ٤ ، ص : ٤٢

عن بني إسرائيل : فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا [النساء ٤/ ٤٦] ، وتارة يعبر بالكثير ، كما في قوله عن النصارى واليهود : مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ [المائدة ٥/ ٦٦].

و يكثر الفسق عادة بعد طول الأمد على ظهور الدين ، كما قال تعالى : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ، وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ ، فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ [الحديد ٥٧/ ١٦].

ثم أخبر اللّه تعالى عباده المؤمنين وبشرهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب ، فذكر أن هؤلاء الكافرين الفاسقين لن يلحقوا بكم إلا ضررا بسيطا كالسب والهجاء والتوعد باللسان ومحاولة الصد عن دين اللّه ، والطعن في الدين ، وإلقاء الشبهات ، وتحريف النصوص ، والطعن بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، كما يفعل المبشرون اليوم.

وإن يقاتلوكم ينهزموا أمامكم ، ولا ينصرون عليكم أبدا ما داموا على فسقهم ، ودمتم على خيريتكم بالحفاظ على الأصول الثلاثة ، وقد تحققت لسلف أمتنا هذه البشارات الثلاث من أخبار الغيب ، فانهزم يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، ويهود خيبر.

وتحقق مثل هذه الانتصارات مرهون بنصر دين اللّه ، كما قال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ [محمد ٤٧/ ٧] وبالحفاظ أيضا على الأصول الثلاثة المذكورة هنا وفي آيات أخرى مثل قوله تعالى في وصف المؤمنين المجاهدين : الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ [التوبة ٩/ ١١٢].

والخلاصة : إن النصر ليس هبة تمنح كما يتوقع بعض المخدوعين ، وإنما هو

مشروط بالإتيان بمقومات دينية أساسية ، فما دمنا نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، ونؤمن باللّه إيمانا صحيحا ، تحقق لنا النصر والسيادة والعزة ، وما داموا هم فاسقين خارجين عن حدود اللّه والطاعة والإيمان ، ظلوا أذلة مقهورين.

واللّه تعالى ألصق بهم الذل والهوان أبدا أينما كانوا ، لا ينعمون بأمن ولا استقرار ، إلا بعهدين : عهد اللّه وعهد الناس. أما عهد اللّه فهو ما قررته الشريعة لهم من الأمان وتحريم الإيذاء والمساواة في الحقوق والقضاء إذا تم لهم عقد الذمة وفرض الجزية وإلزامهم أحكام الملة.

وأما عهد الناس : فهو ما يصدر لهم من الأمان كالمهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه أحد المسلمين ولو امرأة ، وكذا التاجر الذي يتعامل معه في داخل البلاد أو على الحدود الخارجية ، لتبادل المنافع

والصنائع والتجارات. ومثل ذلك ما نجده من الحماية الثابتة لليهود في فلسطين ، سواء من أمريكا وأوربا وروسيا وغيرها من الدول الكبرى.

واللّه تعالى أيضا ألزمهم غضبا منه فالتزموه ، واستوجبوه واستحقوه ، وأحاط بهم المسكنة والصغار إحاطة المكان بما فيه ، فهم تابعون أذلاء لغيرهم ، دائمون في الذل والحاجة والتبعة لغيرهم ، متفرقون في أقطار الأرض على قلتهم ، وسيظلون كذلك بالرغم من محاولاتهم المستميتة في التجمع والاستيطان والاستقرار في الأراضي المحتلة بفلسطين ، وبالرغم من غناهم واعتمادهم على جمع المال والسيطرة على اقتصاديات العالم.

ثم بيّن تعالى سبب كل ذلك وعلته من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بسخط اللّه عليهم : وهو كفرهم بآيات اللّه ، وقتلهم الأنبياء بغير حق تعطيهم إياه شريعتهم ، وبدافع من الكبر والبغي والحسد ، مع اعتقادهم أنهم على غير حق فيما

ج ٤ ، ص : ٤٤

يرتكبونه من جريمة قتل أناس يقولون : ربنا اللّه. وفي هذا غاية التشنيع عليهم ، والتوبيخ لهم.

(٤٣/٤)

و ما جرأهم على ذلك ، وما حملهم على الكفر بآيات اللّه وقتل رسل اللّه ، إلا كثرة المعاصي لأوامر اللّه ، والانغماس الدائم في المعصية ، والاعتداء على شرع اللّه وحدوده ، فمن اعتاد العصيان ، وانتهك حرمات اللّه ، هان عليه كل شيء حرام ومنكر في الحياة.

والتشنيع على اليهود المعاصرين للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتوجيه اللوم لهم على الكفر وقتل الأنبياء ، مع أنه صدر من أسلافهم ، إنما كان لأنهم منتسبون إليهم ، متكافلون متعاطفون معهم ، راضون بأفعالهم ، سائرون على منهجهم ، فإنهم حاولوا أيضا قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مرارا.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات وصف فريقين أو أمتين من الناس ، وأبانت سبب الاتصاف ، وقارنت بينهما ، على أساس دقيق من التعادل والحق.

فالأمة الإسلامية خير الأمم بسبب إيمانها الصحيح التام بكل ما أمر به اللّه ، وبقيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتظل الخيرية والفضيلة لها على الشرائط المذكورة ، والتزامها الأصول الثلاثة.

وإذا ثبت بنص التنزيل أن هذه الأمة خير الأمم ، فإن السنة النبوية أوضحت أن أول هذه الأمة أفضل ممن بعدهم ،

بقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » « ١ »
وهذا مذهب معظم العلماء ، فمن صحب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ورآه ولو مرة في عمره مؤمنا به ، فهو أفضل ممن يأتي بعده.
وفضل قرن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم ، قليلون في عددهم ، مع

---

(١) أخرجه أحمد والشيخان والترمذي عن ابن مسعود. [.....]
ج ٤ ، ص : ٤٥

كثرة الكفار ، صابرون على أذاهم ، متمسكون حق التمسك بدينهم. وأما أواخر هذه الأمة فلهم فضيلة أخرى لا تمنع ولا تحجب فضيلة السلف الصالح إذا أقاموا الدّين ، وتمسكوا به ، وصبروا على طاعة ربهم ، في وقت ظهور الشر والفسق والهرج والمعاصي والكبائر ، فيصيرون بذلك أشباه السلف غرباء أيضا ، وتزكو أعمالهم في ذلك الوقت ، كما زكت أعمال أوائلهم ، بدليل
قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة : « إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود كما بدأ ، فطوبى للغرباء »
و
قوله فيما رواه الترمذي والحاكم وصححاه وابن ماجه وغيرهم عن أبي ثعلبة الخشني : « إن أمامكم أياما : الصابر فيها على دينه كالقابض على الجمر ، للعامل فيها أجر خمسين رجلا يعمل مثل عمله ، قيل : يا رسول اللّه ، منهم ؟ قال : بل منكم »
و
ذكر أبو داود الطيالسي وأبو عيسى الترمذي : « أمتي كالمطر لا يدرى أوّله خير أم آخره »
و
ذكره الدارقطني في مسند حديث مالك عن أنس : « مثل أمتي مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » .
وحينئذ يستوي أول هذه الأمة بآخرها في فضل العمل إلا أهل بدر والحديبية.
ومدح الأمة الإسلامية ما داموا قائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، فإذا تركوا التغيير وتواطؤوا على المنكر ، زال عنهم اسم المدح ، ولحقهم اسم الذم ، وكان ذلك سببا لهلاكهم.

وإيمان أهل الكتاب بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم خير لهم ، ومنهم المؤمن والفاسق ، والفاسق أكثر.
ووعد اللّه المؤمنين ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم أن أهل الكتاب لا يغلبونهم ، وأنهم منصورون عليهم ، لا ينالهم منهم أذى إلا بالافتراء والتحريف ، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين.
وفي هذه الآية معجزة للنبي عليه الصلاة والسلام لأن من قاتله من اليهود انهزم وولى الأدبار.
ج ٤ ، ص : ٤٦

و سبب الغضب من اللّه على اليهود وإلصاق صفة الذل والهوان أينما وجدوا هو كفرهم بآيات اللّه ، ومنه عدم إيمانهم بالقرآن والإسلام ، وقتلهم الأنبياء ظلما وعدوانا ، ومنه محاولة قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتأليب المشركين عليه وتحريضهم على قتاله واستئصال شأفة المسلمين إلى الأبد ، كما حدث في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة ، وغزوة الأحزاب (الخندق) في السنة الخامسة ، وغير ذلك من ألوان العصيان والاعتداء.
الفئة المؤمنة من أهل الكتاب والثواب على أعمالهم [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٣ الى ١١٥]
لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)
الإعراب :
لَيْسُوا سَواءً : الواو في لَيْسُوا اسم ليس ، وسواء : خبرها.
أُمَّةٌ قائِمَةٌ إما بدل من ضمير لَيْسُوا ، والتقدير : ليس أمة قائمة وأمة غير قائمة سواء. فحذف « غير قائمة » مثل حذف البرد في آية سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، وإما مبتدأ ومِنْ أَهْلِ الْكِتابِ : خبر مقدم ، أو مرفوع بالجار والمجرور على قول الأخفش والكوفيين يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ جملة فعلية في موضع رفع لأنها صفة أُمَّةٌ. آناءَ اللَّيْلِ ظرف زمان متعلق ب يَتْلُونَ. وَهُمْ يَسْجُدُونَ إما حال من ضمير يَتْلُونَ ، ويكون المراد بالسجود هنا الصلاة لأن التلاوة لا تكون في السجود ، وإما معطوف على يَتْلُونَ ويكون المراد بالسجود : السجود بعينه.
ج ٤ ، ص : ٤٧

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ جملة فعلية : إما في موضع نصب على الحال من ضمير يَسْجُدُونَ أو يَتْلُونَ أو قائِمَةٌ ، وإما في موضع رفع لأنها صفة (الأمة) ، وإما مستأنفة. وهذه الأوجه تجري في جمل يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ.

البلاغة :

مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ جملة اسمية للدلالة على الاستمرار. يَتْلُونَ .. يَسْجُدُونَ جملة فعلية للدلالة على التجدد. وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ الإشارة بالبعيد لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم.

المفردات اللغوية :

لَيْسُوا أي أهل الكتاب. سَواءً متساوين ، يستعمل للواحد والمثنى والجمع ، فيقال : هما سواء ، وهم سواء قائِمَةٌ مستقيمة عادلة ثابتة على الحق ، مثل عبد اللّه بن سلام رضي اللّه عنه وأصحابه ، مأخوذ من قولك : أقمت العود فقام ، بمعنى : استقام يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ أي القرآن. آناءَ اللَّيْلِ أي في ساعاته ، واحدها أنى كعصا. وَهُمْ يَسْجُدُونَ يصلون.

يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ يبادرون إلى فعل الخيرات. وَما يَفْعَلُوا أي الأمة القائمة ، والقراءة بالتاء : أي أيتها الأمة. فَلَنْ يُكْفَرُوهُ أي يعدموا ثوابه ، بل يجازون عليه ، والقراءة بالتاء : أي أنتم أيتها الأمة.

سبب النزول : نزول الآية (١١(٣) :

أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده في الصحابة عن ابن عباس قال : لما أسلم عبد اللّه بن سلام ، وثعلبة بن سعنة (أو سعية) ، وأسيد بن سعنة (أو سعية) ، وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود معهم ، فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام قالت أحبار اليهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد واتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم ، وذهبوا إلى غيره ، فأنزل اللّه في ذلك :

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وذكر مثله عن مقاتل.

و أخرج أحمد وغيره عن ابن مسعود قال : أخرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم صلاة

العشاء ، ثم خرج إلى المسجد ، فإذا بالناس ينتظرون الصلاة ، فقال : أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر اللّه هذه الساعة غيركم ، وأنزلت هذه الآية لَيْسُوا سَواءً ... حتى بلغ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ.

وبعبارة أخرى لابن مسعود : نزلت الآية في صلاة العتمة (العشاء) يصليها المسلمون ، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصليها.

المناسبة :

هذه الآيات استمرار في بيان أوصاف أهل الكتاب ، ففي الآيات السابقة صنفهم القرآن صنفين : منهم المؤمنون وكثير منهم الفاسقون ، ثم بين حال الفاسقين ومصيرهم ، وهنا بيّن حال المؤمنين منهم الذين وإن كانوا قلة دخلوا في الإسلام.

التفسير والبيان :

ليس من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب متساوين أو على حد سواء في الفسق والكفر ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ، فمنهم فئة قائمة بأمر اللّه ، مستقيمة على دينه ، مطيعة لشرعه ، متبعة نبي اللّه ، يتلون القرآن في صلواتهم ليلا ، ويكثرون التهجد.

وهم يؤمنون باللّه واليوم الآخر إيمانا حقا صادقا لا شبهة فيه ، ويأمرون غيرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويبادرون إلى فعل الخيرات بسرعة ، ويعملون الصالحات دون تلكؤ ، وهم موصوفون عند اللّه بأنهم من الصالحين الذين صلحت أحوالهم ، وحسنت أعمالهم.

وهم من أحبار أهل الكتاب مثل عبد اللّه بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن سعنة وغيرهم ممن نزلت فيهم هذه الآيات ، ردا على اليهود الذين زعموا أن من آمن منهم شرارهم لا خيارهم ، ولو كان فيهم خير لما آمنوا.

ج ٤ ، ص : ٤٩

و ما يفعلون من الطاعات فلن يحرموا ثوابه ، ولا يضيع عند اللّه ، بل يجزيهم به أوفر الجزاء ، واللّه شكور عليم بالمتقين ، أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا.

فقه الحياة أو الأحكام :

يأبى عدل اللّه إلا أن يظهر الأخيار ، ويبعد الأشرار ، لذا أكد سبحانه وتعالى في هذه الآيات التنويه بإيمان المؤمنين من أهل الكتاب ، فإنهم آمنوا بالإسلام ، وصدقوا بالقرآن ، ورغبوا في دين اللّه ورسخوا فيه.

وقاموا بالأعمال الصالحة ، فأصلحوا أنفسهم ، وجاهدوا في إصلاح غيرهم ، وقاوموا دعوة الفساد والانحراف ، فاستحقوا الاتصاف بالصالحين ، والوصف بالصلاح هو غاية المدح والثناء ، بدليل مدح إسماعيل وإدريس وذي الكفل بهذا الوصف ، فقال تعالى : وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ [الأنبياء ٢١/ ٨٦] وقال عن سليمان : وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ [النمل ٢٧/ ١٩].

وهذا هو واجب الإنسان العاقل في هذه الحياة ، فلا قيمة لحياة دون عقيدة صحيحة ، ولا مدنية

لإنسان دون العمل الصالح ، ومحاربة ألوان الفساد.

وسيجد العامل الصالح ثمرة عمله ، ويجازى بأوفر الجزاء ، ويشكر عليه ، ولن يجحد ثوابه ، وقد سمى اللّه في آية أخرى إثابته للمحسنين شكرا في قوله :

فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً [الإسراء ١٧/ ١٩] ، وسمى نفسه شاكرا في قوله :

فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ [البقرة ٢/ ١٥٨] ، وعبر تعالى هنا عن عدم الإثابة بالكفر.

ج ٤ ، ص : ٥٠

ضياع أعمال الكافرين يوم القيامة [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٦ الى ١١٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

الإعراب :

َثَلِ رِيحٍ

: خبر المبتدأ وهوثَلُ ما يُنْفِقُونَ

.يها صِرٌّ

في موضع جر لأنها صفةيحٍ

.صابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ

ولَمُوا أَنْفُسَهُمْ

جملة في موضع جر صفة لقوم.

البلاغة :

َثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ

أي باردة : تشبيه تمثيلي ، شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه اللّه ، بالزرع الذي أصابته الريح الباردة ، فذهب حطاما (الكشاف : ١/ ٣٤٤).

المفردات اللغوية :

لَنْ تُغْنِيَ لن تجزئ وتنفع ثَلُ ما يُنْفِقُونَ

أي صفة إنفاق الكفارِّ

أو صرّة : برد شديدرْثَ
زرع لَمُوا أَنْفُسَهُمْ
بالكفر والمعصية.
المناسبة :
هذه الآيات وعيد للكفار وإحباط لآمالهم بأنهم لن يجدوا يوم القيامة
ج ٤ ، ص : ٥١
بنفقاتهم فائدة ، ولن ترد عنهم عذابا ، وذلك بعد أن ذكر في الآيات السابقة أحوال الكافرين وعقابهم ، قال مقاتل : لما ذكر تعالى مؤمني أهل الكتاب ذكر كفارهم ، وهو قوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا.
التفسير والبيان :

أخبر اللّه تعالى عن مصير أعمال الكافرين يوم القيامة ، وهم اليهود والمنافقون والمشركون جميعا ، فهم بافتخارهم بأموالهم ، وإنفاقهم لها فيما يكيد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ويعاديه في هذه الحياة الدنيا ، لن تجزي عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب اللّه شيئا إذا أراده بهم ، وخص الأموال والأولاد بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال ، وتارة بالاستعانة بالأولاد لأنهم أقرب أنسابهم إليهم.
وأكد تعالى هذه المعنى في آيات كثيرة منها : وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً [البقرة ٢/ ٤٨] ومنها يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ [الشعراء ٢٦/ ٨٨] ومنها فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً ، وَلَوِ افْتَدى بِهِ [آل عمران ٣/ ٩١] ومنها : وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى [سبأ ٣٤/ ٣٧].
وأولئك هم الملازمون للنار لا ينفكون عنها ، وهم دائمون فيها بسبب كفرهم وفساد عقيدتهم.
وكما أن أموالهم لا تغني عنهم شيئا ، كذلك لا تجديهم أموالهم التي أنفقوها في أغراض الدنيا ولذاتها ، أو للرياء والسمعة والمفاخرة ، وكسب الثناء والشهرة لأنها لغير وجه اللّه ، وقد يكون منها للصد عن سبيل اللّه وعن اتباع النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وعداوته ومقاومته.
وما مثل أو صفة تلك الأموال التي أنفقوها في غير مرضاة اللّه ، إلا كمثل
ج ٤ ، ص : ٥٢
ريح عاتية شديدة البرد أتت على نبات مزروع ، فأحرقته وأهلكته ، فلم يبق منه شيء ، وأعقب على صاحبه الحسرة والندامة ، ونظير ذلك قوله تعالى :

وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً [الفرقان ٢٥/ ٢٣] وقوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً ، حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً [النور ٢٤/ ٣٩].

وهكذا يمحق اللّه ثواب وثمرة أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا ، كما يذهب ثمرة زرع بذنوب أصحابه ، وما ظلمهم اللّه بهذا بأن لم يقبل نفقاتهم بل جازاهم على عملهم الشر بالشر ، وكانوا هم الظالمين أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقة للقبول :

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها [الشورى ٤٢/ ٤٠].

وسبب إحباط أعمال الكفار يوم القيامة ولو كانت صدقة في الخيرات ، هو فقد الإيمان ، وبناؤهم العمل على قاعدة الكفر ، وتركهم النظر في الدلائل الموصلة إلى الحق والصواب.

فإن توافر الإيمان ، وصح اليقين ، وكان الإنفاق بقصد وجه اللّه تعالى ، لا للرياء والسمعة ، كان مقبولا عند اللّه ، لقوله تعالى : إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [المائدة ٥/ ٢٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

إن الكفر أساس بلاء الإنسان في الآخرة ، وهو سبب ضياع ثمرة أعماله التي عملها في الدنيا ، فيكون جزاء الكافرين النار خالدين فيها أبدا ، ولن تفيدهم نفقاتهم المنفقة في دنياهم إلا الحسرة والندامة ، وليس عدم قبول نفقاتهم ظلما من اللّه لهم ، وإنما هم الظالمون لأنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقة للقبول فكفروا وعصوا ومنعوا حق اللّه تعالى ، وأنفقوا أموالهم رياء وسمعة ومفاخرة ، ولم يبتغوا بها وجه اللّه تعالى. وحالهم حال بؤس وشقاء وقلق واضطراب ، فهم كمن يزرع

زرعا تأمّل منه خيرا ونفعا ورزقا يعيش منه طوال العام ، فأصابته ريح باردة ، فأحرقته ، فوقف مبهوتا حائرا ، خائب الظن ، خائر القوى لا يستطيع فعل شيء ، عافانا اللّه من السوء ، وألهمنا الرشد والصواب ، وثبت قلوبنا على الإيمان ، وجعل أعمالنا كلها ظاهرها وباطنها في سبيله ، ومن أجل رضوانه فقط.

الثقة بالكفار واطلاعهم على الأسرار وموقفهم الثابت من المؤمنين [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٨ الى ١٢٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ

وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

الإعراب :

لا يَأْلُونَكُمْ صفة ل بِطانَةً. خَبالًا تمييز منصوب وَدُّوا وبَدَتِ

ج ٤ ، ص : ٥٤

الْبَغْضاءُ

: إما صفة بِطانَةً أو جملة مستأنفة ما عَنِتُّمْ ما : مصدرية ، وتقديره : ودوا عنتكم ، أي هلاككم ها أَنْتُمْ أُولاءِ ها : للتنبيه ، وأنتم : مبتدأ ، وأولاء : خبر أنتم ، تُحِبُّونَهُمْ حال من اسم الإشارة.

لا يَضُرُّكُمْ إنما ضمه وإن كان مجزوما لكونه جواب الشرط اتباعا لضمة ما قبله.

شَيْئاً منصوب على المصدر.

البلاغة :

لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً استعارة ، شبه فيها خواص الرجل بالبطانة ، لملازمتهم له ملازمة الثوب للجسم.

عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ إما حقيقة تبين وصف المغتاظ والنادم ، وإما من مجاز التمثيل الذي يبين شدة الغيظ والتأسف على عدم إذاية المؤمنين. ويوجد مقابلة الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح في آية : إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها. ويوجد جناس اشتقاق في لَمَهُمُ

وظْلِمُونَ

و في الْغَيْظِ وبِغَيْظِكُمْ وفي تُؤْمِنُونَ وآمَنَّا.

المفردات اللغوية :

بِطانَةً

بطانة الرجل : خاصته الذين يطلعهم على أسراره ، مأخوذ من بطانة الثوب :

وهي القماش الرقيق الذي يبطن به الثوب من الداخل ، وعكسه الظهارة ، وهي تستعمل للواحد والجمع ، مذكرا ومؤنثا مِنْ دُونِكُمْ : من غيركم لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا أي لا يقصرون لكم في الفساد ، وخَبالًا : منصوب بنزع الخافض وهي مثل قوله تعالى : لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا [التوبة ٩/ ٤٧] أي فسادا وضررا وَدُّوا تمنوا ما عَنِتُّمْ إيقاعكم في العنت وهو الهلاك والمشقة وشدة الضرر قَدْ بَدَتِ ظهرت الْبَغْضاءُ العداوة لكم مِنْ أَفْواهِهِمْ بالوقيعة فيكم واطلاع المشركين على سركم وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ من

العداوة.

الْأَنامِلَ أطراف الأصابع مِنَ الْغَيْظِ من شدة الغضب لما يرون من ائتلافكم ، ويعبر عن شدة الغضب أو الندم بعض الأنامل مجازا ، وإن لم يكن ثمّ عض قُلْ : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ أي ابقوا عليه إلى الموت ، فلن تروا ما يسركم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي بما في القلوب ، ومنه ما يضمره هؤلاء.

(٤/٥٤)

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ إن تصبكم نعمة كنصر وغنيمة تَسُؤْهُمْ تحزنهم وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ كهزيمة وجدب ، يفرحوا بها ، وعبر أولا بالمس إشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء ، ولو

ج ٤ ، ص : ٥٥

كانت بأيسر الأشياء ، وعبر ثانيا بالإصابة إشارة إلى أن السيئة تفرح الأعداء مهما كانت كبيرة وخطيرة « ١ » . والحسنة : المنفعة المادية أو المعنوية مثل صحة البدن والفوز بالغنيمة ، وانتشار الإسلام ، وتألف المسلمين. والسيئة : الفقر والهزيمة والتفرقة.

والمعنى : أنهم متناهون في عداوتكم والحقد عليكم ، فلا توالوهم واجتنبوهم. وَإِنْ تَصْبِرُوا على أذاهم وَتَتَّقُوا اللّه في موالاتهم وغيرها لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً لا يؤثر عليكم احتيالهم ، للإيقاع في المكروه ، إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ عالم ، فيجازيهم به ، مثل قوله تعالى : وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ وقوله : وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ.

سبب النزول :

أخرج ابن جرير الطبري وابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من يهود ، لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية ، فأنزل اللّه فيهم ، ينهاهم عن مباطنتهم ، تخوف الفتنة عليهم : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ الآية. وروي مثل ذلك عن مجاهد.

المناسبة :

كانت الآيات السابقة في بيان صفات الكافرين من أهل الكتاب والمشركين وعقوباتهم في الآخرة ، وفي بيان أحوال المؤمنين وثوابهم.

(٤/٥٥)

و هذه الآيات تحذير للمؤمنين من عقد الصلات والصداقات العميقة مع الكافرين والمنافقين لأنها تؤدي إلى تسرب الأسرار ، والاطلاع على أحوال المسلمين ، مما تقضي المصلحة بكتمانه ، ويؤدي إلى مخاطر تؤثر على كيان الأمة الإسلامية ، وهذا التحذير في غاية الحكمة والتعقل وحماية المصالح العامة العليا ، شأن كل أمة لا تأتمن على أسرارها إلا خواصها.

---

(١) حاشية الكشاف : ١/ ٣٤٦ بتصرف.

و لا يصح أن تكون القرابات والصداقات والعهود والمحالفات والجوار والرضاع والمصاهرة وغير ذلك سببا في توطيد الصلات والثقة بالأعداء.

التفسير والبيان :

أيها المؤمنون باللّه ورسوله ، وشأن الإيمان السماع إلى الكلام ، لا تتخذوا الكافرين من اليهود والنصارى والمنافقين بطانة أي أصدقاء وخواص ومستشارين ، تطلعونهم على أسراركم ودخائلكم ، لأسباب عديدة هي :

١- لا يقصرون في إضراركم وإفساد أموركم ، ما استطاعوا ذلك.

٢- يتمنون إلحاق الضرر والمشقة والهلاك بكم في دينكم ودنياكم.

٣- يظهرون لكم العداوة والبغضاء أثناء الكلام وعلى صفحات الوجوه وفلتات اللسان ، ويكذبون كتابكم ونبيكم.

٤- ما تخفي صدورهم من الحسد والحقد والبغضاء للإسلام وأهله أشد وأكثر مما يظهرون.

و هذا النهي المطلق الذي له أمثال كثيرة في القرآن الكريم ، يوضحه ويقيده آيتا الممتحنة : لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ، أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ، وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [الممتحنة ٦٠/ ٨- ٩].

فإذا اطمأن الحاكم أو الإمام المسلم إلى موادة غير المسلمين ، ووثق بهم ، جاز التعاون معهم ، كما حدث من عون اليهود للمسلمين في فتوح الأندلس ، وكما وقع من القبط ، إذ عاونوا المسلمين في فتح مصر. وجاز توظيفهم في أعمال الدولة الإسلامية ، فقد جعل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه رجال دواوينه من الروم ، وتابعه الخلفاء من بعده على هذا النهج ، وأناط العباسيون أعمال الدولة

باليهود

ج ٤ ، ص : ٥٧

و النصارى ، وكان كثير من سفراء الدولة العثمانية من النصارى « ١ » .

ثم عاد القرآن محذرا ومنبها المؤمنين قائلا لهم : قد بينا وأظهرنا لكم الدلائل والعبر التي ترشدكم إلى الخير ، وتهديكم إلى سواء السبيل ، إن كنتم تدركون هذه الحقائق التي ترشدكم إلى الخير ، وتهديكم إلى سواء السبيل ، إن كنتم تدركون هذه الحقائق التي ترشدكم إلى ضرورة التفرقة بين الأعداء والأولياء.

ثم أكد القرآن تحذيره السابق من اتخاذ الأعداء بطانة وموضع سر وثقة لأسباب ثلاثة أخرى ، كل منها يستدعي الامتناع عن المودة والمخالطة حال انعدام الثقة وهي :

الأول- إنكم تحبون أولئك الكفار ، وهم لا يحبونكم وإنما يعادونكم.

الثاني- إنكم تؤمنون بالكتب السماوية كلها ومنها كتابهم ، وتصدقون بكل الرسل والأنبياء ، ومنهم رسولهم ونبيهم ، وهم يجحدون بكتابكم ونبيكم.

الثالث- إذا لقوا المؤمنين لاطفوهم حذرا على أنفسهم ، وقالوا : آمنا وصدقنا بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإذا خلوا مع أنفسهم وشياطينهم ، أظهروا شدة الغيظ والحقد والعداوة لكم ، وتألموا وندموا وعضوا الأنامل على أنهم لا يستطيعون إلحاق الأذى بكم. ويكون عض الأنامل مجازا عن الغيظ والحقد أو الندم.

فأنتم مخطئون في موالاة المنافقين والكفار ، وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ، كما قال الزمخشري ، ومثل هذه الآية قوله تعالى :

فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ [النساء ٤/ ١٠٤].

ثم أمر اللّه نبيه محمدا بأن يقول لهم : موتوا بغيظكم ، إن اللّه عليم بذات الصدور ، أي مهما كنتم تحسدون المؤمنين ، ويغيظكم ذلك منهم ، فاعلموا أن اللّه متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه ، ومظهر له ، ومعل كلمته ، ومعز أهل

---

(١) تفسير المنار : ٤/ ٦٨ وما بعدها.

ج ٤ ، ص : ٥٨

الإسلام ، فموتوا أنتم بغيظكم ، واللّه عليم بما تنطوي عليه ضمائركم ، وتكنه سرائركم من البغضاء

والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدنيا ، بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها ، لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها.

(٤/٥٨)

ثم أوضح اللّه تعالى حالا دالة على شدة عداوتهم للمؤمنين : وهو أنه إذا أصاب المؤمنين نعمة أو خير من خصب أو نصر وتأييد وكثرة وعزة أنصار ، ساء ذلك المنافقين وإن أصاب المسلمين شر كجدب أو تغلب الأعداء عليهم- لحكمة إلهية في ذلك كما جرى يوم أحد- فرح المنافقون بذلك. ويلاحظ فرق التعبير البلاغي في القرآن بين جملتي : مس الحسنة وإصابة السيئة ، فهم يستاءون عند أدنى مس للحسنة ، ولا يفرحون حتى تتمكن الإصابة بالسيئة.

ولكن اللّه تعالى ذكر للمؤمنين العلاج الناجع ، وأرشدهم إلى السلامة من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وهو استعمال الصبر ، والتقوى ، والتوكل على اللّه الذي هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوة لهم إلا به ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه.

فإذا صبروا على أداء التكاليف الشرعية ، واتقوا ما نهاهم اللّه عنه ، لم يضرهم كيد الكفار واحتيالهم ، كما قال تعالى : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق ٦٥/ ٢- ٣].

واللّه تعالى عالم محيط علمه بعمل الفريقين ، فهو خبير بمكائد الأعداء وخفاياهم ، وسيحبطها لهم ويردها في نحورهم ، ويجازيهم على أفعالهم ، وعليم بالمؤمنين الذين يستعينون بالصبر ، ويتمسكون بالتقوى ، وهما شرط النجاح والغلبة على الأعداء.

ج ٤ ، ص : ٥٩

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية (١١٨)- آية اتخاذ البطانة « ١ » إلى أربعة أمور :

الأول- تأكيد الزجر عن الركون إلى الكفار ، وذلك للآية السابقة : إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ.

(٤/٥٩)

الثاني– نهي المؤمنين أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء مستشارين أمناء في إبداء الآراء المهمة ، وإسناد الأمور الخطيرة في الدولة إليهم.

أما اتخاذ أهل الكتاب كتبة وموظفين في أعمال الحكومة مما لا يتصل بالقضايا الحساسة للدولة فيظهر من عمل الخلفاء أنه لا مانع منه.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « ما بعث اللّه من نبي ، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم : من عصم اللّه تعالى » .

الثالث– دل قوله تعالى مِنْ دُونِكُمْ أي من سواكم على أن النهي موجه إلى استعمال غير المسلمين بطانة ، لأسباب ذكرتها الآية : وهي : لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا أي لا يقصّرون في إفساد أموركم ووَدُّوا ما عَنِتُّمْ أي ودّوا عنتكم أي ما يشق عليكم ، والعنت : المشقة وقَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ يعني ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواهم ووَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ إخبار وإعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم.

الرابع– في هذه الآية دليل على أن شهادة العدو على عدوه لا تجوز ، وبذلك قال أهل المدينة وأهل الحجاز ، وروي عن أبي حنيفة جواز ذلك.

ودلت الآية (١١٩) : ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ أي المنافقين من أهل

---

(١) بطانة الرجل : خاصته الذين يستنبطون أمره.

الكتاب ، بدليل قوله تعالى : وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا : آمَنَّا على عدم التكافؤ في المواقف بين المسلمين والمنافقين ، فالمسلمون يصافونهم ، وهم لا يصافون المسلمين لنفاقهم ، وهي أيضا بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء ، والحال أن المسلمين يؤمنون بكتاب الكتابيين كله ، وهم مع ذلك يبغضون المسلمين ، فلم يحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابهم ؟ وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب من المسلمين في حقهم! وأما قوله : قُلْ : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ فهو دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به ، والمراد بزيادة الغيظ : زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله ، وما لهم في ذلك من الذل والخزي والخسران. وربما يكون المعنى : أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون ، فإن الموت دون ذلك ، فيزول معنى الدعاء ، ويبقى معنى التقريع والإغاظة ، كما في قوله تعالى : مَنْ

كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ، ثُمَّ لْيَقْطَعْ ، فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ [الحج ٢٢/ ١٥].

وذكرت الآية (١٢٠) سببا آخر لعدم اتخاذ الأعداء بطانة : إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ .. والمعنى من كانت هذه صفته من شدة العداوة والحقد والفرح بنزول الشدائد على المؤمنين ، لم يكن أهلا لأن يتخذ بطانة ، لا سيما في الأمر الجسيم من الجهاد الذي هو ملاك الدنيا والآخرة.

لكن يلاحظ أن هذا فيمن كانت حاله مثل المنافقين في صدر الإسلام ، بدليل أن المذاهب الأربعة أجازت الاستعانة بالكفار في القتال ، إذا كان الكافر حسن الرأي بالمسلمين ، أو عند الحاجة في رأي الشافعية « ١ » .

---

(١) انظر القسطلاني شرح البخاري : ٥/ ١٧٠ ، نيل الأوطار : ٧/ ١٣٦ ، الفقه الإسلامي وأدلته للمؤلف : ٦/ ٤٢٤ ، ط أولى.

و دل قوله تعالى : وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا على ترغيب المسلمين بالتزام الصبر في القيام بالتكاليف الشاقة وتنفيذ الأوامر الإلهية ، والاعتصام بتقوى اللّه بالابتعاد عما نهى اللّه عنه وحظر منه ، فإن يصبروا ويتقوا لا يضرهم كيد الأعداء شيئا. وقد جرت سنة القرآن أن يذكر الصبر في كل مقام يشق على النفس احتماله ، والموقف هنا يتطلب الصبر على عداوة الكافرين واتقاء شرهم ، حتى يأذن اللّه بالفرج القريب والنصر العاجل ، واللّه محيط بأعمالهم ، وهو القادر على أن يمنعهم مما يريدون بالمسلمين ، فلا بد من الثقة باللّه والتوكل عليه.

غزوة أحد تنظيم الجيش الإسلامي والتذكير بالنصر في غزوة بدر [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢١ الى ١٢٩]

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)

وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

ج ٤ ، ص : ٦٢

الإعراب :

وَإِذْ غَدَوْتَ إذ متعلق بفعل مقدر ، تقديره : واذكر إذ غدوت. إِذْ هَمَّتْ متعلق بعليم من الآية السابقة ، أي : يعلم إذ همت. إِذْ تَقُولُ إما متعلق بقوله : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ أو بدل من إِذْ هَمَّتْ ولا يجوز أن يبدل من : نصركم لأن النصر كان يوم بدر ، وإذ همت كان يوم أحد ، أو متعلق بفعل مقدر تقديره : اذكروا.

أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ أن وما بعدها في تقدير المصدر فاعل يكفيكم أي إمداد ربكم.

وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ الهاء في بِهِ فيها خمسة أوجه : إما أن تعود على الإمداد ، أو على المدد ، أو على التسويم من مُسَوِّمِينَ أو على الإنزال من مُنْزَلِينَ أو على العدد الذي دل عليه : خمسة آلاف وثلاثة آلاف. ولام لِتَطْمَئِنَّ : لام كي ، والفعل منصوب بها بتقدير : أن.

لِيَقْطَعَ طَرَفاً اللام إما متعلق بفعل دل عليه الكلام ، تقديره : ليقطع طرفا : نصركم ، أو متعلق بيمددكم ، أو متعلق بقوله : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ على نية التقديم ، وقوله : إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ وما بعده اعتراض.

أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إما بمعنى « إلا أن يتوب » وإما عطف على قوله لِيَقْطَعَ وتقديره : ليقطع طرفا من الذين كفروا ، أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم.

البلاغة :

إِذْ تَقُولُ أتى بالمضارع لحكاية الماضي بطريق استحضار الصورة في الذهن.

أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ الإتيان بصفة الربوبية وإسنادها للمخاطبين لإظهار كمال العناية بهم.

يَغْفِرُ ويُعَذِّبُ بينهما طباق.

ج ٤ ، ص : ٦٣

المفردات اللغوية :

غَدَوْتَ خرجت في الغداة : وهي ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. تُبَوِّئُ تهيأ وتنزل مَقاعِدَ مراكز وأماكن يقفون فيها. إِذْ هَمَّتْ بنو سلمة وبنو حارثة جناحا العسكر. والهم : حديث النفس واتجاهها إلى شي ء. أَنْ تَفْشَلا تجبنا وتضعفا ، لما رجع عبد اللّه بن أبي المنافق وأصحابه ، وقال : علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ وقال لأبي جابر السلمي القائل له : « أنشدكم اللّه في نبيكم وأنفسكم » : لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ فثبتهما اللّه ولم ينصرفا.

وَلِيُّهُما ناصرهما. فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ليثقوا به دون غيره ، والتوكل : الاعتماد على اللّه في كفاية الأمور.

أَذِلَّةٌ واحدها ذليل : وهو من لا منعة له ولا قوة ، وقد كان المسلمون في بدر قليلي العدد والسلاح

يَكْفِيَكُمْ الكفاية مرتبة دون الغنى ، وهي سد الحاجة يُمِدَّكُمْ يعينكم ، والإمداد : إعطاء الشيء حالا بعد حال مُنْزَلِينَ بكسر اللام ، ويقرأ بالتخفيف والتشديد.

بَلى كلمة للجواب مثل نعم ، ولكنها لا تقع إلا بعد النفي ، وتفيد إثبات ما بعده ، أي نعم يكفيكم ذلك ، فأمدهم بألف أولا ، ثم صارت ثلاثة ، ثم صارت خمسة. إِنْ تَصْبِرُوا على لقاء العدو. وَتَتَّقُوا اللّه في المخالفة. وَيَأْتُوكُمْ أي المشركون. مِنْ فَوْرِهِمْ وقتهم أو ساعتهم ، والفور : الحال السريعة التي لا إبطاء فيها ولا تراخ. مُسَوِّمِينَ بكسر الواو بمعنى معلمين أنفسهم أو خيلهم ، أو بفتح الواو ، فكانت عليهم علامات تميزهم ، فإنهم صبروا ، وأنجز اللّه وعده ، بأن قاتلت معهم الملائكة على خيل بلق ، عليهم عمائم صفر أو بيض أرسلوها بين أكتافهم.

وَما جَعَلَهُ اللَّهُ أي الإمداد. إِلَّا بُشْرى لَكُمْ بالنصر. وَلِتَطْمَئِنَّ تسكن.

قُلُوبُكُمْ بِهِ فلا تجزع من كثرة العدو وقلتهم ، فإن النصر من عند اللّه يؤتيه من يشاء ، وليس بكثرة الجند. لِيَقْطَعَ متعلق بنصركم ، أي ليهلك طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بالقتل والأسر.

أَوْ يَكْبِتَهُمْ يذلهم بالهزيمة. فَيَنْقَلِبُوا يرجعوا. خائِبِينَ لم ينالوا ما راموا. لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ بل الأمر للّه فاصبر إلى أن يتوب عليهم بالإسلام أو يعذبهم بظلمهم بالكفر.

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا.

سبب النزول :

نزول آية وَإِذْ غَدَوْتَ في غزوة أحد ، أخرج ابن أبي حاتم وأبو يعلى عن المسور بن مخرمة قال :

قلت لعبد الرحمن بن عوف ، أي خالي : أخبرني عن قصتكم يوم أحد ، فقال :

اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا ، أي من قوله : وَإِذْ

ج ٤ ، ص : ٦٤

غَدَوْتَ ...

إلى قوله تعالى : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً أي وما بعد ذلك بمقدار ستين آية.

سبب نزول قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ :

(٤/٦٥)

روى أحمد ومسلم عن أنس أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوم أحد كسرت رباعيته ، وشج رأسه ، حتى سال الدم على وجهه ، فقال : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل اللّه : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ.

وروى أحمد والبخاري عن ابن عمر قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : اللهم العن فلانا ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية ، فنزلت الآية : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ إلى آخرها ، فتيب عليهم كلهم. وروى البخاري عن أبي هريرة نحوه.

قال الحافظ ابن حجر : طريق الجمع بين الحديثين : أنه صلّى اللّه عليه وسلّم دعا على المذكورين في صلاته بعد ما وقع له من الأمر المذكور يوم أحد ، فنزلت الآية في الأمرين معا فيما وقع له ، وفيما نشأ عنه في الدعاء عليهم.

الخلاصة : إن الآية نزلت في قصة أحد ، ويمكن أن تشمل حوادث أخرى وقعت بعدها. وأما ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة من الكف عن الدعاء على رعل وذكوان بعد نزول هذه الآية ، ففي الخبر علة وهي الإدراج من قول الزهري عمن بلغه : وهو قوله « حتى أنزل اللّه » لأن هذه القصة حدثت بعد قصة أحد.

ونص

رواية مسلم : « أنه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقول في الفجر : اللهم العن رعلا وذكوانا وعصية ، حتى أنزل اللّه لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ.

ورواية البخاري : « كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حين يفرغ في صلاة الفجر من القراءة

ج ٤ ، ص : ٦٥

يكبر ويرفع رأسه ويقول : سمع اللّه لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، ثم يقول وهو قائم :

(٤/٦٦)

اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد ووطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف ، اللهم العن لحيان ورعلا وذكوان وعصية ، عصت اللّه ورسوله. ثم بلغنا أنه ترك ذلك ، لما نزلت : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ.

المناسبة :

لما حذّر اللّه تعالى من اتخاذ بطانة السوء ، ذكر هنا مثالا واقعيا من ميدان المعارك والغزوات ، وهو أن سبب همّ الطائفتين بالفشل (الجبن والضعف) هو تثبيط المنافقين لهم بقيادة زعيمهم عبد اللّه بن أبي بن سلول.

روى الشيخان عن جابر قال : فينا نزلت : إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا ، وَاللَّهُ وَلِيُّهُما قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب أنها لم تنزل ، لقوله تعالى : وَاللَّهُ وَلِيُّهُما.

وقد تحدثت الآيات عن غزوة أحد التي أنزل فيها ستون آية من ١٢١- ١٨٠ ، وجاء في أثنائها الحديث عن غزوة بدر اعتراضا ، ليذكّرهم بنعمته تعالى عليهم ، حينما نصرهم ببدر وهم قلة.

نبذة يسيرة عن غزوتي بدر وأحد :

غزوة بدر :

حدثت معركة بدر في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، بعد أن تعرض المسلمون لقافلة أبي سفيان القادمة من الشام ، التي تحمل الأموال والتجارة ، في وسط من قيام حالة الحرب بين المسلمين وبين مشركي قريش بمكة ،

ج ٤ ، ص : ٦٦ بقصد الحصار الاقتصادي ، وتعويض المسلمين ما صادره لهم القرشيون في مكة من أموال وعقارات وممتلكات. وقد عزّ على المكيين هذا الحادث ، وأحسوا بالخطر على وجودهم ، وشعروا بقوة المؤمنين في المدينة ، وملأ الحقد والعزة بالإثم صدورهم. فحشدوا قواهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف من قريش إلا القليل النادر ، وكان عددهم ألفا وزيادة ، فيهم الفرسان والأبطال وصناديد قريش.

فلما سمع بهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم استشار أصحابه ، ثم خرج إليهم مسرعا في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، لم يكن معهم إلا فرسان وسبعون بعيرا ، والباقون مشاة ليس معهم من العدد ما يحتاجون إليه.

وتقابل الجيشان في بدر : وهي بئر بين مكة والمدينة ، كانت لرجل يسمى بدرا ، فسمي به الموضع ،

والأكثر على أنه ماء هنالك ، وبه سمي الموضع. وانجلت المعركة عن نصر مؤزر للمسلمين ، وكارثة كبري على المشركين ، وكانت معركة حاسمة قررت مصير الفريقين ، وأحدثت دويا هائلا بين العرب ، فسماها اللّه تعالى يَوْمَ الْفُرْقانِ فقال : إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ ، يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ [الأنفال ٨/ ٤١].

(٦٨/٤)

فيها انتصرت الفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكثيرة : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ وأمد اللّه تعالى فيها المؤمنين بالملائكة يقاتلون مع المسلمين ، وظهر فيها مدى ثبات المسلمين وجرأتهم النادرة ، واشترك فيها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقاتل- وكان اشتراكه في تسع غزوات- وبرز فيها عنصر الإيمان والعقيدة والتوكل على اللّه في قلب المعركة وأثناء المشاركة بالسلاح ، وتمثل ذلك بدعاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قبيل التحام الصفين فقال : « اللهم ، إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض ، اللهم أنجزني ما وعدتني ، اللهم نصرك » ورفع يديه إلى السماء ، حتى سقط الرداء عن منكبيه

،

ج ٤ ، ص : ٦٧

فأخذه أبو بكر فرده ، ثم التزمه من ورائه يسري عنه ، ويشفق عليه من كثرة التضرع والاستغاثة والابتهال : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ [الأنفال ٨/ ٩].

غزوة أحد :

اشتد غيظ المشركين بعد معركة بدر على المسلمين ، وبدأ أبو سفيان زعيم قريش يؤلب المشركين على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فجمعوا الأموال ، وجهزوا جيشا نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، فيهم سبعمائة دارع ، ومائتا فارس ، على رأسهم صفوان بن أمية.

فاستشار النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أصحابه ، فأشار الشيوخ ومعهم عبد اللّه بن أبي زعيم المنافقين ورأس اليهود في المدينة بالبقاء في المدينة والقتال في شوارعها ، وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يكره الخروج. وأشار الشباب بالحرب ، ومعهم رجال لم يشهدوا بدرا ، وقالوا : يا رسول اللّه ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا.

(٦٩/٤)

و ما زالوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، حتى دخل بيته ولبس وتجهز ووافق الأغلبية رأي القائلين بالحرب ، ثم ندم الذين اقترحوا الخروج وقالوا : استكرهناك يا رسول اللّه! ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد ، صلى اللّه عليك ،

فقال : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته- درعه- أن يضعها حتى يقاتل » .

فخرج في ألف أو إلا خمسين رجلا من أصحابه ، فيهم مائة دارع وفرسان فقط ، ونزل الشّعب من جبل أحد (على بعد نحو ٣ كم من شمال المدينة) يوم السبت سابع شوال في السنة الثالثة من الهجرة ، وجعل ظهره وعسكره إلى « أحد » وسوى صفوفهم ، وأجلس جيشا من الرماة وهم خمسون رجلا ، وأمرّ عليهم عبد اللّه بن جبير بسفح الجبل ، وقال : انضحوا عنا بالنبل ، لا يأتونا من

ج ٤ ، ص : ٦٨

ورائنا ، ولا تبرحوا ، غلبنا أو نصرنا. وفي (سيرة ابن هشام) : ادفعوا الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا. وفي (زاد المعاد) : أمرهم بأن يلزموا مركزهم ، ولا يفارقوا ، ولو رأوا الطير تتخطف العسكر.

وكان لواء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مع مصعب بن عمير ، وعلى أحد الجناحين الزبير بن العوام ، وعلى الآخر المنذر بن عمرو ، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ، ولواؤهم مع طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار ، وعلى رماتهم وكانوا مائة : عبد اللّه بن أبي ربيعة.

ورجع زعيم المنافقين مع ثلاثمائة من أصحابه قائلا : أيعصيني ويطيع الولدان : لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ [آل عمران ٣/ ١٦٧].

وكاد بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار ألا يخرجوا إلى أحد ، ثم وفقهم اللّه ، فخرجوا ، وهو معنى قوله تعالى : إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا ، وَاللَّهُ وَلِيُّهُما.

فلم يبق بعد رجوع المنافقين مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلا سبعمائة رجل.

و لما التقى الجمعان ، قامت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان في نسوة يضربن بالدفوف ، ويمشين وراء الصفوف.

وقاتل أبو دجانة الذي أخذ السيف من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ووعده بأن يأخذه بحقه ، فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله. وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتالا شديدا ، وقتل عددا من الأبطال ، ولما قتل مصعب بن عمير أعطى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الراية لعلي بن أبي طالب ، وقتل وحشي غلام

جبير بن مطعم حمزة بحربة دفعها عليه ، حتى خرجت من بين رجليه ، فسقط شهيدا سيد الشهداء.
وانهزم المشركون ، وسقط لواؤهم من يد طلحة ، فحمله ابنه ، ثم أخوه ،
ج ٤ ، ص : ٦٩
و كاد النصر يتحقق للمسلمين ، لولا أن الرماة على ظهر الجبل خالفوا أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وانحدروا يجمعون الغنائم ، وفارقوا مكانهم.
ففطن خالد بن الوليد لمكان الضعف ، فبادر من قناة مع خيل المشركين إلى تطويق المسلمين من أعلى جبل الرماة من الخلف ، وانقض مع جيشه يفتك بالمسلمين ، وشاع بين الناس أن محمدا قد قتل ، فتراجع المسلمون ، وهربوا ، وأصيب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالحجارة ، حتى وقع لشقه ، فكسرت رباعيته ، وشج في رأسه ، وجرحت شفته ، وسال الدم على وجهه ، وغاب حلق المغفر في وجنتيه ، وأصيبت ركبتاه ، و
جعل يمسح الدم ويقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ ! » وأخذ بيده علي ورفعه طلحة حتى قام ، ومص مالك بن سنان الدم عن وجهه صلّى اللّه عليه وسلّم وابتلعه.
ثم أخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يدعو المسلمين في أخراهم ، ويقول : « إليّ عباد اللّه ، أنا رسول اللّه : إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ ، فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ [آل عمران ٣/ ١٥٣].

(٤/٧١)

و صار أبو سفيان يقول : يا معشر قريش ، أيكم قتل محمدا ؟ فقال عمر بن قميئة : أنا قتلته. وكان كعب بن مالك أول من بشر بنجاة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وسلمه اللّه من أذى المشركين : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة ٥/ ٦٧]. ولم يقتل صلّى اللّه عليه وسلّم في حياته سوى أبي بن خلف الذي تآمر على قتل النبي وفيه نزلت آية : وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ، وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى [الأنفال ٨/ ١٧].
وكان يوم بلاء شديد على المسلمين ، استشهد فيه منهم سبعون رجلا ، وعدة قتلى المشركين اثنان وعشرون رجلا.
ووجد في ساحة المعركة حمزة سيد الشهداء ، وكانت هند بنت عتبة قد بقرت كبده ولاكتها ، ولم تستسغها ، وصرخ أبو سفيان بأعلى صوته : الحرب
ج ٤ ، ص : ٧٠
سجال ، يوم بيوم بدر ، اعل هبل (صنم عند الكعبة) أي ظهر دينك. ولما انصرف ومن معه قال : إن موعدكم بدر العام القابل ،

فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : قولوا له : هو بيننا وبينكم.
ثم بحث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن عمه الحمزة ، فوجده مبقور البطن ، مجدوع الأنف ، مصلوم الأذن ، فحزن حزنا شديدا ، وقال : « لئن أظهرني اللّه عليهم لأمثلنّ بثلاثين منهم » . ثم سجّاه ببردته ، وصلى عليه ، وكبر سبع تكبيرات ، وصف إلى جانبه القتلى ، وصلى عليهم ثنتين وسبعين صلاة. ثم دفن حمزة ، وأمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بدفن بقية القتلى قائلا : ادفنوهم حيث صرعوا.

(٤/٧٢)

و كان سبب الهزيمة كما تبين مخالفة الرماة أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وطمعهم في الغنائم ، وكانت هذه المعركة محنة للمسلمين ، وتمحيصا وتربية للمؤمنين ، وتعليما لهم بأن النصر منوط باتخاذ الأسباب ، وأن الهزيمة لا تعني نكسة في الإيمان واضطرابا في اليقين ، لذا قال تعالى : فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ، لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ ، وَلا ما أَصابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ [آل عمران ٣/ ١٥٣]. وأن البلاء يعم ، كما قال تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال ٨/ ٢٥].
التفسير والبيان :
اذكر لهم يا محمد وقت خروجك من بيتك غدوة يوم السبت سابع يوم من شوال سنة ثلاث للهجرة تنزل المؤمنين أمكنة القتال ، وتعبئ الجيش ، فتضع جماعة على جبل الرماة ، وآخرين في الميمنة ، وأولئك في الميسرة ، وتخصص مواضع معينة للفرسان.
واللّه سميع لما قاله المؤمنون فيما شاورتهم فيه ، سواء الذين قالوا : « لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا » والذين قالوا : « اخرج بنا حتى نلقاهم في
ج ٤ ، ص : ٧١
خارج المدينة » واللّه عليم بكل نية وفعل ، سواء من أخلص القول ، وإن أخطأ ، ومن نافق وإن أصاب كعبد اللّه بن أبي وجماعة المنافقين.

(٤/٧٣)

و اللّه أيضا سميع عليم حين همت طائفتان من الأنصار وهم بنو سلمة من الأوس ، وبنو حارثة من الخزرج- وكانتا جناحي عسكر المسلمين ونحو ثلثهم- أن تضعفا وتجبنا عن القتال ولا تخرجا إلى المعركة ، حين رأوا تراجع المنافقين ، ولكن اللّه متولي أمورهما لصدق إيمانهما ، فعصمهم من الخذلان والذل ، وحماهم من الجبن والفرار لأن الهم بالشيء لا يعد معصية بدليل قوله : وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وعلى اللّه

فليتوكل المؤمنون ، وليثقوا به ، وليعتمدوا على تأييده ، لا على قوتهم وأنصارهم ، بعد اتخاذ الأسباب ، وإعداد العدة ، وتجهيز الجيش والسلاح الملائم لكل عصر ، فإن الإنسان مأمور باتخاذ الأسباب ، ثم ترك النتائج والمسببات إلى اللّه تعالى ، فهو تعالى ينصر الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة بإذنه ، كما نصر المؤمنين يوم بدر.

لذا اقتضى المقام تذكيرهم بنصر اللّه لهم يوم بدر ، لما توكلوا عليه وامتثلوا أوامره وأوامر نبيه ، وكانوا قليلي العدد والعدد ، إذ كانوا نحو ثلاثمائة والكفار نحو ألف ، وليس معهم سوى فرسين ، ومع المشركين الخيول والدروع والفرسان والأبطال.

فذلك دليل على أن النصر إنما هو من عند اللّه لا بكثرة العدد والعدد ، وكما قال تعالى يوم حنين : وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً إلى قوله غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة ٩/ ٢٥- ٢٧].

فاتقوا اللّه بطاعته واجتناب محارمه ، والثبات مع رسوله ، والصبر على المشاق ، لتشكروا اللّه أو لتصيروا شاكرين أو لتعدّوا أنفسكم لشكره ، فإن الطاعة والصبر والثبات عدة الشكر على النعمة والنصر.

ج ٤ ، ص : ٧٢

و اذكر يا محمد حين تقول للمؤمنين يوم بدر ، تعدهم تطمينا ، وقد هابوا العدو لكثرتهم : ألن يكفيكم إمداد ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة أنزلهم اللّه تعالى لقتال الكفار. أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال : بلغ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربيّ يريد أن يمدّ المشركين ، فشق ذلك على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وعلى المسلمين ، فأنزل اللّه تعالى : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ إلى قوله : مُسَوِّمِينَ فبلغ كرزا الهزيمة ، فلم يمدّهم ورجع ، فلم يمدهم اللّه أيضا بالخمسة آلاف ، وكانوا قد مدّوا بألف.

قال قتادة : كان الإمداد بالملائكة يوم بدر ، أمدهم اللّه بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، فذلك قوله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ، فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ وقوله : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ وقوله : بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا ، يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ فصبر المؤمنون يوم بدر ، واتقوا اللّه ، فأمدهم اللّه بخمسة آلاف من الملائكة ، على ما وعدهم فهذا كله يوم بدر.

وكان هذا الإمداد ماديا فعليا من قبيل إمداد العسكر بما يزيد عددهم ، وشاركت الملائكة في القتال ، وأكد ذلك روايات كثيرة ثابتة في البخاري ومسلم « ١ » وليس ذلك من قبيل الإمداد المعنوي ، كما

جنح إليه صاحب (تفسير المنار) وهو رأي قديم لبعضهم إذ قال : إنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون ويسبّحون ، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر ، وإنما حضروا للدعاء بالتثبيت. والرأي الأول هو ما عليه أكثر

)

---

(١) وقد كنت تورطت بمقال نشر في مجلة (حضارة الإسلام) بعنوان « الإمداد بالملائكة » تأثرا بما رجحه صاحب تفسير المنار والشيخ محمد عبده ، ثم عدلت عن ذلك ، لتضافر الروايات الصحيحة في السنة على أن الإمداد كان فعليا.

ج ٤ ، ص : ٧٣

المفسرين « ١ » . قال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون ، إنما يكونون عددا أو مددا.

وقال الفخر الرازي في تفسيره الكبير : أجمع أهل التفسير والسير أن اللّه تعالى أنزل الملائكة يوم بدر ، وأنهم قاتلوا الكفار « ٢ » .

هذا على القول بأن آية إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ .. هي تذكير بالقول يوم بدر.

وقيل عن عكرمة والضحاك : إنما كان هذا يوم أحد ، وعدهم اللّه المدد إن صبروا ، فما صبروا ، فلم يمدّهم بملك واحد ، ولو أمدّوا لما هزموا.

ومجمل القول : اختلف المفسرون في هذا الوعد : إِذْ تَقُولُ .. هل كان يوم بدر أو يوم أحد ؟ على قولين : القول الأول- للحسن البصري وجماعة واختاره الطبري : وهو أنه متعلق بقوله : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ. والقول الثاني- لمجاهد وجماعة آخرين : وهو أن هذا الوعد متعلق بقوله : وَإِذْ غَدَوْتَ .. وذلك يوم أحد ، والظاهر القول الأول.

ثم ذكر تعالى : بلى يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة ، ثم وعدهم بزيادة الإمداد إلى خمسة آلاف إن صبروا واتقوا ، حثا لهم عليهما ، وتقوية لقلوبهم.

فإن تصبروا على لقاء العدو ، وتتقوا المعاصي ، ومخالفة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويأتيكم المشركون من ساعتهم هذه لقتالكم ، يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين (بكسر الواو وفتحها) أي معلمين أنفسهم أو خيلهم ، أو معلمين بعمائم صفر

---

(١) تفسير القرطبي : ٤/ ١٩٤

(٢) التفسير الكبير للرازي : ٨/ ٢١٣ ، تفسير الألوسي : ٤/ ٤٧

ج ٤ ، ص : ٧٤

مرخاة على أكتافهم ، كما قال الكلبي ، وعن الضحاك : معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها ، و

عن قتادة : كانوا على خيل بلق. وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لأصحابه : تسوّموا ، فإن الملائكة قد تسوّمت.

والخلاصة : دل القرآن على أنهم أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة ، في قوله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ، فَاسْتَجابَ لَكُمْ ، أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وأما الإمداد بثلاثة آلاف أو بخمسة آلاف فأثبته بعضهم ، لكن قال الطبري : ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، وعلى أنهم لم يمدوا بهم ، وقد يجوز أن يكون اللّه أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أن اللّه أمدهم ، وقد يجوز أن يكون اللّه لم يمدهم على النحو الذي ذكره من أنكر ذلك ، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف « ١ » .

وأضاف الطبري قائلا :

أما في أحد فالدلالة على أنهم لم يمدّوا أبين منها في أنهم أمدّوا ، وذلك أنهم لو أمدوا ، لم يهزموا ، وينل منهم ما نيل.

وما جعل اللّه إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون ، ولإلقاء الطمأنينة في قلوبكم بأن معونة اللّه ونصرته معكم ، أي : أن للإمداد بالملائكة غايتين :

١- التبشير بالنصر على الأعداء ، وإدخال السرور على القلوب.

٢- تطمين المؤمنين بأن اللّه معهم وأنه مؤيدهم ، فلا يجبنون عن المحاربة.

وما النصر الحقيقي إلا من عند اللّه العزيز : القوي الذي لا يغلب ، الحكيم الذي يدبر الأمور على أحكم الخطط وأقوم الوسائل ، والذي يعطي النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة.

---

(١) جامع البيان للطبرسي.

ج ٤ ، ص : ٧٥

حقق اللّه نصركم يوم بدر وأمدكم بالملائكة ليهلك طائفة من رؤوس الكفر والشرك بالقتل والأسر ، فقد قتل يوم بدر سبعون وأسر سبعون من رؤساء قريش وصناديدهم أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ، فينقلبوا خائبين غير ظافرين بمبتغاهم ، وذلك نحو قوله تعالى : وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ، لَمْ يَنالُوا خَيْراً [الأحزاب ٣٣/ ٢٥] أو يتوب عليهم إن أسلموا ورجعوا إلى اللّه أو يعذبهم إن أصروا على الكفر والعداوة ، فيكونون ظالمين لأنفسهم.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها لبيان أن الأمر كله بيد اللّه ، فقال : ليس لك يا محمد من أمر البشر شيء ، وما عليك إلا تنفيذ أمري وإطاعتي ، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، فلا تتألم منهم ، ولا تدع عليهم ، فربما تاب بعضهم ، وقد تاب وأسلم أبو سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية.

ثم أكد سبحانه وتعالى أن الأمر بيده ، فللّه ملك السماء والأرض وما فيهما ، وكلهم خلقه وعبيده ، يحكم فيهم بما يشاء ، فيغفر لمن يشاء المغفرة له ، ويعذب من يشاء تعذيبه ، بحكمة وعدل ، وهو الغفور الذي يستر ذنوب من أحب من أوليائه ، الرحيم بأهل طاعته ، فيعفو ويصفح ، ويترك العقاب عاجلا أو آجلا.

وفي ذلك تعليم للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ولأمته إذ الأمر كله للّه ، والكل خاضعون له ، لا فرق في ذلك بين ملك مقرّب أو نبي مرسل أو بشر آخر ممن خلق ، إلا من سخره اللّه لمهمة أو أذن له بشفاعة ، على وفق السنة الكونية العامة ، وبمقتضى المشيئة الإلهية المطلقة ، ولحكمة قد لا ندركها إلا يوم القيامة.

فقه الحياة أو الأحكام :

خلاصة ما دلت عليه الآيات ما يأتي :

– لا بد للبشر في كل أمورهم من اتخاذ الأسباب والقيام بواجباتهم المعتادة ،

ج ٤ ، ص : ٧٦

سواء في حال السلم أو في حال الحرب والقتال ، ومنها إعداد القوة وتعبئة الجيش وتنظيم المقاتلين.

– ومن اتخاذ الأسباب المطلوبة في الظاهر والفعل : إطاعة أوامر اللّه والقائد ، فقد انتصر المسلمون في بدر ، وأمدهم اللّه تعالى بالملائكة فعلا ، وشاركوهم في القتال ، لما صبروا وثبتوا واتقوا وأطاعوا

اللّه سبحانه ، وهزموا في أحد لما خالفوا أوامر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتركوا مواقعهم في جبل الرماة ، وهذا دليل واضح على أثر التقوى والصبر في غزوتي بدر وأحد ، كما أن لهما أثرا في التعامل مع الأعداء ، فإن يصبروا ويتقوا لا يضرهم كيدهم شيئا ، كما في الآية (١٢٠).

– وإنجاز النصر مرهون بنصر اللّه تعالى ودينه ، وتحقيق النتائج إنما هو بيد اللّه تعالى وحده ، وللّه الأمر كله ، وله ملك السموات والأرض وما فيهن.

أما تفصيل دلالات الآيات وأهم الأحداث التي صاحبت غزوتي بدر وأحد فهو ما يأتي :

١– لا بد لكل قائد حربي من وضع خطة استراتيجية للمعركة التي يخوضها مع الأعداء ، ولا بد من تنظيم صفوف المقاتلين وترتيب مواقعهم وإنزالهم في أماكن معينة يتم من خلالها لقاء المحاربين ، وقد فعل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ذلك بوصفه قائد الحرب في معركة أحد ، كما أشارت الآية : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ...

٢– إن صدق الإيمان وإخلاص المقاتلين يعصمان من الوساوس والهم بالشيء وأحاديث النفس ، كما عصم اللّه طائفتي بني حارثة وبني الأوس من الأنصار من التراجع بقوله : وَاللَّهُ وَلِيُّهُما حين رجع المنافقون إلى المدينة.

٣– شارك النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فعلا في القتال في تسع غزوات ، منها غزوة أحد ، وفيها جرح في وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر ، وهشمت البيضة

ج ٤ ، ص : ٧٧

)

الخوذة) « ١ » من على رأسه ، وكان الذي رماه في وجهه عمرو بن قميئة الليثي ، الذي أدمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص.

٤– كان من كوارث أحد أن قتل حمزة عم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وسيد الشهداء ، قتله وحشي الذي كان مملوكا لجبير بن مطعم ، وقد كان جبير قال له : إن قتلت محمدا جعلنا لك أعنة الخيل ، وإن أنت قتلت علي بن أبي طالب جعلنا لك مائة ناقة كلّها سود الحدق ، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حر.

فقال وحشي : أما محمد فعليه حافظ من اللّه لا يخلص إليه أحد. وأما علي ما برز إليه أحد إلا قتله. وأما حمزة فرجل شجاع ، وعسى أن أصادفه فأقتله.

وكانت هند كلما تهيأ وحشي أو مرّت به قالت : إيها أبا دسمة ، اشف واستشف. فكمن له خلف

صخرة ، وكان حمزة حمل على القوم من المشركين فلما رجع من حملته ، ومرّ بوحشي زرقه بالمزراق (رمح قصير) فأصابه فسقط ميّتا ، رحمه اللّه ورضي عنه. قال ابن إسحاق : فبقرت هند عن كبد حمزة ، فلاكتها ، ولم تستطع أن تسيغها ، فلفظتها ، ثم علت على صخرة مشرفة ، فصرخت بأعلى صوتها ، فقالت أبياتا مطلعها :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمّه وبكري

٥- دل قوله تعالى : وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ على أن التوكل على اللّه من الإيمان. والتوكل في اللغة : إظهار العجز والاعتماد على الغير. وأما في الشرع فليس هو ترك الأسباب ، كما زعم قوم ، وإنما هو الثقة باللّه والإيقان بأن قضاءه ماض ، واتباع سنة نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم في السعي فيما لا بد منه من الأسباب من

---

(١) وهي زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

مطعم ومشرب وتحرز من عدوّ ، وإعداد الأسلحة ، واستعمال سنة اللّه تعالى المعتادة « ١ » . و

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الطبراني والبيهقي عن ابن عمر ، وهو ضعيف : « إن اللّه يحب العبد المؤمن المحترف » .

٦- أرشدت الآيات وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ [١٢٣- ١٢٥] إلى أن اللّه تعالى نصر عباده المؤمنين في بدر أول لقاء مسلح مع المشركين ، فرق اللّه بين الحق والباطل وسماه « يوم الفرقان » ، وأسفر عن معركة حاسمة بعيدة المدى في التاريخ الإنساني ، وأمد اللّه تعالى به المؤمنين بالملائكة ، باعتباره سببا من أسباب النصر ، لتطمئن قلوبهم وتتعلق باللّه وتثق به ، وليمتثلوا ما أمرهم به من اتخاذ الأسباب التي قد خلت من قبل : وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا [الأحزاب ٣٣/ ٦٢].

أما في الحقيقة فالناصر هو اللّه تعالى بسبب وبغير سبب : إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [يس ٣٦/ ٨٢].

وأما كلمة مُسَوِّمِينَ بكسر الواو اسم فاعل : فمعناها أنهم أعلموا أنفسهم بعلامة ، وأعلموا خيلهم ، وقال كثير من المفسرين : مسوّمين أي مرسلين خيلهم في الغارة. وأما بفتح الواو اسم مفعول : فالمعنى : معلّمين بعلامات. وعلى القراءة الأولى اختلفوا في سيما الملائكة ،

فروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس وغيرهما « أن الملائكة اعتمّت بعمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم » ذكره البيهقي عن ابن عباس ، وحكاه المهدوي عن الزجاج.

وقال الربيع : كانت سيماهم أنهم كانوا على خيل بلق « ٢ » .

وذلك دليل على اتخاذ الشارة (الهيئة) والعلامة للقبائل والكتائب ، يجعلها السلطان لهم ، لتتميز كل قبيلة وكتيبة عن غيرها عند الحرب.

---

(١) تفسير القرطبي : ٤/ ١٨٩

(٢) البلق : سواد وبياض.

٧- إن الإمداد بالملائكة يوم بدر كان إمدادا فعليا ، لا معنويا ، بدليل الثابت في الروايات الكثيرة في السنة النبوية. وقد جعله اللّه بشرى للمؤمنين بالنصر وتطمينا لقلوبهم ، وإهلاكا لأعدائهم. والنصر الحقيقي بسبب أو بغير سبب هو من عند اللّه القوي الغالب الحكيم الصنع ، المدبر لكل الأمور على وفق الحكمة بوضع كل شيء في المحل المناسب له.

٨- إن جرح النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في معركة أحد أمر عظيم الوقع والتأثير على النبي نفسه وعلى المؤمنين ، لذلك

قال كما ثبت في صحيح مسلم حينما جعل يمسح الدم عنه : « كيف يفلح قوم شجّوا رأس نبيهم ، وكسروا رباعيته ، وهو يدعوهم إلى اللّه تعالى » فأنزل اللّه تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ.

قال الضحاك : همّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يدعو على المشركين ، فأنزل اللّه تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ.

وقيل : استأذن في أن يدعو في استئصالهم ، فلما نزلت هذه الآية ، علم أن منهم من سيسلم ، وقد آمن كثير ، منهم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم. وروى الترمذي عن ابن عمر قال : وكان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يدعو على أربعة نفر ، فأنزل اللّه عز وجل : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ فهداهم اللّه للإسلام ، وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح.

وعلى أي حال : فهذه الآية لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ءٌ دليل قاطع على أن القرآن من عند اللّه ، فهذا تنبيه لرسول اللّه وإعلام له بأن الأمر كله للّه ، سواء دعا على المشركين أو لم يدع.

٩- بناء على ما ثبت من دعاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على جماعة من المشركين في صلاة الفجر ،

اختلف العلماء في القنوت في صلاة الفجر وغيرها. فمنعه الكوفيون (الحنفية والحنابلة) لما روي في الموطأ عن ابن عمر : « أنه كان لا يقنت في شيء

ج ٤ ، ص : ٨٠

من الصلاة »

و لما روى النسائي أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والخلفاء الراشدين لم يقنتوا.

وأجازه الحجازيون (المالكية والشافعية) لكن الأفضل عند المالكية قبل الركوع ، وعند الشافعية بعد الركوع

لما روى الدارقطني بإسناد صحيح عن أنس أنه قال : « ما زال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقنت في صلاة الغداة حتى فارق الدنيا » .

وروى أبو داود في المراسيل عن خالد بن أبي عمران أن جبريل علّم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم دعاء القنوت وهو دعاء عمر : « اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ... » إلخ. وروى البيهقي صيغة القنوت بلفظ : « اللهم اهدني فيمن هديت .. » إلخ.

إرشادات للمؤمنين بفعل الخيرات وترك المنكرات وجزاء الطائعين والعصاة [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٣٠ الى ١٣٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)

وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (١٣٦)

ج ٤ ، ص : ٨١

الإعراب :

أَضْعافاً مُضاعَفَةً : أضعافا حال منصوب من الربا ، ومضاعفة : صفة له وَسارِعُوا معطوفة على ما قبلها من القصص عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وأُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الأولى جملة اسمية والثانية فعلية ، وهما في موضع جر صفة لجنة.

وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ : مَنْ استفهام معناه النفي : مبتدأ ، ويَغْفِرُ :

خبره ، وفيه ضمير يعود إلى مَنْ. وإِلَّا اللَّهُ : بدل من ضمير يَغْفِرُ ، وتقديره :

ما يغفر الذنوب إلا اللّه.

وَجَنَّاتٌ تَجْرِي .. جملة : تجري فعلية في موضع رفع صفة لجنات ، والعائد إليها الهاء في تَحْتِهَا.

خالِدِينَ فِيها حال من أولئك ، أي مقدرين الخلود فيها. وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : ونعم أجر العاملين الجنة ، وحذف لدلالة الكلام المتقدم عليه.

البلاغة :

أَضْعافاً مُضاعَفَةً جناس اشتقاق.

لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا مجاز مرسل ، سمي الأخذ أكلا لأنه يؤول إليه.

عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ تشبيه بليغ حذف منه أداة الشبه ، أي كعرض السموات والأرض.

سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ أي إلى موجب مغفرة ، تسمية للشيء باسم سببه.

السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فيه طباق.

وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ استفهام يقصد منه النفي أي لا يغفر.

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ الإشارة بالبعيد للدلالة على علو منزلتهم.

وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ حذف منه المخصوص بالمدح أي ونعم أجر العاملين الجنة.

المفردات اللغوية :

أَضْعافاً مُضاعَفَةً بأن تزيدوا في المال عند حلول الأجل وتؤخروا الطلب ، وضعف

الشي ء : مثله ، وهذه المضاعفة : إما في الزيادة فقط التي هي الربا ، وإما بالنسبة إلى رأس المال كاستدانة مائة بثلاثمائة وَاتَّقُوا اللَّهَ بترك الربا بأن تجعلوا لأنفسكم وقاية من عذابه تُفْلِحُونَ تفوزون وَاتَّقُوا النَّارَ أن تعذبوا بها أُعِدَّتْ هيئت وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ بادروا إلى الأسباب المؤدية إليها من الأعمال الصالحة ، كالصدقة وفعل الخير والتوبة عن الآثام كالربا ونحوه عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أي كعرضهما

لو وصلت إحداهما بالأخرى ، والعرض : السعة ، والمراد وصف الجنة بالسعة.

السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ السراء : الحال التي تسر ، والضراء : الحال التي تضر ، وفسرهما ابن عباس باليسر والعسر وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ الحابسين والكاتمين له مع القدرة على إمضائه.

والغيظ : أشد أنواع الغضب ، وهو ألم شديد يحدث في النفس عند الاعتداء على حق مادي كالمال والولد ، أو معنوي كالشرف والعرض والكرامة.

الْمُحْسِنِينَ الإحسان : الإنعام والتفضل على الغير على نحو لا مذمة فيه فاحِشَةً الفاحشة : الذنب الكبير والفعل القبيح الذي يتعدى أثره إلى الغير كالزنا والغيبة ونحوهما. وظلم النفس : هو الذنب الذي يقتصر أثره على الفاعل كشرب الخمر ونحوه.

ذَكَرُوا اللَّهَ تذكروا وعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وعظمته وجلاله.

يُصِرُّوا يداوموا ، والمراد شرعا بالإصرار على الذنب : الاستمرار في فعل القبيح دون إقلاع عنه من غير تراجع ولا استغفار ولا توبة وَهُمْ يَعْلَمُونَ أن الذي أتوه معصية.

سبب النزول :

نزول الآية (١٣٠) :

أخرج الفريابي عن مجاهد قال : كانوا يبتاعون إلى الأجل ، فإذا حل الأجل ، زادوا عليهم ، وزادوا في الأجل ، فنزلت : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً.

و أخرج أيضا عن عطاء قال : كانت ثقيف تداين بني النصير ، فإذا جاء الأجل قالوا : نربيكم وتؤخرون عنا ، فنزلت : لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً.

ج ٤ ، ص : ٨٣

نزول الآية (١٣٥) :

قال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت الآية في نبهان التّمّار ، وكنيته أبو مقبل ، أتته امرأة حسناء ، باع منها تمرا ، فضمها إلى نفسه وقبّلها ، ثم ندم على ذلك ، فأتى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وذكر ذلك له ، فنزلت هذه الآية.

المناسبة :

بعد أن حذر اللّه المؤمنين من اتخاذ البطانة من غير المسلمين ، وبيّن أنهم إن يصبروا ويتقوا لا يضرهم كيدهم شيئا ، وذكر مثالا للصبر والتقوى في غزوتي بدر وأحد وما فعله المشركون واليهود ، حذر هنا المسلمين من فحش صفة لازمة لليهود والمشركين وهي الربا ، واستتبع هذا بيان ألوان من الترغيب

والترهيب والإرشادات وثمرة فعل الخير والشر.

التفسير والبيان :

يا أيها المؤمنون ، إياكم أن تأكلوا الربا كما كان الناس يفعلون في الجاهلية ، فهو نهي صريح للمؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافا مضاعفة ، كما كانوا في الجاهلية يقولون : إذا حل أجل الدين : إما أن تقضي وإما أن تربي ، فإن قضاه وإلا زاده في المدة ، وزاده الآخر في قدر الفائدة ، وهكذا كل عام ، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرا مضاعفا.

وضم اللّه تعالى إلى هذا النهي لتأكيد تحريم الربا أمر المؤمنين بالتقوى لعلهم يفلحون في الدنيا والآخرة ، ثم زاد النهي تأكيدا فتوعدهم بالنار ، وحذرهم منها ثم شدد في الأمر بإطاعة اللّه والرسول ، ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات ، والمسارعة إلى نيل القربات.

وقد أوضحت في الجزء الثالث في تفسير آيات الربا (٢٧٥- ٢٧٦ ،

ج ٤ ، ص : ٨٤

٢٧٨- ٢٧٩) من سورة البقرة أن هذه الآية نزلت في المرحلة الثالثة من مراحل تدرج التشريع في تحريم الربا ، وأن قليل الربا ولو ١ وكثيره حرام ، وأن الآيات القرآنية التي في سورة البقرة والتي هي آخر الأحكام نزولا دلت على تحريم نوعي الربا : ربا النسيئة (أي الأجل) وربا الفضل (أي الزيادة الحالية) وأن تحريم الربا بنوعيه إنما هو لمصلحة الأمة ، لما فيه من خطر على الفرد والجماعة ، وأن تحريم ربا الفضل من باب سد الذرائع ، أي حتى لا يكون ذريعة يتذرع به إلى ربا النسيئة ، وأن كل قرض جر نفعا فهو ربا ، سواء كانت المنفعة نقدا أو عينا مادية كثيرة أو قليلة.

وربا الجاهلية أو ربا النسيئة هو ما يسمى اليوم في المصارف الربوية بالربا الفاحش أو الربح المركب أو الفائدة المركبة مع مرور الزمن ، وهو محرم قطعا بنص القرآن الكريم ، وأما التقييد بالأضعاف المضاعفة في الآية فهو قيد لبيان الواقع وتصوير للحالة التي كان عليها الناس في الجاهلية ، وتشنيع عليهم بأن في هذه المعاملة ظلما صارخا واستغلالا واضحا لحاجة المدين. ولا يعني هذا التقييد أصلا أن الربا اليسير حلال ، وأن الحرام هو الربا الفاحش فقط ، فذلك ليس مرادا من الآية ، فالربا قل أو كثر هو حرام وكبيرة من الكبائر ، وليس لهذا القيد أي مفهوم. ولا يبلح الربا بحال إلا للمضطر في حدود الضرورة القصوى ، مثل الإقدام على أكل الميتة ، كأن غلب على ظنه الوقوع في الهلاك جوعا ، أو تعرض للعيش في الشارع بلا مسكن يأوي إليه ، أما الاقتراض بفائدة للتوسع في التجارة أو الصناعة أو الزراعة ، فهو حرام ، إلا إذا كان مهددا بغالب الظن بالإفلاس أو تلف المحصول الزراعي ، فهو حرام ،

إلا إذا كان مهددا بغالب الظن بالإفلاس أو تلف المحصول الزراعي ، ولم يجد أحدا يقرضه القرض الحلال ، فله الاقتراض بفائدة بقدر إنقاذ نفسه من الضائقة المستحكمة لأن الضرورة تقدر بقدرها.

(٨٧/٤)

و مما يبشر بخير في ظاهرة الصحوة الإسلامية الحالية نجاح مؤسسات المصارف

ج ٤ ، ص : ٨٥

و شركات التأمين الإسلامية التي تقوم على أساس عقود المضاربة والمرابحة والضمان وغيرها مما أباحه الفقهاء ، وليس فيه الربا الحرام أو الغرر والمقامرة المحرمان شرعا.

وأكد اللّه تعالى النهي عن الربا بالأمر بتقوى اللّه فيما نهينا عنه من الأمور ، ومنها الربا ، لنحقق لأنفسنا الفوز والفلاح في الدنيا بالتعاون والتراحم المؤديين إلى المحبة ، والمحبة أساس السعادة ، وفي الآخرة بالظفر برضوان اللّه وبالجنة.

وزاد النهي تأكيدا بالتحذير مما يؤدي إلى النار ، ومنه الربا ، تلك النار التي هيأها اللّه للكافرين ومنهم المرابون ، فإذا لم يمتثلوا جانب التقوى واتقاء المعاصي ، صاروا في عداد أهل النار ، روي عن أبي حنيفة رحمه اللّه : إن هذه أخوف آية في القرآن ، حيث أوعد اللّه المؤمنين بالنار المعدّة للكافرين إن لم يتّقوه في اجتناب محارمه. وقد عرفنا في سورة البقرة أن اللّه تعالى أعلن الحرب والعداوة من اللّه ورسوله على أكلة الربا.

ثم شدد تعالى في النهي تشديدا بليغا ، فأمر بإطاعة اللّه ورسوله فيما نهى عنه اللّه ورسوله من أخذ الربا ، كي يرحم الناس في الدنيا بصلاح حالهم ، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالهم.

ثم أمر عز وجل بالمبادرة إلى ما يوجب مغفرة الذنوب ودخول الجنان الواسعة الفسيحة التي أعدها اللّه للمتقين ، وهذا دليل على أن الجنة مخلوقة الآن.

روى الإمام أحمد في مسنده : أن هرقل كتب إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « سبحان اللّه فأين الليل إذا جاء النهار ؟ »

(٨٨/٤)

أي أنه إذا دار الفلك كان النهار في جانب من العالم ، والليل في الجانب الآخر ، فكذا الجنة في ناحية العلو ، والنار في جهة السفل ، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود النار.

ويمكن أن يكون

ج ٤ ، ص : ٨٦

المعنى : أنه لا يلزم إن عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان ، وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء اللّه عز وجل ،

قال ابن كثير :

وهذا أظهر لحديث أبي هريرة عند البزار قال : جاء رجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : أرأيت قوله تعالى : جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ فأين النار ؟

قال : « أ رأيت الليل إذا جاء ، لبس كل شيء ، فأين النهار ؟ » قال : حيث شاء اللّه ، قال : « و كذلك النار تكون حيث شاء اللّه عز وجل » .

هذه أربعة تأكيدات للتّنفير من الرّبا : اتّقوا اللّه ، اتّقوا النّار ، أطيعوا اللّه ، أطيعوا الرّسول. ثمّ رغب تعالى بفعل الخير بعد التّرهيب ، فأمر بالمبادرة إلى فعل الطاعات كالصدقة والصّلة والتّراحم والتّعاون والبعد عن الآثام كالرّبا ونحوه ، وتلك الأعمال الخيرية هي التي تجعل المجتمع الإسلامي متراحما سعيدا مطمئنا لا أحقاد فيه ولا صراعات ولا حسد ولا بغض ولا كراهية بين الفقراء والأغنياء.

ثم ذكر اللّه تعالى أوصاف أهل الجنة ، وهي :

١- الذين ينفقون في السّراء والضراء ، أي في الشدة والرّخاء ، والمنشط والمكره ، والصّحة والمرض ، وفي جميع الأحوال ، كما قال تعالى : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً [البقرة ٢/ ٢٧٤] ، والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة اللّه تعالى والإنفاق في مراضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البرّ ، و

جاء في الحديث عند أحمد والشيخين عن عدي : اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة » .

والأمر بالإنفاق له هدفان :

الأول- أنّ الصدقة عون المحتاج وأخذ بيده إلى طريق الكفاية ، والرّبا استغلال الغني حاجة الفقير ، لذا قال تعالى : وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ، وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، فَأُولئِكَ هُمُ

ج ٤ ، ص : ٨٧

الْمُضْعِفُونَ

[الرّوم ٣٠/ ٣٩] ، وقوله : يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ [البقرة ٢/ ٢٧٦].

الثاني– أنّ الإنفاق في مختلف الأحوال يسرا وعسرا وغيرهما أدلّ على التّقوى ، وأعون على سدّ الحاجات المتكررة ، بنحو تدريجي بطيء ، فلا يكون فيه إرهاق على المنفق ، ولا إهمال للمحتاج حتى يصير في أدنى درجات الحاجة ، والحكمة تقول : « أعط القليل فالحرمان أقل منه » . وحبّ الخير وتذكّر الآخرة هو الذي يحرّك في الإنسان عاطفة الرّحمة ، وداعية البذل لإنفاق القليل الدائم ، فالقليل الدائم خير من الكثير المنقطع ، والقليل إذا اجتمع من الأفراد والجماعات صار كثيرا محققا للمطلوب ، لذا قال اللّه تعالى : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ ، لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً [الطلاق ٦٥/ ٧].

٢– والكاظمين الغيظ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموا ، فلم يعملوه مع القدرة على إمضائه وإنفاذه ، لا عن ضعف وعجز ،

قال عليه الصّلاة والسّلام : « ليس الشديد بالصّرعة ، لكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » « ١ » .

وروى أحمد أيضا أن حارثة بن قدامة السعدي قال : يا رسول اللّه ، أوصني ، قال : « لا تغضب » .

وطريق علاج الغضب

ما رواه أحمد وأبو داود عن عطية بن سعد السعدي قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » .

و

روى عبد الرّزاق عن أبي هريرة أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ، ملأ اللّه جوفه أمنا وإيمانا » .

---

(١) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي اللّه عنه.

ج ٤ ، ص : ٨٨

و أثر عن عائشة رضي اللّه عنها أن خادما لها أغاظها فقالت : للّه درّ التّقوى ، ما تركت لذي غيظ شفاء.

٣– والعافين عن الناس أي الذين يتسامحون ويعفون عمن أساء إليهم مع القدرة على ردّ الاعتداء ، وتلك منزلة ضبط النفس التي تدلّ على سعة العقل ورجاحة الفكر وقوة الإرادة ومتانة الشخصية ، وهي

أرقى من كظم الغيظ ، إذ ربما كظم المرء غيظه على الحقد والضغينة ، وهذا مثل قوله تعالى : وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ [الشورى ٤٢/ ٣٧] ، و

روى الحاكم والطبراني عن أبي بن كعب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « من سرّه أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدّرجات ، فليعف عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه » « ١ » .

و

عن ابن عبّاس رضي اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول : أين العافون عن الناس ؟ هلموا إلى ربّكم ، وخذوا أجوركم ، وحقّ على كلّ امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة » .

وفي هذا إشارة إلى عفو النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن الرّماة الذين خالفوا أمره في غزوة أحد ، وإلى تركه مجازاة المشركين بما فعلوه بحمزة رضي اللّه عنه حين قال- وقد رآه مثّل به كما جاء في السيرة- : « و الذي نفسي بيده لأمثّلنّ بسبعين منهم » .

٤- واللّه يحبّ المحسنين : الذين يقابلون الإساءة بالإحسان ، إما بإيصال النّفع لمن أساء ، وإما بدفع الضّر عنه في الدّنيا بألا يقابل الإساءة بمثلها ، أو في الآخرة بالعفو عماله عند النّاس من الحقوق.

وهذه مرتبة هي أعلى المراتب السابقة.

أخرج البيهقي أنّ جارية لعلي بن الحسين رضي اللّه عنه جعلت تسكب عليه الماء ، ليتهيأ للصّلاة ، فسقط الإبريق من يدها فشجّه ، فرفع رأسه ، فقالت : إن اللّه يقول : وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ فقال لها : قد كظمت غيظي ،

---

(١) قال الحاكم :

---

(١) قال الحاكم : هو صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه.

ج ٤ ، ص : ٨٩

قالت : وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ قال : قد عفا اللّه عنك ، قالت : وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قال : اذهبي فأنت حرّة لوجه اللّه تعالى.

٥- والذين إذا فعلوا فاحشة ، أي ذنبا يتعدّى ضرره إلى الغير كالزّنى والرّبا والسّرقة والغيبة ونحوها ، أو ظلموا أنفسهم أي فعلوا ذنبا يقتصر ضرره عليهم كشرب الخمر ونحوه ، ذكروا وعد اللّه ووعيده ، وعظمته وجلاله ، فرجعوا إليه تائبين مستغفرين لذنوبهم ، طالبين رحمته.

علما- وهذه جملة اعتراضية- بأنه لا يغفر الذنوب إلا اللّه ، ومن فضله وإحسانه وكرمه أنه يعفو عن المسيء ، ويتجاوز عن المذنب مهما عظمت الذنوب ، غير الشرك ، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ [النساء ٤/ ٤٨] ، وقال أيضا : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ [الأعراف ٧/ ١٥٦].

وشرط قبول التوبة : عدم الإصرار على الذّنب ، وهذا قوله : وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أي تابوا من ذنوبهم ، ورجعوا إلى اللّه عن قريب ، ولم يستمرّوا على المعصية ويصرّوا عليها غير مقلعين عنها ، ولو تكرر منهم الذّنب تابوا منه ، كما

قال الحافظ أبو يعلى في مسنده ، فإنه مع أبي داود والترمذي والبزار في مسنده رووا عن أبي بكر رضي اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما أصرّ من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرّة » « ١ » .

و هم يعلمون أن الذي أتوه معصية ، ويذكرون ذنوبهم فيتوبون منها ، وأن من تاب تاب اللّه عليه ، وهذا كقوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ [التوبة ٩/ ١٠٤] ، وقوله : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً [النساء ٤/ ١١٠].

---

(١) حديث حسن. [.....]

ج ٤ ، ص : ٩٠

ثم أبان اللّه تعالى بعد وصف المتّقين بالأوصاف السابقة : أن أولئك المتّقين الموصوفين بهذه الصّفات جزاؤهم مغفرة من ربّهم على ذنوبهم ، وأمن من العقاب ، ولهم ثواب عظيم عند ربّهم في جنّات تجري من تحتها الأنهار ، أي من أنواع المشروبات ، وهم خالدون فيها أي ماكثون فيها ، ونعم هذا الجزاء على تلك الأعمال الصالحة وهو الجنة ، فهو تعالى يمدح الجنة ، وحقّ له المدح ، ففيها النعيم الأبدي المطلق ، وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات (١٣٠- ١٣(٢) على تحريم الرّبا من نواح أربعة : النّهي عنه لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا واتّقاء اللّه في أموال الرّبا فلا تأكلوا ، والوعيد لمن استحلّ الرّبا بالنّار ، ومن استحلّ الرّبا فإنه يكفر ، والأمر بإطاعة اللّه في تحريم الرّبا ، وإطاعة الرّسول فيما بلّغ الناس من التّحريم ، كي يرحمهم اللّه.

قال مجاهد : كانوا يبيعون البيع إلى أجل ، فإذا حلّ الأجل زادوا في الثّمن على أن يؤخّروا ، فأنزل اللّه عزّ وجلّ : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً.

قال القرطبي « ١ » : وإنما خصّ الرّبا هنا من بين سائر المعاصي لأنه الذي أذن اللّه فيه بالحرب في قوله : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [البقرة ٢/ ٢٧٩] ، والحرب يؤذن بالقتل فكأنه يقول : إن لم تتّقوا الرّبا هزمتم وقتلتم ، فأمرهم بترك الرّبا لأنه كان معمولا به عندهم.

ودلّت عبارة أَضْعافاً مُضاعَفَةً المؤكّدة على شنعة فعلهم وقبحه ، ولذلك ذكرت حالة التّضعيف خاصة ، فإنهم كانوا يكرّرون التّضعيف عاما بعد عام.

---

(١) تفسير القرطبي : ٤/ ٢٠٢

ج ٤ ، ص : ٩١

و دلّت آية وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ على أنّ النّار مخلوقة ، ردّا على الجهمية لأنّ المعدوم لا يكون معدّا.

وأرشدت آية وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ إلى وجوب المبادرة إلى ما يوجب المغفرة ، وهي الطاعة ، وقدم المغفرة على الجنّة لأنّ التّخلي مقدم على التّحلي ، فلا يستحقّ دخول الجنّة من لم يتطهّر من الذّنوب أولا.

واختلف العلماء في تأويل قوله : وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ فقال ابن عبّاس : تقرن السّموات والأرض بعضها إلى بعض ، كما تبسط الثياب ، ويوصل بعضها ببعض ، فذلك عرض الجنّة ، ولا يعلم طولها إلا اللّه. وهذا قول الجمهور. ولم تقصد الآية تحديد العرض ، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه. وأشارت آية أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ إلى أن الجنّة مخلوقة موجودة كالنّار ، وهذا قول عامّة العلماء.

ويؤيده نص حديث الإسرار وغيره في الصحيحين وغيرهما ، و

حديث أبي ذر عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما السّموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدراهم ألقيت في فلاة من الأرض ، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض » .

و قالت المعتزلة : إنهما غير مخلوقتين في وقتنا ، وإن اللّه تعالى إذا طوى السّموات والأرض ، ابتدأ خلق الجنّة والنّار حيث شاء لأنهما دار جزاء بالثّواب والعقاب ، فخلقتا بعد التّكليف في وقت الجزاء لئلا تجتمع دار التّكليف ودار الجزاء في الدّنيا كما لم يجتمعا في الآخرة.

ويلاحظ أنه تعالى أمر بالمسارعة إلى عمل الآخرة في آيات كثيرة :

وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ [آل عمران ٣/ ١٣٣] ، سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ [الحديد ٥٧/ ٢١] ، اسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ [البقرة ٢/ ١٤٨] ، فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ [الجمعة ٦٢/ ٩] ، وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ [المطففين ٨٣/ ٢٦] ، وأما السّعي للدّنيا فذكر بها تذكيرا برفق مثل : فَامْشُوا فِي مَناكِبِها

[الملك ٦٧/ ١٥] ، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ [المزمل ٧٣/ ٢٠]. وفي الآية (١٣(٤) صفات المتّقين الأبرار : وهي الإنفاق في الرّخاء والشّدة ، وفي حال الصّحة والمرض وكظم الغيظ وكتمه وردّه في الجوف دون إنفاذ وإمضاء مع القدرة على ذلك ، والغيظ أصل الغضب والفرق بينهما : أن الغيظ لا يظهر على الجوارح (الأعضاء) بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ما ، ولا بدّ أن يظهر ، ولهذا جاء إسناد الغضب إلى اللّه تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم والعفو عن النّاس عند الإساءة ، وكل من استحقّ عقوبة فتركت له ، فقد عفي عنه ، والإحسان بعد الإساءة أعلى المراتب ، والإحسان : أن تحسن وقت الإمكان ، فليس كلّ وقت يمكنك الإحسان. ومعنى قوله : وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ أي يثيبهم على إحسانهم.

وهذه أصول الفضائل وأمّهات مكارم الأخلاق. ثم ذكر اللّه تعالى بقوله :

وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً ... صنفا هم دون الصنف الأول ، فألحقهم به برحمته ومنّه ، وهم التّوابون.

ذكر التّرمذي وقال : حديث حسن ، و

أبو داود الطيالسي في مسنده عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال : حدثني أبو بكر- وصدق أبو بكر- أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « ما من عبد يذنب ذنبا ، ثم يتوضأ ويصلّي ركعتين ، ثم يستغفر اللّه إلا غفر له » ، ثم تلا هذه الآية : وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، ذَكَرُوا اللَّهَ ، فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ... الآية

، والآية الأخرى : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ

[النساء ٤/ ١١٠]. والفاحشة تطلق على كلّ معصية ، وقد كثر اختصاصها بالزّنى ، حتى فسّر جابر بن

عبد اللّه والسّدّي هذه الآية بالزّنى. وذكر اللّه : معناه الخوف من عقابه والحياء منه ، وذكر العرض الأكبر على اللّه ، والتّفكر في النّفس أن اللّه سائل عن الذّنب.

والاستغفار عظيم وثوابه جسيم ، ووقته الأسحار ،

روى التّرمذي عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « من قال : أستغفر اللّه الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم ، فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ٤ ، ص : ٩٣

و أتوب إليه ، غفر له ، وإن كان قد فرّ من الزّحف » .

و

روى مكحول عن أبي هريرة قال : « ما رأيت أكثر استغفارا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم » .

قال علماء المالكية : الاستغفار المطلوب : هو الذي يحلّ عقد الإصرار ، ويثبت معناه في الجنان ، لا التّلفّظ باللسان. فأما من قال بلسانه : أستغفر اللّه ، وقلبه مصرّ على معصيته ، فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار ، وصغيرته لا حقة بالكبائر. قال الحسن البصري : استغفارنا يحتاج إلى استغفار.

وليس أحد يغفر المعصية ، ولا يزيل عقوبتها إلا اللّه تعالى.

(٩٧/٤)

و الباعث على التوبة وحلّ الإصرار : إدامة الفكر في كتاب اللّه العزيز الغفار ، وما ذكره اللّه سبحانه من تفاصيل الجنّة ، ووعد به المطيعين ، وما وصفه من عذاب النار وتهدّد به العاصين ، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه ، فدعا اللّه رغبا ورهبا ، والرّغبة والرّهبة : ثمرة الخوف والرّجاء ، يخاف من العقاب ، ويرجو الثّواب ، واللّه الموفق للصّواب.

وتصحّ التّوبة بعد نقضها بمعاودة الذّنب لأن التّوبة الأولى طاعة وقد انقضت وصحّت ، وهو محتاج بعد مواقعة الذّنب الثّاني إلى توبة أخرى مستأنفة ، والعود إلى الذّنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه أضاف إلى الذّنب نقض التّوبة ، فالعود إلى التّوبة أحسن من ابتدائها لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم ، وأنه لا غافر للذّنوب سواه. ودليل ذلك

ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فيما يحكي عن ربّه عزّ وجلّ قال : « أذنب عبد ذنبا ، فقال : اللهم اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى :

أذنب عبدي ذنبا ، فعلم أنّ له ربّا يغفر الذّنب ، ويأخذ بالذّنب ، ثم عاد فأذنب فقال : أيّ ربّ اغفر لي ذنبي- فذكر مثله مرّتين ، وفي آخره : اعمل ما شئت فقد غفرت لك » .

ومعنى العبارة الأخيرة وهو الأمر : الإكرام ، فيكون من باب قوله : ادْخُلُوها بِسَلامٍ.

ج ٤ ، ص : ٩٤

و دلّت الآية وهذا الحديث على عظيم فائدة الاعتراف بالذّنب والاستغفار منه ، أخرج الشّيخان في صحيحيهما ،

قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى اللّه ، تاب اللّه عليه » .

و

في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « و الذي نفسي بيده لو لم تذنبوا ، لذهب اللّه بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم »

وهذه فائدة اسم اللّه تعالى : الغفار والتّواب.

أنواع الذّنوب : الذّنوب التي يتاب منها : إما كفر أو غيره ، فتوبة الكافر : إيمانه مع ندمه على ما سلف من كفره ، وليس مجرّد الإيمان نفسه توبة.

وغير الكفر إما حقّ اللّه تعالى ، وإما حقّ لغيره.

فحقّ اللّه تعالى يكفي في التّوبة منه التّرك ، لكن مع القضاء كالصّلاة والصّوم ، أو مع الكفارة كالحنث في الأيمان والظهار وغير ذلك.

وأما حقوق الآدميين : فلا بدّ من إيصالها إلى مستحقيها ، فإن لم يوجدوا تصدّق عنهم. فإن كان معسرا فعفو اللّه مأمول وفضله مبذول.

وليس على الإنسان إذا لم يذكر ذنبه ويعلمه : أن يتوب منه بعينه ، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنبا تاب منه.

ودلّ قوله : وَلَمْ يُصِرُّوا على أنّ الإنسان يؤاخذ بما وطّن عليه بضميره ، وعزم عليه بقلبه من المعصية.

وهذا يدلّ على أنّ الهم بالمعصية يؤاخذ عليه إن وطّن نفسه عليها « ١ » . وأما معنى

قوله عليه الصّلاة والسّلام في الحديث الصحيح : « من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة » أي لم يعزم على عملها ، فإن أظهرها أو عزم عليها عوقب عليها. وفي التّنزيل : وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ [الحجّ ٢٢/ ٢٥] عوقبوا قبل فعلهم بعزمهم.

---

(١) تفسير القرطبي : ٤/ ٢١٥

ج ٤ ، ص : ٩٥

و قوله تعالى : أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ .. فيه ترتيب فضل اللّه وكرمه بغفران الذّنوب لمن أخلص في توبته ، ولم يصرّ على ذنبه ، وهذا يشمل من فرّ في غزوة أحد ، ثم تاب ولم يصرّ ، فله مغفرة اللّه.

عاقبة المكذّبين والمتّقين وتوفير العزّة للمؤمنين بالجهاد [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٣٧ الى ١٤١]

(٤/٩٩)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ (١٤١)

الإعراب :

وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ الواو إما للعطف ، أو للحال فيكون المعنى : ولا تضعفوا ولا تحزنوا ، وهذه حالكم.

نُداوِلُها جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الأيام.

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الواو : إما عاطفة على فعل مقدّر ، والتّقدير : لئلا يغترّوا وليعلم اللّه الذين امنوا ، وإما زائدة ، أي ليعلم اللّه. والوجه الأول أوجه.

ج ٤ ، ص : ٩٦

البلاغة :

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ التفات من الحاضر في كلمة نُداوِلُها إلى الغيبة ، لتعظيم شأن الجهاد في سبيل اللّه.

المفردات اللغوية :

قَدْ خَلَتْ مضت سُنَنٌ طرائق في الكفار بإمهالهم ثم أخذهم ، واحدها سنة : وهي الطريقة المعتبرة والسّيرة المتّبعة. وَهُدىً من الضلالة أي تبصير وإرشاد إلى طريق الدّين القويم. وَمَوْعِظَةٌ ما يلين القلب ويدعو إلى التّمسك بالطاعة. وَلا تَهِنُوا تضعفوا عن قتال الكفار ، من الوهن : الضعف في العمل وفي الرّأي وفي الأمر. وَلا تَحْزَنُوا على ما أصابكم بأحد أو غيرها من المعارك من الهزيمة. والحزن : ألم يعرض للنّفس من فقد ما تحبّ. وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ بالغلبة عليهم. إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حقّا.

(٤/١٠٠)

قَرْحٌ جهد من جرح بسلاح ونحوه. الْأَيَّامُ المراد هنا أزمنة الفوز والظّفر ، واحدها يوم : وهو الزمن المعروف من الليل والنهار. نُداوِلُها نصرّفها بين النّاس ، يوما لهؤلاء ويوما لآخرين ، ليتّعظوا ، كما وقع في يومي بدر وأحد.

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ أي ليظهر اللّه علمه. الَّذِينَ آمَنُوا أخلصوا في إيمانهم من غيرهم.
شُهَداءَ واحدهم شهيد : وهو قتيل المعركة. وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ أي يعاقب الكافرين ، وأما ما ينعم به عليهم فهو استدراج.
وَلِيُمَحِّصَ يطهرهم من الذّنوب ويخلّصهم من العيوب بما يصيبهم. وَيَمْحَقَ يهلك وينقص.
سبب النزول :
نزول الآية (١٣٩) :
وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا : قال ابن عباس : انهزم أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم أحد ، فبينما هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل ،
فقال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « اللهم لا يعلونّ علينا ، اللهم لا قوّة لنا إلا بك ، اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النّفر »
فأنزل اللّه تعالى هذه
ج ٤ ، ص : ٩٧
الآيات ، وثاب نفر من المسلمين رماة ، فصعدوا الجبل ، ورموا خيل المشركين حتى هزموهم ، فذلك قوله : وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ « ١ » .
سبب نزول أوّل الآية : إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ :
قال راشد بن سعد : لما انصرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كئيبا حزينا يوم أحد ، جعلت المرأة تجيء بزوجها وابنها مقتولين ، وهي تلدم ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أهكذا يفعل برسولك ؟ فأنزل اللّه تعالى : إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ الآية « ٢ » .
نزول آخر الآية (١٤٠) :
وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ :
أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما أبطأ على النّساء الخبر ، خرجن ليستخبرن ، فإذا رجلان مقبلان على بعير ، فقالت امرأة :

ما فعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ؟ قالا : حيّ ، قالت : فلا أبالي يتّخذ اللّه من عباده الشهداء ، ونزل القرآن على ما قالت : وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ.
المناسبة :
إنّ ما حدث في وقعتي بدر وأحد ، وجزاء المؤمنين والكافرين هو سنة اللّه في الخلق مع بيان الحكمة

في النصر والانهزام ، فالحق لا بدّ أن ينتصر على الباطل مهما طال أمد وجوده ، وقد جرى ذلك على أتباع الأنبياء السابقين ، كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ، كما وعد اللّه رسله : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ [الصافات ٣٧/ ١٧١- ١٧٣] ، وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ [الأنبياء ٢١/ ١٠٥].

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٧١ ، لكن هذه الرّواية غير مخرجة ، ويظهر منها الضعف.

(٢) المصدر السابق. واللّدم : صوت الحجر أو الشيء يقع بالأرض ، وليس بالصوت الشديد.

التّفسير والبيان :

إن مشيئة اللّه تسير على نظم ثابتة وسنن حكيمة ، ترتبط فيها الأسباب بالمسببات ، والمقدّمات بالنتائج ، وإن كان اللّه قادرا على كلّ شيء ، وتلك السّنة في الماضين واللاحقين هي أن من سار على منهاج الطائعين المؤمنين الموفقين ، حظي بالسعادة والنّصر والفلاح ، ومن سار في طريق العصاة المكذّبين ، كانت عاقبته خسرا ودمارا وهلاكا.

ففي أحوال السّلم إن سار المرء على الأصول المطلوبة والنّظم العلمية والخبرات المعروفة في شؤون الزراعة والصّناعة والتّجارة وغيرها ، نجح وظفر بمراده ، وإن كان ملحدا أو وثنيّا أو مجوسيّا. وإن جانب المعقول ، وخرج عن المألوف ، كان من الخاسرين ، وإن كان صالحا تقيّا.

و في أحوال الحرب إن أعدّ القائد العدّة المناسبة في كلّ عصر لقتال العدوّ ، كما قال تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ... [الأنفال ٨/ ٦٠] ودرّب الجيش على فنون الحرب تدريبا صحيحا عاليا ، تحقق النصر والغلبة ، وإن أهمل الإعداد والتّدريب ، أدركته الهزيمة.

ومن سار في الأرض ، وتعقب أحوال الأمم ، وتدبّر التاريخ وعرف الأخبار ، يجد مصداق تلك السّنة الإلهية الثابتة وهي الفوز لمن أحسن ، والخيبة لمن أساء.

وفي هذا تنبيه لمن أساء وخالف أمر النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم في أحد ، وتذكير بأنّ النّصر يوم بدر كان بسبب الثبات وصدق اللقاء وإطاعة اللّه والرّسول وحسن التّوكل على اللّه والثقة بقدرته ورحمته وفضله.

وهذا كلّه في القرآن بيان صريح للنّاس جميعا ، وهداية وموعظة للمتّقين

منهم خاصة ، لأنهم المنتفعون بهدي القرآن : ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [البقرة ٢/ ٢] ، تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ ، هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ [لقمان ٣١/ ٢- ٣] ، إنه بيان الأمور على نحو واضح ، وكيف كان الأقدمون مع أعدائهم ، وهو زاجر عن المحارم والمخالفات.

وذلك يدحض قول المشركين والمنافقين : « لو كان محمد رسولا حقّا لما غلب في وقعة أحد » مما يتبين أن سنن اللّه حاكمة على الأنبياء والرّسل وسائر الخلق ، فما من قائد لا يطيعه جنوده ويخالفون أوامره ، إلا كان جيشه عرضة للهزيمة.

وإذا عرف المؤمنون هذه الحقيقة فيجب عليهم ألا يضعفوا عن القتال بسبب ما جرى في أحد ، وما يجري من مسّ السّلاح ، ولا يحزنوا على ما أصابهم من قتل في أحد ، فالقتيل شهيد مكرم عند اللّه يوم القيامة ، وتلك الموقعة درس وتربية وتعليم للمسلمين ، لذا

قال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « لو خيّرت بين الهزيمة والنّصر يوم أحد لاخترت الهزيمة » .

(١٠٣/٤)

و ليس لكم أن تضعفوا وتحزنوا ، وأنتم الأعلون ، والعاقبة والنصر لكم أيها المؤمنون ، بمقتضى سنّة اللّه في جعل العاقبة للمتّقين ، وقتلاهم في الجنّة ، وقتلى الكافرين في النّار. والمراد بالنّهي عن الوهن والحزن : النّهي عن الاستسلام ، والعودة إلى التّأهّب والاستعداد ، مع صدق العزيمة ، وقوّة الإرادة ، وحسن الظّن باللّه ، والتّوكّل عليه والثّقة بالنّصر.

وكيف تضعفون بسبب الآلام والجراح والقتل ، فإن كنتم قد أصابتكم جراح ، وقتل منكم طائفة في أحد ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ، بل وتعرّضوا لألم أكثر في بدر ، فإن هزمتم في أحد ، فقد انتصرتم في بدر ، والأيّام دول ، والحرب سجال ، ويوم لكم ويوم عليكم ، وذلك كلّه لحكمة ، فنجعل للباطل دولة في يوم ، وللحقّ دولة في أيّام ، والعاقبة والنّصر في النهاية

ج ٤ ، ص : ١٠٠

للمتّقين المخلصين. جاء في السّيرة أنّ أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد ، فمكث ساعة ، ثم قال : أين ابن أبي كبشة ؟ يعني محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأبو كبشة زوج حليمة السعدية ، وهو أبوه من الرّضاع ، أين ابن أبي قحافة ؟ - أي أبو بكر- أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهذا أبو بكر ، وها أنا ذا عمر ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم ، والأيّام دول ، والحرب سجال. فقال عمر رضي اللّه عنه : لا سواء ، قتلانا في الجنّة ، وقتلاكم في النّار ، فقال : إنكم تزعمون ذلك ، فقد خبنا إذن وخسرنا « ١ » .

إن تقلّب الأحوال بين الدّول ليظهر العدل ويستقرّ النظام ، ويعلم الناظر في السّنن العامة ، وليظهر اللّه

علمه بتحقق إيمان المؤمنين ، وانكشاف الصابرين على مناجزة الأعداء ، كقوله : لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [الأنفال ٨/ ٣٧] أي ليعلم الناس الفرق بينهما ويميزوه ، ولذا

قال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد موقعة أحد لمطاردة المشركين : « لا يذهب معنا في القتال- أي في غزوة حمراء الأسد- إلا من قاتل »

فذهب المؤمنون الصّادقون بالرّغم من تعبهم وعنائهم. وقد فسّرنا : وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ بأن يظهر اللّه علمه بذلك للناس بما يعلم به ، إذ علم اللّه بالأشياء ثابت في الأزل ، فما يقع يكون مطابقا لعلم اللّه السابق في الأزل ، وعلم اللّه لا يكون إلا مطابقا للواقع ، فما لا يعلمه اللّه تعالى لا يكون له حقيقة ثابتة.

وليعدّ اللّه أناسا للشهادة في سبيل اللّه ، فيقتلون في سبيله ويبذلون أرواحهم في مرضاته ، فقد فات بعض المؤمنين الاستشهاد يوم بدر ، فتمنوا لقاء العدو ، ليحظوا بمرتبة الشهادة. وقد كرّم اللّه الشهداء بالحياة البرزخية ، وبالدرجة الموازية للأنبياء ، فقال : وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً ، بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ [آل عمران ٣/ ١٦٩] ، وقال : فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ [النساء ٤/ ٦٩].

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٤١٢ ، تفسير القرطبي : ٤/ ٢٣٤

ج ٤ ، ص : ١٠١

و بصدد ذلك ذكر أضداد الشّهداء تنويها بإخلاصهم ، فقال تعالى : واللّه يعاقب الظالمين الكافرين ، بسبب ظلمهم أنفسهم وفسادهم في الأرض ، وبغيهم على الناس ، ويعجل زوال دولتهم وسلطتهم ، لأن الظلم لا بقاء له.

ثم أكّد اللّه تعالى أنّ المعارك مجالات كشف وإبراز وتطهير ، ففيها يتميّز المؤمنون الصادقون عن المنافقين ، وبها عرف صدق الإيمان وصلابة العزيمة والثبات عند الابتلاء ، كما قال تعالى : وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [آل عمران ٣/ ١٤٣] ، ففي غزوة أحد تراجع المنافقون ولا ذوا بالفرار ، بل إن بعض المؤمنين في أثناء المعركة هرب ، وثبت الآخرون حول النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فتبيّن أن تمنيات اللقاء مع العدو مجرد آمال لا قرار ولا ثبات لها ، و

قد ثبت في الصحيحين : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا اللّه العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السّيوف » .

ومن فوائد المعارك أيضا تبيان حال الكفار ، فهم إن ظفروا كما في أحد بغوا وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم ، فلا بقاء ولا استمرار لهم ، ولا ثبات لأحوالهم أمام المؤمنين الصادقين. وإذا هزموا كما في بدر عاجلهم اللّه بالدّمار والفناء ، والعاقبة للمتّقين.

وقد وردت آيات كثيرة في معنى هذه الآيات منها : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا ... [البقرة ٢/ ٢١٤] ، ومنها : الم ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ [العنكبوت ٢٩/ ١- ٢] ، ومنها الآية التالية : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ ، وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران ٣/ ١٤٢].

ج ٤ ، ص : ١٠٢

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع هذه الآيات بتعبير العصر : تقوية الرّوح المعنوية للمؤمنين ، وجعلها عالية سامية لا تتأثر ولا تهتز بأحداث المعارك والقتال. وفي تعبير المفسّرين : هذا تسلية من اللّه تعالى للمؤمنين.

وهي تذكرهم بسنّة اللّه الدّائمة في الكون ، وهي ارتباط الأسباب بالمسببات ، مع الإيمان بالقدرة المطلقة للّه في إيجاد ما يشاء ، إنها تذكير بهلاك من كذب قبلنا أنبياءهم كعاد وثمود ، والعاقبة أي آخر الأمر للمؤمنين ، فإن انتصر المشركون يوم أحد ، فهذا إمهال واستدراج ، وسيكتب النّصر النهائي للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين ، وسيهلك أعداؤهم الكافرون.

ثمّ عزّى اللّه المؤمنين وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح ، وحثّهم على قتال عدوّهم ، ونهاهم عن العجز والفشل والقعود عن جهاد الأعداء ، فإن الهزيمة أو المصيبة تذكر بضرورة تصحيح الأخطاء ، وتهيئ لدراسة عميقة لمستقبل الأحداث ، وتخطط لمعارك كثيرة ، يكون الماضي خير درس وعبرة فيها ، وعندئذ تكون العاقبة بالنصر والظفر للمؤمنين إذا أحسنوا الإعداد ، واستفادوا من أخطاء الماضي.

وتحقق وعد اللّه للمؤمنين بأنهم الأعلون أي الغالبون على الأعداء بعد أحد ، فكان النّصر والظّفر في المعارك المتوالية ، في عهد النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وفي عهد الصحابة من بعده أيضا. وهذا دليل على فضل هذه الأمّة : لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه ، فقال لموسى عليه السّلام : إِنَّكَ أَنْتَ

الْأَعْلى [طه ٢٠/ ٦٨] ، وقال لهذه الأمّة : وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ.
وتداول الأيام بين الناس في الحرب ، فيكون النّصر مرّة للمؤمنين لنصر اللّه عزّ وجلّ ، ومرّة للكافرين إذا عصى المؤمنون ، إنما هو ليرى المؤمن من المنافق ،
ج ٤ ، ص : ١٠٣

(١٠٧/٤)

فيميز بعضهم من بعض ، كما قال تعالى : وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ ، فَبِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا [آل عمران ٣/ ١٦٦].
ومن فوائد المداولة : إكرام قوم بالشّهادة ، فيقتلون ، فيكونون شهداء على النّاس بأعمالهم ، وليصيروا مشهودا لهم بالجنّة ، وللشهادة فضل عظيم ، كما قال تعالى :
إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ .. [التوبة ٩/ ١١١] ، وقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ إلى قوله : ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [الصّف ٦١/ ١٠- ١٢]. و
في صحيح البستي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من القرحة » .
ودلّ قوله : وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ على أن الإرادة غير الأمر ، كما يقول أهل السّنة ، فإن اللّه تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين : حمزة وأصحابه ، وأراد قتلهم ، ونهى آدم عن أكل الشجرة ، وأراده ، فواقعه آدم ، وعكسه أنه أمر إبليس بالسجود ولم يرده ، فامتنع منه ، وأشار تعالى لذلك : وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ [التوبة ٩/ ٤٦]. وأمر تعالى الجميع بالجهاد ، ولكنه خلق الكسل والأسباب القاطعة عن المسير ، فقعدوا.
ودلّ قوله : وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ أي المشركين على أنه تعالى وإن حقق نصر الكفار على المؤمنين مرة ، فهو لا يحبّهم ويعاقبهم ، وإن أوقع ألما بالمؤمنين فإنه يحبّهم ويثيبهم.

(١٠٨/٤)

و تتلخّص نتيجة المداولة بين المؤمنين والكفار في الحروب : أن اللّه شرع اللقاء ليبتلي المؤمنين ويثيبهم ويخلصهم من ذنوبهم ، ويستأصل الكافرين بالهلاك.
ج ٤ ، ص : ١٠٤

و للجنة ثمن وبدل ثمين ، فهل حسبتم يا من انهزموا يوم أحد أن تدخلوا الجنّة ، كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل ، من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم ؟ ! لا.

عتاب لبعض أهل أحد بقدسية الجهاد وضرورة الثبات على المبدأ وتذكير بأن الموت بإذن اللّه [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٨]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)

وَ ما كانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (١٤٧) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

ج ٤ ، ص : ١٠٥

الإعراب :

أَمْ حَسِبْتُمْ أم هاهنا المنقطعة ، لأنها ليس قبلها همزة. وَلَمَّا حرف لنفي ما قرب من الحال. يَعْلَمِ مجزوم بلما ، وكسرت لالتقاء الساكنين ، ويَعْلَمِ : هاهنا بمعنى يعرف ، ولهذا تعدّت إلى مفعول واحد وهو الذين. وَيَعْلَمَ منصوب بتقدير أن ، أي لم يجتمع العلم بالمجاهدين والصابرين. أَنْ تَلْقَوْهُ في موضع بإضافة قَبْلِ إليه ، والهاء تعود على الموت ، وكذا هاء :

رَأَيْتُمُوهُ أي رأيتم أسبابه ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

أَنْ تَمُوتَ أن وصلتها في تأويل مصدر في موضع رفع اسم كان. إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ خبر كان. كِتاباً مُؤَجَّلًا منصوب على المصدر. نُؤْتِهِ مِنْها قرئ بالإشباع وهو أحسن من الاختلاس والإسكان ، لأنه الأصل ، ثم الاختلاس ثم الإسكان وهو أضعفها. وَكَأَيِّنْ بمنزلة « كم » في الدّلالة على العدد الكثير ، وأصلها « أي » أدخلت عليها كاف التّشبيه. رِبِّيُّونَ فاعل مرفوع لقاتل ، والجملة في موضع جر صفة لنبيّ. وخبر كَأَيِّنْ مقدر ، وتقديره : في الدّنيا ، أو في الوجود وما أشبه ذلك.

البلاغة :

فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ يعني الموت ، شاهدتموه ، فيه ما يسمى بالتخييل : وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس

كالمحسوس ، كما تتخيّل الشاة صداقة الكبش ، وعداوة الذئب.
وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قصر موصوف على صفة.
انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ استعارة ، شبّه سبحانه الرّجوع عن الدّين في الارتياب بالرّجوع على الأعقاب.
المفردات اللغوية :

أَمْ بل. وَلَمَّا لم ، لكن لنفي قريب الحصول. يَعْلَمِ علم ظهور.
جاهَدُوا الجهاد : تحمّل المشاق ومكافحة الشدائد ، وهو يشمل جهاد النفس (الجهاد الأكبر) وجهاد الأعداء بالنفس دفاعا عن الدّين وأهله وإعلاء كلمته (الجهاد الأصغر) ، والجهاد بالمال للدّين والأمة ، ومجاهدة الباطل ونصرة الحق.
ج ٤ ، ص : ١٠٦
تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ أي تتمنون الشهادة في سبيل اللّه. تَلْقَوْهُ تشاهدوا أهواله وتروا مخاطره. رَأَيْتُمُوهُ رأيتم أسباب الموت من لقاء الشجعان ومصاولة الفرسان. وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ تتأملون وتبصرون الحال كيف هي ، فلم انهزمتم. ونزل في هزيمتهم لما أشيع أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قتل ، وقال لهم المنافقون : إن كان قتل فارجعوا إلى دينكم.
انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ أصل معناه : رجعتم إلى الوراء ، والمراد هنا رجعتم كفارا بعد إيمانكم.
وهذه الجملة استفهام إنكاري ، أي ما كان محمد معبودا فترجعوا إلى الكفر.
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ بقضائه. كِتاباً مصدر أي كتب اللّه ذلك. مُؤَجَّلًا ذا أجل مؤقت لا يتقدم ولا يتأخر ، والأجل : المدّة المضروبة للشي ء.
وَكَأَيِّنْ كلمة بمعنى كم ، تفيد كثرة ما دخلت عليه. رِبِّيُّونَ جماعات كثيرة ، واحدهم ربّي : وهو الجماعة.
فَما وَهَنُوا وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وهنوا : ضعفوا وجبنوا ، والوهن : ضعف يصيب القلب ، والضعف : اختلال قوة الجسم ، والاستكانة : الاستسلام والخضوع للعدو ليفعل ما يريد.
وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ يثيبهم ، والصبر : احتمال الشدائد وتحمل المكاره. وَإِسْرافَنا الإسراف : تجاوز الحدّ في كلّ شيء ، كما قال تعالى : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا [الأعراف ٧/ ٣١].
وَثَبِّتْ أَقْدامَنا بتقوية قلوبنا على الجهاد وإزالة الوساوس من صدورنا.
سبب النزول :
نزول الآية (١٤٤)(٣) :

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس : أنّ رجالا من الصحابة ، كانوا يقولون : ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ، أو ليت لنا يوما كيوم بدر ، نقاتل فيه المشركين ، ونبلي فيه خيرا ، أو نلتمس الشهادة والجنة ، أو الحياة والرزق ، فأشهدهم اللّه أحدا ، فلم يلبثوا إلا من شاء منهم ، فأنزل اللّه : وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ الآية.

ج ٤ ، ص : ١٠٧

نزول الآية (١٤٤) :

أخرج ابن المنذر عن عمر ، قال : تفرقنا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم أحد ، فصعدت الجبل ، فسمعت اليهود تقول : قتل محمد ، فقلت : لا أسمع أحدا يقول :

قتل محمد إلا ضربت عنقه ، فنظرت فإذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، والناس يتراجعون ، فنزلت هذه الآية : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الرّبيع قال : لما أصابهم يوم أحد ما أصابهم من القرح ، وتداعوا نبي اللّه ، قالوا : قد قتل ، فقال أناس : لو كان نبيّا ما قتل ، وقال أناس : قاتلوا على ما قاتل عليه نبيّكم حتى يفتح اللّه عليكم أو تلحقوا به ، فأنزل اللّه : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ الآية.

وقال عطية العوفي : لما كان يوم أحد ، انهزم الناس ، فقال بعض الناس :

قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم ، فإنما هم إخوانكم وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ، ألا ما تمضون على ما مضى عليه نبيّكم ، حتى تلحقوا به ، فأنزل اللّه تعالى في ذلك : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ .. الآية.

وأخرج ابن راهويه في مسنده عن الزّهري : أنّ الشيطان صاح يوم أحد ، إن محمدا قد قتل ، قال كعب بن مالك : وأنا أول من عرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، رأيت عينيه من تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي : هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأنزل اللّه : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ الآية.

المناسبة :

ما يزال الكلام عن أهل غزوة أحد ، ففي الآيات السابقة إرشاد إلى أنه لا ينبغي لهم أن يحزنوا أو يضعفوا ، وأنّ ما أصابهم من المحنة والبلاء ، جاء على سنّة اللّه الثابتة في المداولة بين الناس ، ولتمحيص أهل الحق والإيمان ، وكان فيها

ج ٤ ، ص : ١٠٨

تقوية معنوية وتسلية للمؤمنين كي يتربّوا على حبّ الجهاد والتّحلي بالصفات التي ينالون بها النصر.
وهذه الآيات تبيّن أن طريق السعادة في الآخرة بالجهاد والصّبر ، وفي الدّنيا بالثبات على المبدأ والالتفاف حول النّبي في المعركة ، والتضحية والإحسان ، وملازمة الحق والعدل والإنصاف.
التفسير والبيان :
هل ظننتم دخول الجنة وأنتم لم تجاهدوا في سبيل اللّه ، ولم تصبروا في القتال ؟ لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا وتختبروا ، ويرى اللّه منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء.
وهذا مثل قوله تعالى :
الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا ، وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ [العنكبوت ٢٩/ ١- ٢].
ويلاحظ أن أَمْ منقطعة بمعنى بل ، ومعنى الهمزة فيها الإنكار.
وللجهاد أنواع : جهاد النفس والهوى والشيطان ، وخاصة في عهد الشباب ، وجهاد العدوّ بالنفس لإعلاء كلمة اللّه والدّفاع عن البلاد والأوطان ، والجهاد بالمال في سبيل الدّين والأمّة والمصلحة العامة ، وجهاد الباطل ومدافعته ونصرة الحق.
والصبر مطلوب عند أداء التكاليف الشرعية الدائمة والمؤقتة ، وطاعة اللّه والرّسول ، وفي وقت البلاء والشدة والمحنة ، وعند مقاومة الأعداء.
والمراد بنفي العلم من اللّه عدم ظهوره ووقوعه ، فهو دليل على عدم وقوع الجهاد والصبر منكم ، أما في الحقيقة فاللّه يعلم ذلك منذ الأزل ، ولكن المراد إقامة الدّليل والبرهان على الناس بصدور ما يوجب لهم الجنة والمغفرة.

(١١٣/٤)

ثم خاطب اللّه بعض المؤمنين الذين لم يشهدوا بدرا ، وكانوا يتمنون أن
ج ٤ ، ص : ١٠٩
يحضروا مشهدا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر ، وهم الذين ألحوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في الخروج إلى المشركين ، وكان رأيه في الإقامة بالمدينة. فقال اللّه لهم : قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو ، وتحترقون عليه ، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه ، فدونكم فقاتلوا وصابروا. فلما كان يوم أحد ولّى جماعة منهم ، فعاتبهم اللّه على ذلك. روي عن الحسن البصري أنه قال : بلغني أنّ رجالا من أصحاب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم كانوا يقولون :
لئن لقينا مع النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم لنفعلنّ ولنفعلنّ ، فابتلوا بذلك ، فلا واللّه ، ما كلّهم صدق ،

فأنزل اللّه عزّ وجلّ : وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ.

وتمني الموت : معناه تمني الشهادة في سبيل اللّه. ولقد تمنى الشهادة جماعة لم يشهدوا بدرا ، حتى إذا دارت معركة القتال مع الأعداء في أحد ، وشهدوا أسباب الموت من اشتباك الرّماح ، وظهور الأسنة ، واصطفاف الرجال للقتال ، جبنوا وضعفوا ، وتركوا رسول اللّه يتلقى السهام ، وهو يدعوهم إلى الوقوف بجانبه ، ويدعوهم إلى عبادة اللّه ، وصدق اللقاء والثبات.

فمعنى قوله : فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ أي رأيتم الموت ، أي أسبابه ، معاينين مشاهدين له ، حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم ، وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخ لهم على تمنيهم الموت ، وعلى ما تسببوا له من خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، بإلحاحهم عليه ، ثم انهزامهم عنه ، وقلة ثباتهم عنده.

(٤/١١٤)

و لما انهزم المسلمون يوم أحد ، وقتل من قتل منهم ، نادى الشيطان : ألا إن محمدا قد قتل ، ورجع ابن قميئة إلى المشركين ، فقال لهم : قتلت محمدا ، وإنما كان ضرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فشجه في رأسه ، فظنّ الكثيرون أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قد قتل ، فأنزل اللّه : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ الآية ، أي

ج ٤ ، ص : ١١٠

له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه ، فقد توفي موسى وعيسى عليهما السّلام ، وقتل زكريا ويحيى عليهما السّلام ، ومع هذا ظلّت ديانتهم كما هي ، وأتباعهم متمسكون بها ، فعليكم الثبات على الدين والمبدأ كما كنتم ولو مات أو قتل ، فالرّسول بشر كسائر الأنبياء ، له مهمة تنتهي بانتهاء أجله ، فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد اللّه ، فإن اللّه حيّ باق لا يموت.

ثم أنكر اللّه تعالى على من حصل له ضعف بأن من يرجع عن دينه والجهاد في سبيل اللّه ومقاومة الأعداء ، فلن يضرّ اللّه شيئا بما فعل ، بل يضرّ نفسه.

وسيجزي اللّه الشاكرين نعمه الذين قاموا بطاعته ، وقاتلوا عن دينه ، واتّبعوا رسوله حيّا وميّتا بأن يمنحهم من فضله ورحمته في الدّنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم. وكانت هذه تمهيدا لموت النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتذكيرا لأمثال عمر رضي اللّه عنه. وهذا يعني أن المصائب التي تحلّ بالإنسان لا مدخل لها في كونه على حق أو باطل.

(٤/١١٥)

قال أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك في ساعة اشتداد الأزمة على المسلمين في أحد ، وحين شاع بين الناس أنّ النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد قتل ، وظهر على لسان بعض ضعفاء المؤمنين : ليت لنا رسولا إلى عبد اللّه بن أبيّ ، فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان ، وقال بعض المنافقين : إن كان محمد قد قتل ، فالحقوا بدينكم الأول ، قال : « إن كان محمد قد قتل ، فإن ربّ محمد لم يقتل ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ؟

فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه » .

ثم قال : « اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء » ، ثم شدّ بسيفه ، فقاتل حتى قتل رضي اللّه عنه « ١ » .

وقال البخاري : عن أبي سلمة أن عائشة رضي اللّه عنها أخبرته : أنّ أبا بكر

---

(١) تفسير القرطبي : ٤/ ٢٢١ ، تفسير ابن كثير : ١/ ٤١٣

ج ٤ ، ص : ١١١

رضي اللّه عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسّنح « ١ » ، حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلّم الناس حتى دخل على عائشة ،

فتيمم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم

، وهو مغطّى (مغشى) بثوب حبرة (برد يمان) ، فكشف عن وجهه ، ثم أكبّ عليه وقبّله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، واللّه لا يجمع اللّه عليك موتتين : أما الموتة التي كتبت عليك فقد متّها.

(١١٦/٤)

و قال الزّهري : وحدثني أبو سلمة عن ابن عبّاس أن أبا بكر خرج ، وعمر يكلّم الناس ، وقال : اجلس يا عمر ، قال أبو بكر : أما بعد ، من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد اللّه ، فإنّ اللّه حيّ لا يموت ، قال اللّه تعالى : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ- إلى قوله- وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ قال : فو اللّه لكأن الناس لم يعلموا أن اللّه أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلّهم ، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها.

وروى ابن ماجه عن عائشة مثل ذلك « ٢ » .

وقال الزّهري أيضا : وأخبرني سعيد بن المسيّب أن عمر قال : واللّه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعرقت حتى ما تقلني رجالي ، وحتى هويت إلى الأرض.

وقال أبو القاسم الطبري بسنده- فيما حدثوا به- عن ابن عبّاس : أنّ عليّا كان يقول في حياة رسول

اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ : واللّه لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا اللّه ، واللّه لئن مات أو قتل ، لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت ، واللّه إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه ، فمن أحق به منّي « ٣ » ؟

---

(١) موضع بعوالي المدينة ، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج ، بينهما وبين منزل النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ميل.

(٢) تفسير القرطبي : ٤/ ٢٢٢- ٢٢٣

(٣) تفسير ابن كثير : ١/ ٤٠٩- ٤١٠

ج ٤ ، ص : ١١٢

ثم أخبر تعالى أنه لا يموت أحد إلا بقدر اللّه ، وحتى يستوفي المدة التي حددها اللّه له ، ولذا قال : كِتاباً مُؤَجَّلًا أي أثبته اللّه مقرونا بأجل معين ، ومؤقتا بوقت لا يتقدم ولا يتأخر ، فقد يظل الشجاع الذي تعرض لأهوال الحرب حيّا ، ويموت الجبان الذي تخبأ في مأواه. وهذا مثل قوله تعالى : وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ [فاطر ٣٥/ ١١] ، وقوله : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ قَضى أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ [الأنعام ٦/ ٢] ، وقوله : فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ [النحل ١٦/ ٦١].

فالأعمار محدودة ، والآجال محتومة ، والأقدار هي الحاكمة ، واللّه وحده هو المتصرف في كل شيء ، فيأذن بقبض كل نفس على وفق علمه دون تأخير ولا تقديم ، سواء في الحرب أو في السلم.

وفي هذه الآية تشجيع للجبناء ، وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه ، فكيف يسوغ الجبن والضعف ما دام العمر بيد اللّه ، وانقضاؤه بمشيئة اللّه ؟

ثم بيّن اللّه تعالى غاية البشر : وهي إما إرادة الدّنيا ، وإما إرادة الآخرة.

فمن قصد بعمله التوصل للدّنيا فقط ، ناله منها ما قدره اللّه له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه اللّه من ثوابها وما قسم له من الدّنيا ، كما قال تعالى : مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها ، وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ

[الشورى ٤٢/ ٢٠] ، وقال تعالى : مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً. وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً [الإسراء ١٧/ ١٨- ١٩] ، وآخر هذه الآية يطابق ما هاهنا : وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ أي سنعطيهم من

ج ٤ ، ص : ١١٣

فضلنا ورحمتنا في الدّنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم ، ونؤتيهم الثواب الأبدي على ترك الانهزام.

أما أنتم يا من قصدتم الدنيا وهرعتم لجمع الغنائم وخالفتم أمر نبيكم وقائدكم في أحد ، بإمكانكم الحصول على الدنيا ، ولكنكم ضيعتم ما يدعوكم إليه نبيكم وهو الدنيا والآخرة. ففي الآية تعريض بهؤلاء الذين شغلتهم الغنائم يوم أحد ، وفيها إشارة بقوله يُرِدْ إلى أن الإرادة الشخصية هي التي تحدد طبيعة العمل من خير أو شر ، وهذا مطابق

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما يرويه الشيخان عن عمر : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

ثم قال اللّه تعالى مسليا المؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ ... أي أن كثيرا من الأنبياء قاتلوا في سبيل اللّه ، وقاتل معهم كثير من أصحابهم الذين آمنوا بهم لإعلاء كلمة اللّه ، وكانوا هداة معلمين فما ضعفوا بعد ما قتلوا وقتل نبيهم ، ولا وهنت عزائمهم عن الجهاد بعدئذ ، ولا استسلموا للأعداء ، ولا خضعوا للدنيا ومتاعها ، ولا ولّوا الأدبار ، بل ثبتوا وصبروا بعد قتل نبيهم ، كما ثبتوا في حال الحياة ، واللّه يحب الصابرين الذين صبروا وصابروا ورابطوا واتقوا اللّه ، فهو يديهم ويرشدهم ويثيبهم أجزل الثواب ، وهذه نبذة من مفاخر أفعالهم ، وتعريض بما أصاب المسلمين من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا الأمان من أبي سفيان.

أما محاسن أقوالهم أي الربيين فهي أنهم قالوا عند نزول الكارثة : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واستر عيوبنا وتجاوزنا أمرك ، وثبّت أقدامنا في مواطن الحرب ولقاء العدو ، وانصرنا على القوم الكافرين.

وطلبهم المغفرة من الذنوب وغيرها مع كونهم ربانيين إشعار لأنفسهم

ج ٤ ، ص : ١١٤

بالتقصير ، وكان دعاؤهم بالاستغفار مقدما على طلب تثبيت الأقدام في أثناء المعركة ، بقصد جعل طلبهم إلى ربهم عن تزكية نفس وطهارة وخضوع أقرب إلى الاستجابة.

فآتاهم اللّه ثواب الدنيا بالنصر والظفر على الأعداء والعزة وطيب السمعة ، وحسن ثواب الآخرة بتحصيلهم رضوان اللّه ورحمته والقرب منه في دار الكرامة ، ونحو ذلك مما أخبر به تعالى : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [السجدة ٣٢/ ١٧] و

أخبر به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

(١٢٠/٤)

ثم وصفهم اللّه بأنهم محسنون أعمالهم على وفق ما يرضي اللّه ، فهم الذين يقيمون سننه في أرضه ، واللّه يثيبهم على حسن فعلهم.

وإنما جمع لهم بين الثوابين لأنهم مؤمنون عملوا الصالحات وأرادوا تحقيق سعادتي الدنيا والآخرة ، كشأن المؤمن الصالح : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ [البقرة ٢/ ٢٠١].

وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المعتد به عند اللّه تعالى.

ورتبت أوصافهم بالتوفيق على الطاعة ، ثم إثابتهم عليها ، ثم تسميتهم محسنين لتوجيه العبد إلى أن ذلك كله بعناية اللّه وفضله ، وتوفيقه وإحسانه.

وفي هذه الآية تربية لأصحاب محمد ولفت نظر إلى أنهم أولى بهذا كله ، وما عليهم إلا الاعتبار بأحوال أولئك الرّبيين ، والصبر على الأعداء كما صبروا ، والاقتداء بأعمالهم الصالحة والقول مثلهم ، فإن دين اللّه واحد ، وسنته في خلقه واحدة.

ج ٤ ، ص : ١١٥

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أحكام كثيرة لصيقة بنفسية الإنسان وتطلعاته ومواقفه التي يمر بها في الحياة من خوف وضعف ، وتردد وإدبار ، وانهزام وسطحية في التفكير ، بالرغم من وجود أصل الإيمان الذي ينبغي أن يكون مذكرا بالثبات والجرأة والشجاعة والحرص على انتزاع النصر ، وقطع طريق العودة إلى سبيل الكفر والكافرين ، وعدم التأثر بموت القائد أو النبي لأن الاستقامة أبدية دائمة ليست موقوتة بحياة النبي ولا من أجل شخصية النبي.

١- إن دخول الجنة مرهون بسلوك طريق المجاهدين المخلصين الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح ، وضحوا بأنفسهم في سبيل اللّه.

٢- إن الظفر بشرف الشهادة في سبيل اللّه لا يكون بالأماني والتمنيات ، وإنما بالثبات والصبر على الجهاد.

(١٢١/٤)

و تمني الموت يرجع من المسلمين إلى تمني الشهادة بالوصف السابق ، لا تمني قتل الكفار لهم ، فذلك معصية وكفر ، ولا يجوز إرادة المعصية ، وهذا هو مراد المسلمين وسؤالهم من اللّه أن يرزقهم الشهادة ، فهم يسألون الصبر على الجهاد ، وإن أدى إلى القتل.

٣- إن الرسل ليست بباقية في قومها أبدا ، وإنما يجب التمسك بما أتت به الرسل ، وإن فقد الرسول بموت أو قتل ، وأما من حاول الردة إلى الكفر بعد الإيمان ، فلن يضر اللّه شيئا ، بل يضر نفسه ويعرضها للعقاب بسبب المخالفة ، واللّه تعالى لغناه لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ، وسيجزي اللّه الشاكرين الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا.

وكل هذه الأحكام عتاب للمنهزمين يوم أحد ، وهو درس لأمثالهم. وإن

ج ٤ ، ص : ١١٦

موقف أبي بكر الصديق يوم وفاة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أدل دليل على شجاعته وجرأته ، فإن الشجاعة والجرأة : هما ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مصيبة أعظم من موت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ففي ثباته واستدلاله بالآية : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ تثبيت للمؤمنين ، وقطع لدابر الفتنة ، واستئصال لأوهام ومقالات الجاهلين.

وأما تأخر الصحابة عن دفن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، مع أن السنة تعجيل الدفن فلأمور ثلاثة : عدم اتفاقهم على موته ، وعدم علمهم بمكان دفنه ، حتى أخبرهم أبو بكر

بقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما دفن نبي إلا حيث يموت » « ١ »

، واشتغالهم بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة ، حتى انتهوا إلى بيعة أبي بكر رضي اللّه عنه في مبدأ الأمر ، ثم بايعوه في الغد عن رضا واتفاق شامل.

(١٢٢/٤)

ثم نظروا في دفنه عليه الصلاة والسلام وغسّلوه وكفنوه ، ثم صلوا عليه فرادى ، أخرج ابن ماجه بإسناد حسن صحيح عن ابن عباس : « فلما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء ، وضع على سريره في بيته ، ثم دخل الناس على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أرسالا « ٢ » يصلّون عليه ، حتى إذا فرغوا أدخلوا

النساء ، حتى إذا فرغن أدخلوا الصبيان ، ولم يؤمّ الناس على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أحد.
٤- إن محمدا بشر كسائر الأنبياء ، وهم قد ماتوا ، وإن مهمة كل نبي وهي تبليغ الدين تنتهي بتحقيق الغرض المقصود ، ولا يلزم من ارتحالهم نقض رسالتهم. وإن المصائب التي تنزل بالإنسان لا صلة لها بكونه على حق أو باطل ، فقد يبتلى الطائع بأنواع المصائب ، والعاصي بأصناف النعم.
٥- الموت أمر حتمي مقضي به في أجل معين لا يتجاوزه ولا يتقدم عنه لحظة ، وكل إنسان مقتول أو غير مقتول ميّت إذا بلغ أجله المكتوب له ، وهذا

---

(١) أخرجه ابن ماجه والموطأ وغيرهما.
(٢) أرسالا : أفواجا وفرقا متقطعة ، بعضهم يتلو بعضهم ، واحدهم : رسل.
ج ٤ ، ص : ١١٧
معنى قوله : كِتاباً مُؤَجَّلًا. وأما معنى قوله بِإِذْنِ اللَّهِ أي بقضاء اللّه وقدّره. وأجل الموت : هو الوقت الذي في معلومه سبحانه أن روح الحي تفارق جسده ، ومتى قتل العبد علمنا أن ذلك أجله ، ولا يصح أن يقال : لو لم يقتل لعاش ، لقوله تعالى : كِتاباً مُؤَجَّلًا إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ [يونس ١٠/ ٤٩] فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ [العنكبوت ٢٩/ ٥] لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ [الرعد ١٣/ ٣٨].
ودلت الآية وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ .. على الحض على الجهاد ، وعلى أن الموت لا بد منه ، وأن كل إنسان يموت بأجله ، والقتيل يموت بأجله.

٦- من قصر رغبته وعمله على الدنيا دون الآخرة ، آتاه اللّه منها ما قسم له ، ومن جعل رغبته في الآخرة من تضعيف الحسنات لمن يشاء ، آتاه اللّه الآخرة والدنيا معا.
٧- دلت آية وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ .. على غاية التجرد والموضوعية والعدالة وإنصاف الحقائق ، فليس العمل الصالح والجهاد في سبيل اللّه والثبات والصبر في الحرب مقصورا على أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، فكثير من أتباع الأنبياء السابقين كانت لهم مواقف رائعة ، وبطولات خارقة ، فجاهدوا وقاتلوا ، وصبروا وقتلوا ، وما لانت لهم قناة ، ولا خارت لهم عزيمة ، ولا ذلوا ولا خضعوا لما أصابهم في الجهاد ، وكان فعلهم هذا مقرونا بقولهم الدال على قوة إيمانهم ، وطهارة نفوسهم ، وإخلاصهم في طلب رضوان اللّه ، فتضرعوا إلى ربهم وقت الشدة والمحنة وعند لقاء العدو ، فاستحقوا إنعام اللّه عليهم في الدنيا بالنصر والظفر على عدوهم ، وفي الآخرة بالجنة ، ووصفوا بالإحسان ، وأوتوا ثوابا

عظيما دائما لا يحده حصر.

وفي موقفهم المهيب بالابتهال والتضرع والدعاء والاستغفار دليل على أن إجابة الدعاء تتطلب الإخلاص وطهارة النفس وخشوعها للّه ، وأن الذنوب

ج ٤ ، ص : ١١٨

و المعاصي من عوامل الخذلان والهزيمة ، وأن الطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والغلبة.

٨- والدعاء المفضل يكون بالمأثور لبلاغته وجمعه معاني كثيرة قد لا يدركها الإنسان ، مثل المذكور في دعاء الرّبيين : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا ، وَثَبِّتْ أَقْدامَنا ، وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ.

و

في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه كان يدعو بهذا الدعاء : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني » .

(١٢٤/٤)

التحذير من طاعة الكافرين [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٤٩ الى ١٥١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

الإعراب :

بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ أي ناصركم لا تحتاجون إلى نصرة أحد وولايته ، مبتدأ وخبر. وقرئ بالنصب على تقدير فعل محذوف هو : بل أطيعوا اللّه مولاكم.

البلاغة :

يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ أي يرجعوكم من الإيمان إلى الكفر ، فيه استعارة الرجوع إلى الوراء إلى الرجوع إلى الكفر ، بتشبيه الثاني بالأول. ويوجد طباق بين آمَنُوا وكَفَرُوا.

ج ٤ ، ص : ١١٩

وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ لم يقل : مثواهم ، بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ والتهويل.

والمخصوص بالذم محذوف : أي بئس النار.

المفردات اللغوية :

الَّذِينَ كَفَرُوا يعني مشركي العرب : أبا سفيان وأصحابه ، وقيل : اليهود والنصارى ، وقال علي رضي اللّه عنه : يعني المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة في أحد : ارجعوا إلى دين آبائكم يَرُدُّوكُمْ عَلى

أَعْقابِكُمْ أي يرجعوكم إلى الكفر بعد الإيمان خاسِرِينَ الدنيا بانقيادكم للأعداء واستبدالكم ذلة الكفر بعزة الإسلام ، والآخرة بحرمانكم من نعيم اللّه وثوابه ووقوعكم في العذاب.
بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ ناصركم ومعينكم. وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ أي فأطيعوه دونهم.

(١٢٥/٤)

الرُّعْبَ شدة الخوف التي تملأ القلب ، وكان المشركون قد عزموا بعد ارتحالهم من أحد على العود واستئصال المسلمين ، فرعبوا ولم يرجعوا بِما أَشْرَكُوا بسبب إشراكهم. سُلْطاناً حجة وبرهانا ، والمقصود بما لم ينزل به سلطانا أي حجة على عبادته وهو الأصنام. مَثْوَى مأوى.
الظَّالِمِينَ الكافرين.
سبب النزول :
نزول الآية (١٤٩) :
قال علي رضي اللّه عنه : نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة :
ارجعوا إلى إخوانكم ، وادخلوا في دينهم. وعن الحسن البصري رضي اللّه عنه : إن تستنصحوا اليهود والنصارى ، وتقبلوا منهم لأنهم كانوا يستغوونكم ويوقعون لكم الشبه في الدين ، ويقولون : لو كان نبيا حقا لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم ، وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس ، يوما له ويوما عليه.
وعن السدي : إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينكم.
نزول الآية (١٥٥(١) :
قال السدي : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة ،
ج ٤ ، ص : ١٢٠
انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق ، ثم إنهم ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا ، قتلناهم حتى إذا لم يبق إلا الشرذمة تركناهم ، ارجعوا فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك ، ألقى اللّه تعالى في قلوبهم الرعب ، حتى رجعوا عما هموا به ، وأنزل اللّه تعالى هذه الآية : سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ.
المناسبة :
تستمر الآيات في تبيان عظات غزوة أحد والدروس المستفادة منها ، فلما أمر اللّه تعالى بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء ، حذّر من طاعة الكافرين وهم مشركو العرب واليهود والنصارى والمنافقون الذين تآمروا على الدعوة الإسلامية بتثبيط عزائم المؤمنين.
التفسير والبيان :

يحذر اللّه تعالى عباده المؤمنين من طاعة الكافرين والمنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة ، لذا قال : يا أيها المؤمنون إن تطيعوا الذين كفروا بدينكم وجحدوا نبوة نبيكم كأبي سفيان وأصحابه وعبد اللّه بن أبي زعيم المنافقين وأتباعه ، ورؤوس اليهود والنصارى ، يردوكم كافرين بعد الإيمان ، فتصبحوا خاسرين في الدنيا بذل الكفر بعد عزة الإسلام ، وتحكم العدو فيكم ، وحرمانكم من متعة الملك والتمكين في الأرض ، المذكورين في وعد اللّه المؤمنين الصادقين : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً [النور ٢٤/ ٥٥] وخاسرين في الآخرين أيضا بحرمانكم من نعيم اللّه وثوابه وتعرضكم لعذاب اللّه وعقابه في النار.

فلا تأبهوا بمناصرة وعون الكفار وإغوائهم ، فإن اللّه هو ناصركم ومعينكم ، كما في آية أخرى : فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ ، نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [الأنفال ٨/ ٤٠]

ج ٤ ، ص : ١٢١

و قد كتب اللّه العزة لرسوله وللمؤمنين : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ [المنافقون ٦٣/ ٨] وجرت سنته في تولي الصالحين وخذلان الكافرين : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها. ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ [محمد ٤٧/ ١٠- ١١].

و من مظاهر مناصرته وعونه تعالى للمؤمنين إلقاء الرعب في قلوب الكافرين بسبب إشراكهم باللّه ، واتخاذهم أصناما وحجارة ومعبودات تعبد من دون اللّه ، لم يقم برهان ولا حجة من عقل أو حس على صحة استحقاقها للعبادة ، وكونها واسطة بين اللّه وخلقه ، وحجتهم الوحيدة في عبادتها تقليدهم آباءهم الذين وجدوهم عابدين لها : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [الزخرف ٤٣/ ٢٣] وهم إنما يعتمدون في واقعهم على الأخيلة والأوهام ، والوساوس والهواجس أنها ذات تأثير ، مما يؤدي إلى اضطراب قلوبهم وعقولهم ، وفساد أفكارهم ، وضعف نفوسهم. ومسكنهم في النهاية والآخرة النار بسبب ظلمهم وكفرهم وعنادهم الحق وأهله ، وبئس المثوى والمأوى مثواهم ومأواهم فإنهم ظالمون لأنفسهم ، وللناس بسوء معاملتهم ، وفقد مقومات الحضارة والمدنية عندهم. وهم إن رأوا المؤمنين متمسكين بدينهم ، ازداد الشك في أنفسهم ، واستمر الخوف والرعب والقلق في

نفوسهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

العبرة دائما بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذه الآيات تحذير دائم للمؤمنين من طاعة الكافرين على مختلف أنواع كفرهم ، لعداوتهم وحقدهم وغشهم وعدم الثقة بنصحهم وأمانتهم.

والمؤمن بقوة إيمانه ، وثقة لقائه ربه ، واعتقاده بسلطان اللّه وتأييده

ج ٤ ، ص : ١٢٢

و نصره ، يكون دائما قوي العزيمة ، شديد الشكيمة ، صلب الإرادة. فإن ظهرت فيه علائم الخوف من الكفرة كان مسلما بالوراثة والاسم الظاهر فقط ، وليس مؤمنا حقا.

(١٢٨/٤)

و المشرك والكافر في قلق دائم ، واضطراب مستمر ، وخوف مستحكم في قلبه وفي أعماق نفسه ، إذ إن الكفر لا يلقي في نفسه شيئا صحيحا ثابتا من الطمأنينة والثقة ، وإنما هي موروثات وتقاليد يرددها ، وعصبية عمياء حجبته عن رؤية الحقائق ، وصدّته عن التفكير الصحيح بوحدانية اللّه وقدرته الشاملة وسلطانه القاهر في الدنيا والآخرة.

وآية إلقاء الرعب في قلوب الكفر دليل على بطلان الشرك عقلا وحسا ، وعلى سوء أثره في النفس ، إذ لا يلقي في النفس الثقة والأمان والطمأنينة ، وإنما على العكس يخلق الرعب ، وينشر الهلع والخوف في كل وقت.

وما أقوى وأشد تأثيرا من تهديدات القرآن وإنذاراته بالنار الحامية للكافرين ، ولو غضوا الطرف عنها ، فإنهم لا بد سامعون لها. ودل قوله :

وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ المنبئ عن المكث الطويل على أنهم خالدون في النار ، ولا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم يخرجون منها ، ولو لراحة وقتية ، أو تنفس واستنشاق هواء عليل فترة ما ، يرد عليهم نسيم الحياة ، وحلاوتها العذبة الرقراقة.

أسباب انهزام المسلمين في أحد وتفرقهم بعد وعدهم بالنصر [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٥٢ الى ١٥٥]

(١٢٩/٤)

وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥(٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا ما أَصابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٥(٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١٥(٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

ج ٤ ، ص : ١٢٣

الإعراب :

أَمَنَةً نُعاساً في نصبهما وجهان : إما أن تكون أَمَنَةً منصوبا بأنزل ، ونُعاساً بدلا منه ، وإما أن تكون أَمَنَةً مفعولا لأجله ، ونُعاساً منصوبا بأنزل. يَغْشى أي النعاس ، ومن قرأ بالتاء ردّ إلى الأمنة. وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ مبتدأ وخبر ، والجملة منهما حال.

والواو : إما واو الحال ، أو واو الابتداء ، أو بمعنى إذ.

ج ٤ ، ص : ١٢٤

يَظُنُّونَ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير أَهَمَّتْهُمْ أو في موضع رفع صفة لطائفة. إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ كلّه بالنصب تأكيد للأمر ، وبِاللَّهِ : خبر إِنَّ. ومن قرأ بالرفع : فهو مبتدأ ، وبِاللَّهِ : خبره ، والجملة منهما خبر إِنَّ. وَلِيَبْتَلِيَ لام كي ، متعلقة بفعل مقدر دل عليه الكلام وتقديره : وليبتلي ما في صدوركم أوجب عليكم القتال.

وَلِيُمَحِّصَ : معطوف على لِيَبْتَلِيَ.

البلاغة :

يوجد طباق بين يُخْفُونَ ويُبْدُونَ وبين فاتَكُمْ وأَصابَكُمْ.

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ تنكير : فضل للتفخيم ، وإظهار الْمُؤْمِنِينَ في موضع الإضمار للتشريف.

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنَّ وفَتَوَكَّلْ والْمُتَوَكِّلِينَ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إياكم بالنصر. تَحُسُّونَهُمْ تقتلونهم وتستأصلونهم ، مأخوذ من حسّه : أذهب القاتل حسّه بالقتل ، كما يقال : بطنه : أصاب بطنه. بِإِذْنِهِ بإرادته وأمره وتأييده وعونه. فَشِلْتُمْ جبنتم وضعفتم عن القتال. وَتَنازَعْتُمْ اختلفتم. فِي الْأَمْرِ أي أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالمقام في سفح الجبل للرمي ، فقال بعضكم : نذهب فقد نصر أصحابنا ، وبعضكم قال :

لا نخالف أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم. وَعَصَيْتُمْ أمره ، فتركتم المركز لطلب الغنيمة. مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ اللّه. ما تُحِبُّونَ من النصر.

(١٣١/٤)

و جواب إذا : دل عليه ما قبل أي منعكم نصره.

مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا أي الغنيمة. وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ فثبت حتى قتل كعبد اللّه بن جبير وأصحابه. ثُمَّ صَرَفَكُمْ ردّكم للهزيمة ، وهو عطف على جواب إذا المقدر.

عَنْهُمْ أي الكفار. لِيَبْتَلِيَكُمْ ليمتحنكم ويختبركم ، فيظهر المخلص من غيره ، والمراد ليعاملكم معاملة من يختبر ويمتحن ، وإلا فاللّه عالم لا يحتاج إلى اختبار. عَفا عَنْكُمْ تاب عليكم لما ارتكبتموه. وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بالعفو.

إِذْ تُصْعِدُونَ اذكروا إذ تذهبون في الأرض أو الوادي وتبعدون هاربين. وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ أي لا تلتفتون لأحد. أُخْراكُمْ آخركم أو من ورائكم يقول : إليّ عباد اللّه ، إلي عباد اللّه. فَأَثابَكُمْ فجازاكم. غَمًّا بالهزيمة. بِغَمٍّ بسبب غمكم ومضايقتكم للرسول بالمخالفة.

والغم : ألم وضيق في الصدر من أمر محرج.

ج ٤ ، ص : ١٢٥

أَمَنَةً أي أمنا وهو ضد الخوف. يَغْشى يغطي ويستر. يُبْدُونَ يظهرون.

لَبَرَزَ لخرج. مَضاجِعِهِمْ مصارعهم التي قدر قتلهم فيها.

لِيَبْتَلِيَ يختبر. ما فِي صُدُورِكُمْ قلوبكم من الإخلاص والنفاق. وَلِيُمَحِّصَ يميز.

بِذاتِ الصُّدُورِ عليم بما في القلوب لا يخفى عليه شيء ، وإنما يبتلي ليظهر للناس.

الْجَمْعانِ جمع المؤمنين وجمع المشركين بأحد ، والذين تولوا : هم المسلمون إلا اثني عشر رجلا.

اسْتَزَلَّهُمُ أزلهم الشيطان بوسوسته ، أي أوقعهم في الزلل والخطأ. بِبَعْضِ ما كَسَبُوا من الذنوب ، وهو مخالفة أمر النبي ، فمنعوا التأييد والنصر الإلهي الذي كان وعدهم به ربهم.

سبب النزول :

نزول الآية (١٥(٢) :

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ... :

(١٣٢/٤)

قال محمد بن كعب القرظي : لما رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى المدينة ، وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد ، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا ، وقد وعدنا اللّه النصر ؟ فأنزل اللّه تعالى :

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ الآية- إلى قوله : مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا

يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد « ١ » .

نزول الآية (١٥(٤) :

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ : أخرج ابن راهويه عن الزبير قال : لقد رأيتني يوم أحد ، حتى اشتد علينا الخوف ، وأرسل علينا النوم ، فما منا أحد إلا ذقنه في صدره ، فو اللّه ، إني لأسمع كالحلم قول معتّب بن قشير : لو كان لنا من الأمر شيء ، ما قتلنا هاهنا ، فحفظتها فأنزل اللّه في ذلك : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً- إلى قوله : وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

ومعنى قوله : ما قُتِلْنا هاهُنا أي لو كان الاختيار إلينا لم نخرج ، فلم

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٧٢

ج ٤ ، ص : ١٢٦

نقتل ، لكنّا أخرجنا كرها. فرد اللّه عليهم : قُلْ : لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ..

الآية ، أي أن من قدّر عليه القتل قاده أجله إلى الخروج في مكان فقتل فيه ، ولم ينجه قعوده في منزله لأن قضاءه تعالى كائن لا محالة.

التفسير والبيان :

واللّه لقد وفي لكم ربكم وعده النصر على العدو حين أخذتم تقتلونهم قتلا ذريعا وتفتكون بهم فتكا بتأييد اللّه ومعونته ومشيئته وإرادته.

(١٣٣/٤)

صدقكم اللّه وعده ، حتى إذا جبنتم وضعفتم عن القتال واختلفتم في الرأي والعمل في تنفيذ أمر نبيكم بالثبات على جبل الرماة ، فقال بعضكم : فيم وقوفنا وقد انهزم المشركون ؟ وقال آخرون : لا نخالف أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أبدا ، ولم يثبت إلا عبد اللّه بن جبير مع نفر من أصحابه ، لما حدث ذلك تأخر النصر وأحدقت الهزيمة بكم.

وبعبارة أخرى : فلما واجهتموهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام ، ولما اختلفتم وحصل ما حصل من عصيان الرماة ، وفشل بعض المقاتلة ، تأخر الوعد الذي كان مشروطا بالثبات والطاعة « ١ » .

عن عروة بن الزبير قال : وكان اللّه عز وجل وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، وكان قد فعل فلما عصوا أمر الرسول ، وتركوا مصافّهم. وترك الرّماة عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إليهم ألا يبرحوا من منازلهم ، وأرادوا الدنيا ، رفع عنهم مدد الملائكة ، وأنزل اللّه تعالى : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ فصدق اللّه وعده ، وأراهم الفتح ، فلما عصوا أعقبهم البلاء « ٢ » .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٤١١- ٤١٢

(٢) تفسير القرطبي : ٤/ ٢٣٥ [.....]

ج ٤ ، ص : ١٢٧

فألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم ، ووجه التوبيخ لهم : أنهم رأوا مبادئ النصر ، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات ، لا في الانهزام.

ثم بين سبب التنازع فقال : مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا يعني الغنيمة ، قال ابن مسعود : ما شعرنا أن أحدا من أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يريد الدنيا وعرضها ، حتى كان يوم أحد. وهؤلاء هم الذين تركوا أماكنهم على الجبل طلبا للغنيمة.

وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وهم الذين ثبتوا في مركزهم ، ولم يخالفوا أمر نبيهم صلّى اللّه عليه وسلّم مع أميرهم عبد اللّه بن جبير ، فحمل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل عليه ، وكانا يومئذ كافرين ، فقتلوه مع من بقي ، رحمهم اللّه.

والعتاب مع من انهزم ، لا مع من ثبت ، فإن من ثبت فاز بالثواب.

ثم بعد أن استوليتم عليهم ، ردكم عنهم بالانهزام ، فعل هذا ليمتحن إيمانكم ، ولقد عفا اللّه عنكم وغفر لكم ذلك الصنيع ، بذلك الابتلاء الذي محا أثر الذنب من نفوسكم وتاب عليكم لما ندمتم على

ما فرطتم به ، واللّه ذو فضل على المؤمنين أي لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ، وربما كان سبب العفو والفضل والرحمة كثيرة عدد العدو وعددهم ، وقلة عدد المسلمين وعددهم.

ثم ذكّر هم اللّه تعالى ، فقال : اذكروا وقت أن صرفكم عنهم حين أصعدتم في الجبل أي ذهبتم منهزمين ، وأنتم لا تلتفتون لأحد من الدهش والخوف والرعب ، والحال أن الرسول قد خلفتموه وراء ظهوركم ، يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، قائلا :

« إلي عباد اللّه ، إلي عباد اللّه ، أنا رسول اللّه ، من يكرّ فله الجنة »

و

قال ابن عباس وغيره : كان دعاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « أي عباد اللّه ارجعوا » فالرسول يدعوكم في آخركم ، جاء في البخاري : أخراكم : تأنيث آخركم.

قال البراء بن عازب : جعل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على الرّجّالة يوم أحد عبد اللّه بن جبير ، وأقبلوا منهزمين ، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم.

ولم يبق مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم غير اثني عشر رجلا.

ج ٤ ، ص : ١٢٨

و كان جزاؤكم غمّا بغمّ ، والغم الأول : إلحاق الهزيمة وحرمان الغنيمة والقتل بالصحابة ، والغم الثاني الذي سبّب الغم الأول : هو ما حدث للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم من ألم وضيق بسبب عصيانكم أمره ، ومخالفتكم رأيه. وهذا أرجح الأقوال كما قال ابن جرير الطبري.

وقد فعل بكم ذلك كله لتتمرنوا على الشدائد ، وتتعودوا احتمال المكاره ، فإنها تصقل الأمم والأفراد ، ولئلا تحزنوا على ما فاتكم من المنافع والمغانم ، ولا على ما أصابكم من المضارّ من عدوكم ، كالجراح والقتل ، واللّه خبير بأعمالكم ، فمجازيكم عليها ، إذ العمل سبب النجاح والظفر ، وتكميل الإيمان والتحلي بالفضائل. وفي هذا ترغيب بالطاعة وزجر عن المعصية.

ثم ذكر اللّه تعالى ما امتنّ به على عباده من بعد الغم الذي اعتراهم ، وهو إنزال السكينة والأمن « ١ » وهو النعاس الذي غشيهم وغلبهم ، وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم ، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان ، ليستردوا ما فقدوه من القوة ، وما عرض لهم من الضعف ، كما قال في سورة الأنفال في قصة بدر إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ [الأنفال ٨/ ١١]. قال أبو طلحة : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مرارا ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه « ٢ » .

وروى البخاري أيضا في التفسير عن أبي طلحة قال : غشينا النعاس ، ونحن في مصافنا يوم أحد ،

فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه « ٣ » .
وكان النعاس يغشى طائفة من الناس- والطائفة : تطلق على الواحد

---

(١) الأمن والأمنة سواء.
(٢) هكذا رواه البخاري في المغازي معلقا.
(٣) ورواه أيضا الترمذي والنسائي والحاكم بلفظ مقارب.
ج ٤ ، ص : ١٢٩

و الجماعة- ، وهم المهاجرون وعامة الأنصار الذين كانوا على بصيرة في إيمانهم ، كما قال ابن عباس ، أو هم أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل على اللّه ، وهم الجازمون بأنّ اللّه سينصر رسوله ، وينجز مأموله.
وطائفة أخرى قد أهمتهم أنفسهم أي حملتهم على الهم ، وملأ الخوف قلوبهم ، لعدم ثقتهم بنصر اللّه ، ولعدم إيمانهم بالرسول ، وهم جماعة من المنافقين كعبد اللّه بن أبي ومعتّب بن قشير وأتباعهم ، لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ، ولا يهتمون بأمر الرسول والدين ، وهم كما أخبر اللّه : يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ أي غير الظن الحق الذي يجب أن يظنوه إذ قالوا : لو كان محمد نبيا حقا ما تسلط عليه الكفار ، وهو قول أهل الشرك باللّه.
وهذه الطائفة الثانية يسألون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : هل لنا من الأمر والنصر والفتح نصيب ؟ يعنون أنه ليس لهم من ذلك شيء لأنهم يعتقدون أن هذا ليس بحق. وهذا سبب خطئهم الفاحش ، فإن نصر اللّه رسله لا يمنع أن تكون الحرب سجالا ، والمهم تمام الأمر والعاقبة.
فرد اللّه تعالى عليهم : بأن كل أمر يجري فهو بحسب سنته تعالى في الخليقة ، تلك السنة القائمة على ربط الأسباب بالمسببات ، وأن الأمر والنصر كله للّه ، لا لغيره ، وهو ناصر عباده المؤمنين كما وعدهم بقوله : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي [المجادلة ٥٨/ ٢١] وقوله : إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ [الصافات ٣٧/ ١٧٣].
وهؤلاء المنافقون يضمرون في أنفسهم العداوة والحقد ، ويتساءلون في الظاهر سؤال المؤمنين المسترشدين : هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ لكنهم يبطنون الإنكار والتكذيب والنفاق.
ويقولون في أنفسهم أو لبعضهم بعضا منكرين لقولك لهم : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ
ج ٤ ، ص : ١٣٠

لِلَّهِ

:

لو كان الأمر كما قال محمد : إن الأمر كله للّه ولأوليائه وإنهم الغالبون ، لما غلبنا قط ، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة ، فهم يربطون بين النبوة والنصر ، وأنه لو كان محمد نبيا ما هزم ، وفاتهم أن النصر من عند اللّه وتوفيقه ، وأن الهزيمة بسبب مخالفات المسلمين.

فرد اللّه عليهم بأن الآجال والأعمار بيد اللّه ، وأن النصر من عند اللّه ، وأن من كتب عليه القتل فلا بد أنه مقتول ، فلو كان في بيته وانتهى أجله ، لخرج إلى مكان مصرعه ، والحذر لا يمنع القدر ، والأمر كله بيد اللّه.

وقد فعل اللّه ما فعل من إلحاق الهزيمة بالمسلمين في نهاية غزوة أحد ، ليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص والثبات ، وليميز ما في القلوب من أمراض ووساوس الشيطان ، واللّه عليم بذات الصدور أي بالأسرار والخفيات ، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وإنما فعل هذا لينكشف حال الناس ، وتظهر الحقائق ، وتنجلي مواقف المؤمنين الصابرين والمنافقين المخادعين.

وإن المؤمنين الذين انهزموا أو تركوا أماكنهم يوم التقاء الجمعين من المسلمين والمشركين في أحد ، إنما أوقعهم الشيطان فريسة له في الزلل والخطأ ، بسبب بعض ما كسبوا من ذنوبهم ، ومعناه أن الذين انهزموا يرم أحد ، كان السبب في توليهم الأدبار : أنهم كانوا أطاعوا الشيطان ، فاقترفوا ذنوبا أدت بهم إلى منع التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا. وهذا يدل على أن الذنب يجز إلى الذنب ، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة ، وتكون لطفا فيها ، كما قال الزمخشري « ١ » .

وتكون المصائب والعقوبات ومنها الهزائم آثارا للأعمال السيئة ، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها ، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

---

(١) الكشاف : ١/ ٣٥٦

ج ٤ ، ص : ١٣١

ثم قال تعالى : وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ أي عما كان من الفرار ، ولم يؤاخذهم في الآخرة ، وجعل عقوبتهم في الدنيا درسا وتربية وتمحيصا ، وهذا يفتح أمامهم باب الأمل ، ويدفع استيلاء اليأس على نفوسهم.

إن اللّه غفور يغفر الذنوب جميعها صغيرها وكبيرها بعد التوبة والاعتراف بالتقصير ، حليم لا يعجل بالعقوبة على الذنب ، وإنما يترك فرصة للعبد لتصحيح أخطائه ، ومعالجة تقصيره.

فقه الحياة أو الأحكام :

الناس في الماضي كالناس في الحاضر يعيشون في الأحلام والخيالات ، فهم ينتظرون النصر منحة إلهية خالصة للمؤمنين ، دون أن يقوموا بواجباتهم ويعملوا بما تقتضيه متطلبات الحروب مع العدو ، فهم المكلفون من الخلق بالجهاد وحمل الأمانة ، وإذا جاهدوا وصبروا وثبتوا ، أيدتهم العناية الإلهية ، وتحقق لهم النصر والفوز.

واللّه صادق الوعد بنصر المؤمنين ما داموا على الحق ثابتين ، وفي ميدان المعارك مجاهدين صابرين مطيعين متوحدين غير متفرقين ، وأما الجبن والضعف والتفرق والنزاع والأطماع الدنيوية فهي سبب الخذلان والهزيمة المنكرة ، وقد صدق اللّه وعده للمؤمنين في أحد ، وأراهم الفتح في بداية المعركة حين صرع صاحب لواء المشركين وقتل معه سبعة نفر ، فلما عصوا وخالفوا أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالثبات على جبل الرماة ، واشتغلوا بالغنيمة أعقبهم البلاء ، وأدى بهم إلى الجراح والقتل ، والهزيمة وفرار الناس من حول قائدهم النبي.

و تغير وجه المعركة من نصر إليه هزيمة ، فبعد أن استولى المسلمون على المشركين ردهم عنهم بالانهزام ، لقوله تعالى : ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وهذا دليل على أن المعصية مخلوقة للّه تعالى.

ج ٤ ، ص : ١٣٢

و لكن من لطف اللّه بعباده الذين أخطئوا هذه المرة أن عفا عنهم ، ولم يستأصلهم بالمعصية والمخالفة ، واللّه ذو فضل دائم على المؤمنين بالعفو والمغفرة ، قال ابن عباس : ما نصر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كما نصر يوم أحد ، فأنكر الصحابة ذلك ، فقال لهم : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب اللّه عز وجل ، إن اللّه عز وجل يقول في أحد : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ والحسّ : القتل.

ولم يكن فرار المسلمين في أحد مقبولا لأن القائد وهو النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ما يزال صامدا يقاتل في قلب المعركة ، ويدعو الفارّين إلى العودة والكرّ ، فلما لم يرجعوا جازاهم اللّه بالغم والحزن وهو القتل والجراح وعدم الظفر بالغنيمة ، بسبب الغم والضيق الذي ملأ قلب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لمخالفتهم إياه. وسمي الغم ثوابا كما سمي جزاء الذنب ذنبا.

ولكن فضل اللّه ورحمته بالمؤمنين بعد هذا الغم ألقى عليهم النعاس أو النوم ليشعرهم بالأمن وليجددوا عزائمهم وترتاح نفوسهم من بعد هذه الهزيمة. أما المنافقون فظلوا في قلقهم واضطرابهم لا ينامون ولا يشعرون بالطمأنينة والأمن ، ويقولون : هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ استفهام معناه الجحد والإنكار ، أي ما لنا شيء من أمر الخروج ، وإنما خرجنا كرها ، بدليل قولهم : لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قال الزبير : أرسل علينا النوم ذلك اليوم ، وإني لأسمع قول معتّب بن قشير ، والنعاس يغشاني يقول : لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا. وقيل : المعنى : يقول ليس لنا من الظّفر الذي وعدنا به محمد شي ء.

(٤/١٤٠)

فرد اللّه تعالى عليهم : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ أي النصر بيد اللّه ، ينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء. والأجل والعمر بيد اللّه ، وما من ميت إلا ويموت بأجله ، سواء في الحرب وساحاتها ، أم في المنازل والمضاجع وغرفها وحدائقها.

وهكذا كان أهل غزوة أحد بعد انتهائها فريقين :

ج ٤ ، ص : ١٣٣

١- فريق ذكروا ما أصابهم ، فعرفوا أنه كان بتقصير من بعضهم ، وذكروا وعد اللّه بنصرهم ، فاستغفروا لذنوبهم وآمنهم ربهم.

٢- وفريق أذهلهم الخوف ، حتى شغلوا عن كل ما سواه ، إذ لم يثقوا بوعد اللّه ولم يؤمنوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم.

وأما سبب انهزام المؤمنين يوم أحد فكان بتأثير الشيطان وإغوائه ووسوسته ، وبما اقترفوا من ذنوب سابقة ، فإنه ذكرهم خطايا سلفت منهم ، فكرهوا الثبوت لئلا يقتلوا ، ولكن اللّه بفضله ورحمته عفا عنهم ولم يعاجلهم بالعقوبة. قال القرطبي : ونظير هذه الآية توبة اللّه على آدم عليه السلام ، و قوله عليه الصلاة والسلام : « فحجّ آدم موسى »

أي غلبه بالحجة وذلك أن موسى عليه السلام أراد توبيخ آدم ولومه في إخراج نفسه وذرّيته من الجنة ، بسبب أكله من الشجرة فقال له آدم : « أ فتلومني على أمر قدّره اللّه تعالى عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ، تاب عليّ منه ، ومن تاب عليه ، فلا ذنب له ، ومن لا ذنب له ، لا يتوجّه عليه لوم » . وكذلك من عفا اللّه عنه. وإنما كان هذا لإخباره تعالى بذلك ، وخبره صدق. وغيرهما من المذنبين التائبين يرجون رحمته ويخافون عذابه ، فهم على وجل وخوف ألا تقبل توبتهم ، وإن قبلت فالخوف أغلب عليهم ، إذ لا علم لهم بذلك « ١ » .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

---

(١) تفسير القرطبي : ٤/ ٢٤٥

ج ٤ ، ص : ١٣٤

الإعراب :

إِذا ضَرَبُوا أتى بالفعل الماضي بعد إذا التي هي للاستقبال لأن إذا بمنزلة إن ، و(إن) تنقل الفعل الماضي إلى معنى المستقبل.

لِيَجْعَلَ لام العاقبة ، ومعناه : لتصير عاقبتهم إلى أن يجعل اللّه جهاد المؤمنين وإصابة الغنيمة أو الفوز بالشهادة حسرة في قلوبهم ، مثل آية : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً [القصص ٢٨/ ٨].

وَلَئِنْ مُتُّمْ يقرأ ميم مُتُّمْ بالضم والكسر ، وهما لغتان. واللام في لَئِنْ : عوض عن القسم. وإنما لم تدخل نون التوكيد مع اللام على فعل تُحْشَرُونَ الذي هو جواب القسم مثل : وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ [الإسراء ١٧/ ٨٦] لأنه فصل بين اللام والفعل بالجار والمجرور.

لَمَغْفِرَةٌ مبتدأ ، وخبره : خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ.

البلاغة :

إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ استعارة ، شبّه المسافر برا بالضارب السابح في البحر.

المفردات اللغوية :

كَالَّذِينَ كَفَرُوا هم المنافقون بزعامة عبد اللّه بن أبي وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ أي في شأنهم ، والأخوة تشمل أخوة النسب والدين والمودة إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ سافروا في الأرض للتجارة والكسب.

ج ٤ ، ص : ١٣٥

أَوْ كانُوا غُزًّى أي مقاتلين في الحرب ، واحدهم غاز لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ القول في عاقبة أمرهم حَسْرَةً ندامة في قلوبهم. وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ فلا يمنع الموت قعود.

المناسبة :

حذر اللّه تعالى في الآية السابقة من وسوسة الشياطين التي أدت إلى الهزيمة يوم أحد ، وحذر هنا من وسواس المنافقين أعوان الشياطين.

التفسير والبيان :

ينهى اللّه تعالى عباده المؤمنين ويحذرهم من مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الذي وضح بقولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب : لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم.

يا أيها المؤمنون لا تكونوا كأولئك المنافقين الذين قالوا في شأن إخوانهم حين سافروا في البلاد للتجارة فماتوا ، أو كانوا غزاة محاربين فقتلوا : لو كانوا باقين عندنا ما ماتوا وما قتلوا.

لأن هذا جهل في الدين وضلال في الإيمان لأن الحياة والموت بيد اللّه ، كما قال : وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا [آل عمران ٣/ ١٤٥].

(١٤٣/٤)

و القضاء والقدر لا يجعلان الإنسان مجبورا على أفعاله لأن القضاء : معناه تعلق العلم الإلهي بالشيء ، والعلم انكشاف وإحاطة بالشيء لا يقتضي الإلزام والقدر : وقوع الشيء بحسب العلم ، وعلم اللّه لا يكون إلا مطابقا للواقع ، وإلا كان جهلا. والإنسان مختار في أعماله ، لكنه ناقص القدرة والإرادة والعلم ، وله حدود لا يتعداها ، فقد يعزم على شيء أو يختار عملا ، ولكنه لا يحيط علما بأسباب الموت. ومتى وقع الشيء علم أن وقوعه لا بد منه ، وإذا كان الإنسان مؤمنا بمعونة اللّه وتأييده وأنه يوفقه إلى ما يجهل من أسباب سعادته ، يكون مع أخذه بالأسباب أنشط في العمل وأبعد عن العثرات والفشل.

ج ٤ ، ص : ١٣٦

لا تكونوا كالذين كفروا الذين قالوا فيمن ماتوا أو قتلوا ما قالوا ، ليكون عاقبة ذلك القول حسرة في قلوبهم على من فقدوا ، تزيدهم ضعفا ، وتورثهم ندما ، فإذا كنتم مثلهم أصابكم من الحسرة مثل ما يصيبهم ، وتضعفون عن القتال كضعفهم.

فاللّه خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم. ثم رد اللّه تعالى عليهم بقوله : وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ أي بيده الخلق والإيجاد ، وإليه يرجع الأمر والإعدام ، ولا يحيى أحد ولا يموت

أحد إلا بمشيئته وقدره ، ولا يزاد في عمر أحد ، ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره.
واللّه بما تعلمون بصير ، أي علمه وبصره نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم ظاهرها وباطنها ، يعلم بما تكنّه النفوس وما تعتقده ، وإن لم تعبر عنه. وفي هذا ترغيب للمؤمنين وتهديد للكافرين.
والقتل في سبيل اللّه والموت أيضا وسيلة إلى نيل رحمة اللّه وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجميع حطامها الفاني الذي يجمعونه.

(٤/١٤٤)

فما أجدر المؤمن أن يؤثر مغفرة اللّه التي تمحو الذنوب ، ورحمته التي ترفع الدرجات على حظوظ الدنيا الفانية ، فما هو خالد باق خير مما هو مؤقت فان.
ثم حث سبحانه وتعالى على العمل في سبيل اللّه لأن المال إليه ، فأخبر بأن كل من مات أو قتل ، فمصيره ومرجعه إلى اللّه عز وجل ، فيجزيه بعمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فبأي سبب كان هلاككم فإلى اللّه مرجعكم ، وتحشرون ، أي تجمعون إليه لا إلى غيره.
وهذا حث على العمل وبث لروح التضحية والجهاد من أجل العقيدة ورفع لواء الإسلام والدفاع عن الأوطان ، ووعد قاطع بأن من يقتل في سبيل اللّه فهو حي يرزق عند ربه ، وله عند الناس أطيب الذكر والثناء الجميل.
ج ٤ ، ص : ١٣٧
فقه الحياة أو الأحكام :
يحرص القرآن الكريم على بروز الشخصية الذاتية للمسلمين ، وعلى تعهدهم بالرعاية والعناية ، وإيجاد الموقف المتميز لهم أمام خصوم الدعوة الإسلامية ، لذا حذرهم ونهاهم من أن يقولوا مثل قول المنافقين الذين قالوا لإخوانهم في النفاق أو في النسب في السرايا التي بعثها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى بئر معونة.
فالحياة والموت بيد اللّه ، واللّه واسع العلم نافذ البصر بأعمال الناس وخفاياهم ، فمن الخطأ القول بأن الشخص لو كان في منزله أو بلده ما مات ولا قتل لأن القعود عن الجهاد لا يحفظ الحياة ، وكذا التعرض لقتال الأعداء لا يسلب الحياة ولا يعجل بالموت.
لا تكونوا مثلهم ، ليجعل اللّه ذلك القول حسرة في قلوبهم لأنه ظهر نفاقهم. واللّه يقدر أن يحيي من يخرج إلى القتال ، ويميت من أقام في أهله ، فذلك تهديد للمؤمنين حتى لا يتشبهوا بالكفار في أقوالهم وأفعالهم.

ثم أخبر اللّه تعالى أن القتل في سبيل اللّه والموت فيه خير من جميع الدنيا ، ثم وعظ المؤمنين بقوله : لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ أي لا تفرّوا من القتال ومما أمركم به ، بل فرّوا من عقابه وأليم عذابه ، فإن مردّكم إليه ، لا يملك لكم أحد ضرّا ولا نفعا غيره.

والخلاصة : إن الآيات تضمنت تحذيرا أو تهديدا للمؤمنين ، ووعدا ، وحثا على العمل والجهاد. أما التحذير فهو من مشابهة الكافرين بأقوالهم وأفعالهم ، وأما الوعد فهو أن ما ينتظره المؤمن المقاتل في سبيل اللّه من مغفرة الذنوب ورحمة اللّه التي ترفع الدرجة خير له من الدنيا وما فيها من لذات وشهوات.

وأما الحث على العمل في سبيل اللّه وبث روح التضحية والجهاد فهو مفهوم

ج ٤ ، ص : ١٣٨

من المصير المنتظر لجميع الخلائق ، وهو حشرهم إلى اللّه لا إلى غيره ، فيجازي المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، ولا يرجى نفع من غيره ، ولا يدفع ضرر أو عقاب من سواه.

معاملة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لأصحابه بالرفق والعفو والمشاورة والوعد بالنصر [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٥٩ الى ١٦٠]

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

الإعراب :

فَبِما رَحْمَةٍ .. : ما زائدة مؤكدة ، والتقدير : فبرحمة من اللّه ، وهي في موضع نصب لأن التقدير : لنت لهم برحمة من اللّه.

يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ الهاء في : بعده إما عائدة على اللّه تعالى ، أو عائدة على الخذلان ، لدلالة قوله تعالى : وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ كقولهم : من كذب كان شرّا له ، أي كان الكذب شرا له.

البلاغة :

توجد مقابلة بين إِنْ يَنْصُرْكُمُ .. وإِنْ يَخْذُلْكُمْ. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ .. قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر.

ج ٤ ، ص : ١٣٩

لمفردات اللغوية :

لِنْتَ لَهُمْ اللين : الرفق والتساهل في المعاملة ، أي سهلت أخلاقك إذ خالفوك.

فَظًّا سيء الخلق ، شرس الطباع غَلِيظَ الْقَلْبِ قاسيا جافيا لا يتأثر قلبه بشيء لَانْفَضُّوا تفرقوا من حولك فَاعْفُ تجاوز عما أتوه وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ذنبهم لأغفر لهم وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ تعرّف على آرائهم في سياسة الأمة في الحرب والسلم وشؤون الحياة الدنيوية تطييبا لقلوبهم ، وليستن بك ، وكان صلّى اللّه عليه وسلّم كثير المشاورة لهم فَإِذا عَزَمْتَ على إمضاء ما تريد بعد المشاورة فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ثق به بعد المشاورة ، والتوكل : الاعتماد على اللّه في كل أمر.

المناسبة :

المناسبة واضحة ، فالآيات ما تزال تتحدث عن غزوة أحد وآثارها ، فبعد أن عفا اللّه عما بدر من المسلمين في أحد ، وحذرهم من التأثر بأقوال المنافقين ، أعقبه بعفو القائد المصطفى الذي ساءه هذا الموقف وما أدى إليه من الجراح والآلام ، فقد عاملهم بالرفق واللين والحلم ، وخاطبهم باللطف وحسن المعاشرة ، بل استشارهم في مستقبل الأحداث ومصالح الدنيا لما عرف عنه من سمو الأخلاق وحكمة القيادة ، فهو رحمة للعالمين ، ووصفه القرآن بقوله تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ [القلم ٦٨/ ٤].

التفسير والبيان :

خاطب اللّه نبيه بعد خطاب المؤمنين ، ممتنا عليه وعليهم فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره التاركين لزجره. فبرحمته تعالى وتوفيقه لك ولهم جعلك اللّه ليّن المعاملة ، رفيق المعاشرة ، لطيف اللفظ والكلام ، في إرشادهم وقبول عذرهم فيما فرط منهم في غزوة أحد.

وهذا إظهار لسمو القيادة ، وحكمة الرئاسة ، وأخلاق النبوة ، وهي مثل قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ [القلم ٦٨/ ٤] وقوله : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ

ج ٤ ، ص : ١٤٠

رَحِيمٌ

[التوبة ٩/ ١٢٨]. وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا حلم أحبّ إلى اللّه تعالى من حلم إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض إلى اللّه من جهل إمام وخرقه » .

ولو كنت غليظ الكلام خشنا قاسي القلب جافّ الطبع في معاملتهم ، لتفرقوا من حولك ، وتركوك ، ولكن اللّه جمعهم عليك ، وألان جانبك لهم ، تأليفا لقلوبهم ، كما قال عبد اللّه بن عمرو : « إني أرى صفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » و

روى محمد بن إسماعيل الترمذي عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن اللّه أمرني بمداراة الناس ، كما أمرني بإقامة الفرائض » « ١ » .

وإذا كنت يا محمد بهذه الأخلاق فاعف عنهم ، وتجاوز عما صدر منهم ، واطلب لهم المغفرة من اللّه حتى يغفر لهم ، وشاورهم في أمور السياسة العامة ومصالح الأمة في الحرب والسلم ، وكل شؤون المصالح الدنيوية.

(١٤٨/٤)

و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فعلا يشاور أصحابه في الأمور كلها ، تطييبا لقلوبهم ، وليستن الناس بفعله ، قال الحسن رضي اللّه عنه : قد علم اللّه أن ما به إليهم حاجة ، ولكن أراد أن يستنّ به من بعدهم. و

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما ذكره الماوردي : « ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم »

وقال أبو هريرة رضي اللّه عنه فيما رواه الترمذي : « لم يكن أحد أكثر مشاورة من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم » .

– شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير ، فقالوا : يا رسول اللّه ، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا

---

(١) حديث غريب.

ج ٤ ، ص : ١٤١

هاهنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب فنحن معك وبين يديك ، وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون.

– وشاورهم أيضا أين يكون المنزل ، حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم.

– وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم.

– وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ ، فأبى ذلك عليه السعدان :

سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فترك ذلك.

– وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين ، فقال له الصدّيق : إنا لم نجئ لقتال أحد ، وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلى ما قال.

– و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم في قصة الإفك : « أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي « ١ » ورموهم ، وايم اللّه ، ما علمت على أهلي من سوء ، وأبنوهم بمن واللّه ما علمت عليه إلا خيرا » .

– واستشار عليا وأسامة في فراق عائشة رضي اللّه عنها « ٢ » .

(١٤٩/٤)

و للشورى فوائد كثيرة أهمها تقدير المستشارين ، وإنضاج بحث الرأي المقترح بعد تقليب وجهات النظر ، واتحاد الناس على مسعى واحد ، واختيار الرأي الأصوب.

جاء في مصنف أبي داود عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « المستشار مؤتمن » .

---

(١) أبن فلان يؤبن بكذا : يذكر بقبيح.

(٢) تفسير ابن كثير : ١/ ٤٢٠

فإذا عزمت فتوكل على اللّه ، أي إذا شاورتهم في الأمر ، وعزمت عليه ، فتوكل على اللّه فيه ، إن اللّه يحب المتوكلين عليه الواثقين به ، فينصرهم ويرشدهم إلى ما فيه الخير لهم. وليس معنى التوكل هو التواكل وإهمال الأسباب ، وإنما هو حسن الاعتماد على اللّه والثقة به وتفويض النتائج إليه ، بعد اتخاذ الأسباب.

قال الرازي : دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يقول بعض الجهال ، وإلا كان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل ، بل التوكل عليه أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعوّل بقلبه عليها ، بل يعول على عصمة الحكمة.

ففي الكسب والمعاش لا بد من السعي في الأرض ، كما قال تعالى : فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ [الملك ٦٧/ ١٥].

وفي السياسة والحرب يجب الانتباه والحذر والإعداد المكافئ لقوى العدو :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ [النساء ٤/ ٧١] وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ [الأنفال ٨/ ٦٠].

ومن أجل الدنيا والآخرة لا بد من الصلاح والاستقامة والتزود بالتقوى :
وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى [البقرة ٢/ ١٩٧].
وفي كل شيء يكون التوكل مقرونا بالسعي ،
روى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه : « لو أنكم توكلتم على اللّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا ، وتروح بطانا »
و

أخرج ابن حبان في صحيحة : « حديث الرجل الذي جاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأراد أن يترك ناقته ، وقال : أأعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : اعقلها وتوكل »
.
ثم أعلن اللّه تعالى عن مصدر النصر في الحقيقة فأخبر أنه إن أراد اللّه أن ينصركم في أحد ، كما نصركم في بدر ، حين التزمتم الطاعة ، وثبتم ، واتكلتم على
ج ٤ ، ص : ١٤٣
توفيق اللّه ومعونته ، فلا غالب لكم من الناس. وإن يرد خذلانكم وهزيمتكم ويمنعكم تأييده بما كسبت أيديكم من الفشل والتنازع وعصيان القائد فيما أمركم به ، كما جرى يوم أحد ، فلا يملك لكم أحد تحقيق النصر. وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون ، وليثقوا به بعد اتخاذ الأسباب لأنه لا ناصر لهم سواه. وفي هذا ترغيب في التوكل على اللّه بعد المشاورة والاستعداد وعقد العزيمة الصادقة على فعل شيء مرغوب به شرعا.
فقه الحياة أو الأحكام :
إيراد هذه الأخلاق للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم يقصد به الاقتداء به فيها لأنه الأسوة الحسنة للمؤمنين ، وهو قائدهم وهاديهم بالقول والفعل والصفات. ودلت آية فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ على اختصاص نبينا بمكارم الأخلاق ، وكان يجمع بين دواعي السمو كشرف النسب والحسب ، وطهر النفس ، والسخاء ، وفصاحة البيان ، وخاتم النبيين ، وبين التواضع التام ، فكان يرقع ثوبه ويخصف نعله ويجامل أهله والمستضعفين. قال ابن عطية : والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ، من لا يستشير أهل العلم والدين ، فعزله واجب. هذا مالا خلاف فيه. وقد مدح اللّه المؤمنين بقوله : وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ [الشورى ٤٢/ ٣٨].

ودل قوله تعالى وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالظنون ، مع إمكان الوحي فإن اللّه أذن لرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم في ذلك.

(١٥١/٤)

و هل الشورى ملزمة وواجبة على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أو من باب الندب تطييبا لقلوبهم ؟
اختلف الفقهاء على قولين ، والظاهر القول الأول لما
روي الإمام أحمد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال لأبي بكر : « لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما »

و

روى ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن العزم ، فقال : « مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم » .

ج ٤ ، ص : ١٤٤

و صفة المستشار- كما قال العلماء : إن كان في الأحكام أن يكون عالما ديّنا ، وقلما يكون ذلك إلا في عاقل. وصفة المستشار في أمور الدنيا : أن يكون عاقلا مجرّبا وادا في المستشير ، روى أبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه النسائي الحديث المتقدم عن أبي هريرة : « المستشار مؤتمن » .
والعزم في الآية- كما بينا- هو إمضاء الأمر وتنفيذه بعد المشاورة. ولا بد فيه من التوكل على اللّه ، والتوكل : الاعتماد على اللّه مع إظهار العجز. وقال قتادة : أمر اللّه تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على اللّه ، لا على مشاورتهم.
والنصر مرهون بتنفيذ الأوامر وإطاعة اللّه والقائد ، والخذلان وهو ترك العون الإلهي منتظر عند العصيان والمخالفة ، والمخذول : المتروك لا يعبأ به. فعليه توكلوا فإنه سبحانه إن يعنكم ويمنعكم من عدوكم لن تغلبوا ، وإن يخذلكم ويترككم من معونته لا ينصركم أحد من بعد خذلانه إياكم.
والتوكل على اللّه محقق لأمرين :
أحدهما- محبة اللّه للعبد : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ.
الثاني- كفاية الرحمن للإنسان : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ.
عدالة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في قسمة الغنائم ومهامه في إصلاح أمته [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦١ الى ١٦٤]

(١٥٢/٤)

وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

ج ٤ ، ص : ١٤٥

الإعراب :

وَما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ : أَنْ يَغُلَّ : اسم كان ، ولِنَبِيٍّ خبر كان ، والمعنى :

ما كان لنبي أن يخون.

هُمْ دَرَجاتٌ أي هم ذوو درجات عند اللّه ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

البلاغة :

وَما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ أي ما شأنه ، ونفي الشأن أبلغ من نفي الفعل.

أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ استعارة ، جعل ما شرعه اللّه كدليل الهداية إلى رضوانه ، وجعل العاصي كمن أمر أن يتبع شيئا فامتنع.

بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ التنكير للتهويل أي بسخط لا يوصف.

هُمْ دَرَجاتٌ على حذف مضاف أي ذوو درجات متفاوتة.

المفردات اللغوية :

أَنْ يَغُلَّ يخون في الغنيمة ، فلا تظنوا به ذلك. أي ما كان من شأن أي نبي أن يغل :

يأخذ شيئا من الغنيمة خفية لأن اللّه عصم أنبياءه من سفساف الأمور ، فلا يقع منهم ما لا يليق يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ حاملا له على عنقه اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ أي أطاع ولم يغل كَمَنْ باءَ رجع بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ أي بغضب عظيم ، لمعصيته وغلوله. وَبِئْسَ الْمَصِيرُ المرجع هي

ج ٤ ، ص : ١٤٦

هُمْ دَرَجاتٌ أصحاب درجات عِنْدَ اللَّهِ أي مختلفو المنازل ، فلمن اتبع رضوانه الثواب ، ولمن باء بسخطه العقاب وَاللَّهُ بَصِيرٌ أي يشاهد ويرى كل شي ء.

لَقَدْ مَنَّ أنعم وتفضل مِنْ أَنْفُسِهِمْ عربيا من جنسهم ، ليفقهوا كلامه ويشرفوا به.

وَيُزَكِّيهِمْ يطهرهم من الذنوب وأدران الوثنية والعقيدة الفاسدة الْكِتابَ القرآن وَالْحِكْمَةَ السنة النبوية مِنْ

قَبْلُ أي قبل بعثته لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي ضلال بيّن واضح لا ريب فيه.

سبب النزول :

أخرج أبو داود والترمذي وحسنه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء ، افتقدت يوم بدر ، فقال بعض الناس : لعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أخذها ، فأنزل اللّه : وَما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ.

وقال الكلبي ومقاتل : إن هذه الآية نزلت حين ترك الرماة المركز الذي وضعهم فيه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوم أحد ، طلبا للغنيمة ، وقالوا : نخشى أن يقول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : من أخذ شيئا من مغنم فهو له ، وألا يقسم الغنائم ، كما لم يقسمها يوم بدر ،

فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري ؟ فقالوا : تركنا بقية إخواننا وقوفا ، فقال لهم : بل ظننتم أنّا نغل ولا نقسم » « ١ » .

التفسير والبيان :

(١٥٤/٤)

تتابع الآيات في بيان صفات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ومهامه في إصلاح أمته ، فما كان من شأنه أن يخون ، بل وما كان لنبي أن يخون لأن اللّه عصم أنبياءهم عما لا يليق بمقامهم لأن النبوة منزلة عالية تربأ بصاحبها عن فعل ما فيه دناءة وخسة ، مما يدل على هول الاتهام والخطأ الصادر من المنافقين بنسبة الخيانة والغلول من المغنم للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو منه براء.

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٧٢- ٧٣

ج ٤ ، ص : ١٤٧

و كل من يخون فيأخذ شيئا من الغنائم خفية ، يأتي به يوم القيامة حاملا إياه على عنقه ، أي متحملا مسئولية فعله ووزر ما ارتكبه.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، أيدته السنة النبوية ،

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : « قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خطيبا ، فذكر الغلول وعظمه ، وعظم أمره ثم قال :

ألا لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، فيقول :

يا رسول اللّه ، أغثني ، فأقول له : لا أملك لك من اللّه شيئا ، قد أبلغتك.

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة « ١ » فيقول :

يا رسول اللّه ، أغثني ، فأقول لا أملك لك من اللّه شيئا ، قد أبلغتك.
لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق « ٢ » ، فيقول :
يا رسول اللّه ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك من اللّه شيئا ، قد أبلغتك.
لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت « ٣ » ، فيقول : يا رسول اللّه ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك من اللّه شيئا قد أبلغتك »
وهذا كله من قبيل تمثيل الذنب وثقله وفضيحة صاحبه ، وأنه يتحمل وزره يوم القيامة ، كما جاء في آية أخرى : وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ [الأنعام ٦/ ٣١].

فأخذ أي شيء بغير حق يستوجب العقاب ، كما قال تعالى حكاية عن لقمان :

---

(١) حمحمة الفرس : صوته دون الصهيل. والثغاء : صياح الغنم.
(٢) الرقاع : هي التي يكتب عليها ، وأراد بها ما عليها من الحقوق المكتوبة ، وخفوقها : حركتها.
(٣) الصامت : الذهب والفضة ، خلاف الناطق وهو الحيوان.

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ [لقمان ٣١/ ١٦].
ثم توفى كل نفس في الآخرة ما كسبت من خير أو شر ، فينال الغالّ وغيره جزاء فعله دون ظلم ، لا ينقص منه شيء ، كما قال تعالى : وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ : يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ ، لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها ، وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً [الكهف ١٨/ ٤٩].
ثم بين سبحانهنفي المساواة بين المحسن والمسيء ، فأخبر أن من اتقى اللّه وعمل صالحا لا يستوي مع من عصى اللّه وعمل سوءا ، أي فلا يستوي من اتبع رضوان اللّه فيما شرعه ، فاستحقّ به رضوان وجزيل ثوابه وأمن العذاب ، ومن استحق غضب اللّه وألزم به ، فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير. وهذا مثل قوله تعالى : أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً ، لا يَسْتَوُونَ [السجدة ٣٢/ ١٨] وقوله : أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص ٣٨/ ٢٨].

و إن لكل من أهل الخير وأهل الشر درجات ومنازل ، يتفاوتون فيها ، فللمتقين الطائعين درجات في الجنة ، وللعصاة دركات في النار ، فهم يتفاوتون في الجزاء بسبب تفاوت أعمالهم في الدنيا.

فأعلى الدرجات درجة النبي المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأسفل الدركات درك المنافقين : إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ [النساء ٤/ ١٤٥] واللّه تعالى بصير بأعمال العباد ، فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم بدءا من تزكية نفوسهم إلى أرفع الدرجات ، ومن إهمال التزكية إلى أسفل الدركات ، كما قال تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها [الشمس ٩١/ ٩- ١٠].

وسيوفيهم جزاء

ج ٤ ، ص : ١٤٩

أعمالهم ، لا يظلمهم خيرا ، ولا يزيدهم شرا ، بل يجازي كل عامل بعمله.

ثم بيّن تعالى ما امتن وتفضل به على الناس ، فأرسل نبيه محمدا متصفا بأوصاف ومكلفا بمهام هي :

- إنه عربي من ولد إسماعيل من جنس قومه ، مما يدعوهم إلى الاهتداء به والثقة برسالته ، فضلا عن أنهم شرفوا به ، كما قال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ [الزخرف ٤٣/ ٤٤] وتخصيصهم بالذكر يقتضيهم مزيد الانتفاع به ، وإن كان هو للناس كافة ، كما قال تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ [الأنبياء ٢١/ ١٠٧].

- إنه يتلو عليهم آيات اللّه الدالة على قدرته ووحدانيته وعلمه وكمال أوصافه ، كما أشار تعالى في آية : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ [آل عمران ٣/ ١٩٠].

- إنه يزكيهم ويطهرهم من زيف الوثنية وفساد العقيدة الجاهلية ، كاعتقادهم بتأثير الأصنام والأحجار ، وبدلالة الطير ، وغير ذلك من الأوهام والخرافات ، وينقلهم إلى معطيات العقل الصحيح والفكر الناضج ، والمدنية والحضارة ، وإقامة الدولة والإدارة والسياسة التي تفاخر العالم وتنافس المجتمع الدولي القائم ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم.

- إنه يعلمهم القرآن والسنة ، فيصبح منهم العلماء والكتاب والحكماء والقادة وأساتذة العلوم والمعارف والثقافات المتنوعة ، وإن كانوا من قبل هذا الرسول لفي غي وجهل ظاهر ، إذ كانوا أمة أمية ، فأصبحوا بنور الإسلام ، وعلم القرآن ، ومعرفة الحياة أمة متمدنة متحضرة نافست الأمم الأخرى

وسبقتهم.

ج ٤ ، ص : ١٥٠

و هذا يومئ إلى أن معرفة القرآن والسنة كانت للعرب مفتاح النور والعلم وتعلم أصول الحياة الراقية.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- إن الأنبياء على درجة عالية من السمو والأخلاق ، فما كان من شأن نبي أن يخون ، أو يجور في القسمة ، أو يأخذ شيئا من الغنائم بغير حق واضح ، فما كان من حقكم أن تتهموا نبيكم بتهمة باطلة.

روى الطبراني عن عمرو بن عوف حديثا : « لا إغلال ولا إسلال » أي لا خيانة ولا سرقة.

ومن خان وبّخه اللّه سلفا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ، ويعاقب على ذنبه ، وجعل اللّه تعالى هذه العقوبات حسبما يعهده البشر ويفهمونه.

والغلول كبيرة من الكبائر بدليل هذه الآية وحديث أبي هريرة المتقدم :

أنه يحمله على عنقه.

وإذا غلّ الرجل في المغنم ووجد لديه ، أخذ منه ، وأدّب وعوقب بالتعزير.

(١٥٨/٤)

و قال أحمد والأوزاعي وإسحاق : يحرق متاع الغالّ كله إلا سلاحه وثيابه التي عليه وسرجه ، ولا تنزع منه دابته ، ولا يحرق الشيء الذي غلّ ، عملا بحديث رواه أبو داود والترمذي عن عمر : « إذا وجدتم الرجل قد غلّ ، فأحرقوا متاعه ، واضربوه » لكن فيه صالح بن محمد بن زائدة ، وهو ضعيف لا يحتجّ به.

وعند مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم والليث : لا يحرق متاعه ، إذ لم يثبت ذلك في السنة النبوية.

ج ٤ ، ص : ١٥١

و تجوز العقوبة في المال ، بدليل أن عمر رضي اللّه عنه أراق لبنا شيب بماء ، وإذا باع الذمي خمرا لمسلم أريقت على المسلم ، وينزع الثمن من الذمي عقوبة له ، لئلا يبيع الخمر من المسلمين.

وأجمع العلماء على أن للغالّ أن يرد جميع ما غلّ إلى صاحب المقاسم قبل أن يفترق الناس إن وجد السبيل إلى الرد ، وأنه إذا فعل ذلك فهي توبة له ، وخروج عن ذنبه. فإن افترق العسكر دفع إلى الإمام خمسه ويتصدق بالباقي في رأي مالك والأوزاعي.

وفي تحريم الغلول دليل على اشتراك الغانمين في الغنيمة ، فلا يحل لأحد أن يستأثر بشيء منها دون

الآخر ، فمن غصب شيئا منها أدّب اتفاقا.

ومن الغلول : هدايا العمال أو الولاة ، وحكمه في الفضيحة في الآخرة حكم الغالّ ، بدليل حديث ابن اللتبية عند مسلم في صحيحة وأبي داود الذي فيه : « لا يأتي أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إن كان بعيرا فله رغاء ، وإن كانت بقرة فلها خوار أو شاة تبعر « ١ » »

و

روى أبو داود عن بريدة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا ، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » .

ومن الغلول : حبس الكتب عن أصحابها ، ويدخل غيرها في معناها.

(١٥٩/٤)

٢- من اتبع شرع اللّه بترك الغلول والصبر على الجهاد له في الجنة رتبة ، وتتفاوت درجات الطائعين. ومن عصى اللّه بكفر أو غلول أو تولى عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الحرب ، له في النار رتبة ، وتتفاوت دركات العصاة.

٣- إن بعثة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم تدل على عظيم منّة اللّه تعالى ، وخصائص النبي

---

(١) العيار : صوت الغنم والمعزى.

ج ٤ ، ص : ١٥٢

و مهامه تقتضي مبادرة العرب خاصة والناس كافة إلى الإيمان برسالته واتباع شريعته ، فهو من أقحاح العرب من بني إسماعيل ، وهو معلّم الكتاب والحكمة ، وهو مزكي النفوس ومطهرها من أدناس الجاهلية وأرجاسها في العقيدة والأخلاق ونظام الحياة. وليس أدل على فضله من تحول العرب بدعوته من الجاهلية الجهلاء إلى نور العلم والعرفان.

بعض أخطاء المؤمنين في غزوة أحد وبعض قبائح المنافقين [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٥ الى ١٦٨]

أَ وَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ

وَقَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٦٨)

الإعراب :

(٤/١٦٠)

الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ الَّذِينَ : إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هم الذين أو منصوب من ثلاثة أوجه : أن يكون وصفا للذين في قوله : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا أو بدلا منهم ، أو على تقدير : أعني.

ج ٤ ، ص : ١٥٣

البلاغة :

أَنَّى هذا استفهام إنكاري.

يوجد طباق بين لِلْكُفْرِ ولِلْإِيمانِ.

ويوجد جناس اشتقاق في قوله : أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ.

المفردات اللغوية :

أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ : ما أصابهم بأحد من غلبة المشركين عليهم وقتل سبعين منهم أي من المسلمين قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها أي ما وقع لهم ببدر بقتل سبعين من المشركين ، وأسر سبعين منهم. قُلْتُمْ متعجبين.

أَنَّى أي من أين لنا هذا ، وهو تركيب يفيد التعجب ، أي كيف يكون لنا هذا الخذلان ، ونحن مسلمون ، ورسول اللّه فينا ؟ ويراد بهذه الجملة الاستفهام الإنكاري.

قُلْ لهم. هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ أي من شؤم معصيتكم ، لأنكم تركتم المركز فخذلتم.

إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ومنه النصر ، وقد جازاكم ، بسبب مخالفتكم أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

الْجَمْعانِ جمع المؤمنين ، وجمع المشركين. فَبِإِذْنِ اللَّهِ أي بإرادته الأزلية وقضائه السابق بارتباط الأسباب بمسبباتها. فَادْرَؤُا فادفعوا عن أنفسكم. إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في دفع المكاره بالحذر وأن القعود ينجي من الموت.

سبب النزول : نزول الآية (١٦٥) :

أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ ... : أخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب قال :

عوقبوا يوم أحد بما صنعوا يوم بدر ، من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفرّ أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة (الخوذة) على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل اللّه : أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ الآية ، إلى قوله :

(٤/١٦١)

قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ قال : بأخذ الفداء.

المناسبة :

تستمر الآيات في بيان الأخطاء يوم أحد ، ففي الآيات السابقة أبان سبحانه

ج ٤ ، ص : ١٥٤

نسبة المنافقين الخيانة والغلول من المغنم إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ثم تبرئته من ذلك ، وهذه الآيات تبين أخطاء الغزاة قبل هذه الوقعة وبعدها وتصوراتهم المنافية للواقع وأقوالهم وأفعالهم المغلوطة.

التفسير والبيان :

هذه الآية معطوفة على ما مضى من قصة أحد من قوله تعالى : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ. ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف ، كأنه قيل : أفعلتم كذا ، وقلتم حينئذ كذا : أنى هذا ، من أين هذا ، وهو كقوله تعالى : أَنَّى لَكِ هذا [آل عمران ٣/ ٣٧].

والمعنى أنتم السبب فيما أصابكم لاختياركم الخروج من المدينة أو لتخليتكم المركز في جبل الرماة ، وعن علي رضي اللّه عنه : لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم.

والهمزة في قوله : أَوَلَمَّا للتقرير والتقريع ، فلا ينبغي لكم أيها المنافقون والغزاة أن تعترضوا وتقولوا تعجبا : كيف ومن أين جرى علينا هذا أو من أين حدث لنا هذا المصاب ؟ وهو ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم ، كأنهم يظنون أن النصر دائما في جانب المسلمين مهما عصوا وخالفوا أوامر اللّه ، مع أنهم أصابوا من المشركين في بدر ضعفي هذا العدد ، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين.

ثم أجابهم سبحانه وتعالى عن تساؤلهم موبخا ومقرعا : إن ما وقع حدث بشؤم معصيتكم ، وبسبب عصيانكم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حين أمركم ألا تبرحوا مكانكم ، فعصيتم أيها الرماة.

وكانت أوجه العصيان كثيرة : الخروج من المدينة وكان من رأي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم البقاء فيها ، وفشلكم وضعف رأيكم ، وتنازعكم ، وعصيانكم أوامر الرسول عليه

ج ٤ ، ص : ١٥٥

الصلاة والسلام بمفارقة المكان الذي طلب منكم الوقوف فيه لحماية ظهور المقاتلين. ومن المعلوم أن العقوبات نتائج لازمة للأعمال ، وأن اللّه وعدكم النصر بشرط ترك المعصية واتباع أوامر اللّه والرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ [محمد ٤٧/ ٧].

إن اللّه على كل شيء قدير ، أي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، فهو القادر على نصركم لو ثبتم وصبرتم ، وهو القادر على حجب النصر عنكم إن خالفتم وعصيتم ، وذلك كله خاضع لقانون ربط الأسباب بالمسببات ، وليس هناك شيء خارج عن القدرة الإلهية.

ثم أشار اللّه تعالى معزيا ومسليا إلى أن كل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقاء الجمعين : جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد ، فبإذن اللّه وإرادته وقضائه وقدره ، وله الحكمة في ذلك ، فما من شيء في الوجود إلا وهو خاضع لإرادته وحكمته.

ومن مظاهر الحكمة : أن يظهر اللّه علمه بحال المؤمنين من قوة الإيمان وضعفه ، والصبر والثبات وعدمه ، فيعلم الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ، ويعلم المنافقين أصحاب عبد اللّه بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في الطريق ، وكانوا ثلاثمائة رجل.

هؤلاء المنافقون إذا دعوا إلى القتال في سبيل اللّه ، أو إلى الدفاع عن النفس والأهل والوطن ، أجابوا : لو نعلم أنكم تلقون قتالا في غزوتكم لاتبعناكم وسرنا معكم ، ولكننا نعلم أنكم لا تقاتلون. وهذا يدل على تأصل النفاق في قلوبهم ، وأن غايتهم التلبيس والتدليس والاستهزاء وتعمية الحقائق ، مع أن جمع المشركين في أحد وخروج المسلمين لمقابلتهم قرينة قاطعة على إرادة القتال. روي أن الآية نزلت في عبد اللّه بن أبيّ بن سلول وأصحابه الذين خرجوا من المدينة في جملة

الألف الذين خرج بهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم رجعوا من الطريق ، وهم ثلاثمائة ليخذلوا المسلمين ويوقعوا فيهم الهزيمة.

إنهم بمقالتهم هذه : لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا أقرب إلى الكفر يومئذ منهم إلى الإيمان ، لظهور القرائن والأمارات برجوعهم وتصميمهم على إيقاع الهزيمة بالمسلمين ، فإن من يتخاذل عن الجهاد في سبيل اللّه والدفاع عن الأوطان عند هجوم الأعداء ليس من المؤمنين ، لقوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا ، وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [الحجرات ٤٩/ ١٥].

واستدلوا بآية هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان.

إنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته ، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وهذا شأن المنافقين ، ومنه قولهم : لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ فإنهم- كما بينا- يعلمون أن جندا من المشركين قد جاؤوا من

بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر ، وهم أضعاف المسلمين ، ويعلمون أنه كائن بينهم قتال لا محالة مما يدل على أنهم كاذبون في كل ما يقولون. ولهذا قال تعالى : وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ من الكفر والكيد للمسلمين ، وهذا تهديد واضح وافتضاح علني أنه لا ينفعهم النفاق ، فهو بضاعة مزجاة لأن اللّه أعلم بسرائرهم ونواياهم.

(١٦٤/٤)

و من أقوالهم أيضا بعد القتال في أحد أنهم قالوا لأجل إخوانهم الذين قتلوا في وقعة أحد : لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل ، وفي هذا دلالة على أنهم نصحوهم بالتراجع. أخرج ابن جرير الطبري عن السّدّي قال : خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في ألف رجل ، وقد وعدهم بالفتح إن

ج ٤ ، ص : ١٥٧

صبروا ، فلما خرجوا رجع عبد اللّه بن أبيّ في ثلاثمائة ، فتبعهم أبو جابر السّلمي يدعوهم ، فقالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، ولئن أطعتنا لترجعنّ معنا ، فنعى اللّه عليهم ذلك بقوله : الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ ....

فرد اللّه تعالى قولهم : قل يا محمد لهم : إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ، فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لا بد آت إليكم ، ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد عن جابر بن عبد اللّه : نزلت هذه الآية في عبد اللّه بن أبي بن سلول وأصحابه.

فقه الحياة أو الأحكام :

تعقد الآية (١٦٥) مقارنة بين نتائج غزوتي بدر وأحد ، محورها أن المسلمين أصيبوا إصابة شديدة يوم أحد بقتل سبعين منهم ، مع أنهم يوم بدر أصابوا من المشركين ضعفي ذلك العدد ، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين ، والأسير في حكم المقتول لأن الأسر يقتل أسيره للضرورة إن أراد ، وقد هزموا المشركين يوم بدر ، ويوم أحد أيضا في ابتداء المعركة ، وقتلوا منهم في يومين قريبا من عشرين.

ومن الخطأ قولهم : من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ، ونحن نقاتل في سبيل اللّه ، ونحن مسلمون ، وفينا النبي والوحي ، وهم مشركون! والسبب أن هزيمتهم كانت بسبب من أنفسهم ، وهو مخالفة الرماة ، وما من قوم أطاعوا نبيهم في حرب إلا نصروا لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب اللّه ، وحزب اللّه هم الغالبون.

(١٦٥/٤)

و مصابهم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة إنما هو بعلم اللّه وقضائه وقدره لحكمة في ذلك ، وهي تربيتهم وتحذيرهم من المخالفة ، وتمييز المؤمنين من المنافقين.

ج ٤ ، ص : ١٥٨

و الإشارة بقوله : نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ إلى عبد اللّه بن أبيّ وأصحابه الذين انصرفوا معه عن نصرة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكانوا ثلاثمائة ، فمشى في أثرهم عبد اللّه بن عمرو بن حرام الأنصاري ، أبو جابر بن عبد اللّه ، فقال لهم : اتقوا اللّه ولا تتركوا نبيّكم ، وقاتلوا في سبيل اللّه أو ادفعوا ، ونحو هذا من القول. فقال له ابن أبيّ : ما أرى أن يكون قتال ، ولو علمنا أن يكون قتال لكنا معكم. فلما يئس منهم عبد اللّه قال : اذهبوا أعداء اللّه ، فسيغني اللّه رسوله عنكم ، ومضى مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم واستشهد رحمه اللّه تعالى.

ودل قوله : أَوِ ادْفَعُوا على أن الدفاع عن الأوطان مثل القتال في سبيل اللّه ، وعلى أن تكثير سواد المسلمين وإن لم يقاتلوا معهم ، يكون دفعا وقمعا للعدو ، فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدو.

ويؤكده أن المرابط المستعد للقتال في ثغر إسلامي مدافع لأنه لولا مكان المرابطين في الثغور لجاء إليها العدو.

وكان موقف المنافقين هذا سببا في ظهور أمرين :

الأول- تبيان حالهم والكشف عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون ، فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال ، وإن كانوا كافرين على الحقيقة : هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ.

الثاني- إظهار كذبهم وعدم استحيائهم في الإتيان بالمغالطات ، فهم أظهروا الإيمان ، وأضمروا الكفر : يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ.

و من دلائل عدم إيمانهم أنهم قالوا لأجل إخوانهم- وهم الشهداء المقتولون من الخزرج ، وهم إخوة نسب ومجاورة ، لا إخوة دين- : لو قعدوا بالمدينة ما قتلوا.

ج ٤ ، ص : ١٥٩

و كان الرد القرآني مفحما لهم : إن صدقتم مع أنكم قاعدون في المدينة ، فادفعوا الموت عن أنفسكم ، وهذا يدل على أن الحذر لا يمنع القدر ، وأن المقتول يقتل بأجله ، وما علم اللّه وأخبر به كائن لا محالة. قال أبو الليث السمرقندي : سمعت بعض المفسرين بسمرقند يقول : لما نزلت الآية : فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ : مات يومئذ سبعون نفسا من المنافقين.

منزلة الشهداء المجاهدين في سبيل اللّه [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٩ الى ١٧٥]

وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

الإعراب :

فَرِحِينَ حال منصوب من ضمير يُرْزَقُونَ. أَلَّا خَوْفٌ بدل من بِالَّذِينَ.

ج ٤ ، ص : ١٦٠

وَ أَنَّ اللَّهَ قرئ بفتح أن وكسرها ، فمن فتحها عطفها على قوله : بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ ومن كسرها جعلها مبتدأة مستأنفة الَّذِينَ اسْتَجابُوا مبتدأ ، وخبره : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا. الَّذِينَ قالَ بدل من الَّذِينَ قبله ، أو نعت.

يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ تقديره : يخوفكم بأوليائه ، فحذف المفعول الأول وهو « كم » والباء من المفعول الثاني ، مثل قوله تعالى : لِيُنْذِرَ بَأْساً [الكهف ١٨/ ٢] وتقديره : لينذركم ببأس شديد.

البلاغة :

يوجد إطناب في يَسْتَبْشِرُونَ وفي لَنْ يَضُرُّوا وفي اسم الجلالة في مواضع ، ويوجد طباق في أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ.

المفردات اللغوية :

فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي لأجل دينه. يُرْزَقُونَ يأكلون من ثمار الجنة. يَسْتَبْشِرُونَ يفرحون ، الاستبشار : السرور الحاصل بالبشارة. بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ هم الذين بقوا في الدنيا من إخوانهم المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل اللّه. أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ أي يفرحون بألا خوف على الذين لم يلحقوا بهم. وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ في الآخرة ، المعنى يفرحون بأمنهم وفرحهم فَرِحِينَ مسرورين. بِنِعْمَةٍ ثواب. وَفَضْلٍ زيادة عليه. وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ بل يأجرهم.

اسْتَجابُوا أجابوا وأطاعوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أي أجابوا دعاءه بالخروج للقتال ، لما أراد أبو سفيان ، وأصحابه

العود ، وتواعدوا مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه سوق بدر العام المقبل من يوم أحد الْقَرْحُ
الألم الشديد والجراح في يوم أحد. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ
بطاعته ، والإحسان :
إتقان العمل على أكمل وجه. وَاتَّقَوْا مخالفته. أَجْرٌ عَظِيمٌ هو الجنة.

(١٦٨/٤)

قالَ لَهُمُ النَّاسُ أي نعيم بن مسعود الأشجعي. إِنَّ النَّاسَ أبا سفيان وأصحابه.
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ الجموع ليستأصلوكم. فَاخْشَوْهُمْ ولا تأتوهم. فَزادَهُمْ ذلك القول.
إيماناً تصديقا باللّه ويقينا.
حَسْبُنَا اللَّهُ كافينا أمرهم. وَنِعْمَ الْوَكِيلُ المفوض إليه الأمر ، وقد خرجوا مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فوافوا سوق بدر ، وألقى اللّه الرعب في قلب أبي سفيان وأصحابه ، فلم يأتوا ، وكان معهم تجارات فباعوا وربحوا.
فَانْقَلَبُوا رجعوا بسرعة ، أي من بدر. بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ بسلامة وربح. لَمْ
ج ٤ ، ص : ١٦١
يَمْسَسْهُمْ
من قتل أو جرح. إِنَّما ذلِكُمُ أي القائل لكم المثبط : إن الناس. الشَّيْطانُ المراد بالشيطان نعيم بن مسعود أو أبو سفيان. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف بمعنى : إن ذلكم قول الشيطان أي قول إبليس لعنه اللّه ، وهو الأولى.
يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ يخوفكم أنصاره من المشركين ، وهم أبو سفيان وأصحابه. وَخافُونِ في ترك أمري. إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حقا.
سبب النزول :
نزول الآية (١٦٩) :
وَلا تَحْسَبَنَّ :
روى أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل اللّه أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع اللّه لنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال اللّه : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل هذه الآية : وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا الآية وما بعدها ، وروى الترمذي عن جابر

نحوه.

نزول الآية (١٧(٢) :

الَّذِينَ اسْتَجابُوا :

(١٦٩/٤)

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال : إن اللّه قذف في قلب أبي سفيان الرعب بعد الذي كان منه يوم أحد ، فرجع إلى مكة ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفا ، وقد رجع وقذف اللّه في قلبه الرعب ، وكانت وقعة أحد في شوال ، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة ، فينزلون ببدر الصغرى ، وإنهم قدموا بعد وقعة أحد ، وكان أصاب المؤمنين القرح ، واشتكوا ذلك ، فندب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الناس ، لينطلقوا معه ، فجاء الشيطان فخوف أولياءه ، فقال : إن الناس قد جمعوا لكم ، فأبي عليه الناس أن يتبعوه ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم :

ج ٤ ، ص : ١٦٢

« إني ذاهب ، وإن لم يتبعني أحد » فانتدب معه أبا بكر وعمر وعثمان وعليا والزبير وسعدا وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد اللّه بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وأبا عبيدة بن الجراح في سبعين رجلا ، فساروا في طلب أبي سفيان ، فطلبوه حتى بلغوا الصفراء ، فأنزل اللّه : الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ الآية.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال : لما رجع المشركون من أحد ، قالوا : لا محمدا قتلتم ، ولا الكواكب أردفتم ، بئس ما صنعتم ، ارجعوا ، فسمع رسول اللّه ، فندب المسلمين ، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد ، أو بئر أبي عتبة ، فأنزل اللّه : الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ الآية. وقد كان أبو سفيان قال للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا ، فأما الجبان فرجع ، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال ، فأتوه ، فلم يجدوا به أحدا ، وتسوقوا فأنزل اللّه : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ الآية.

(١٧٠/٤)

و أخرج ابن مردويه عن أبي رافع أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وجه عليا في نفر معه في طلب أبي سفيان ، فلقيهم أعرابي من خزاعة ، فقال : إن القوم قد جمعوا لكم ، قالوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فنزل هذه الآية.

تاريخ غزوة حمراء الأسد :

روي أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد ، فبلغوا الرّوحاء (موضع بين مكة والمدينة) ندموا وهمّوا بالرجوع ، حتى يستأصلوا من بقي من المؤمنين ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج في إثر أبي سفيان وقال : لا يخرجنّ معنا إلا من حضر يومنا بالأمس ، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مع جماعة من أصحابه ، حتى بلغوا حمراء الأسد (موضع على ثمانية أميال من المدينة) وكان بأصحابه القراح (الجراح)

ج ٤ ، ص : ١٦٣

فتحاملوا على أنفسهم ، حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى اللّه الرعب في قلوب المشركين ، فذهبوا إلى مكة مسرعين ، فنزلت الآية.

وتسمى هذه الغزوة غزوة حمراء الأسد ، وهي تابعة لغزوة أحد.

تاريخ غزوة بدر الصغرى :

روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن آية الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ نزلت في غزوة بدر الصغرى.

وهي أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : ذاك بيننا وبينك إن شاء اللّه

، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل (مجنّة) من ناحية (مرّ الظهران) فألقى اللّه الرعب في قلبه ، فبدا له الرجوع ، فلقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا ، فقال له أبو سفيان :

إني وأعدت محمدا وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر ، وإن هذا عام جدب ، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لي أن أرجع ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج ، فيزيدهم ذلك جرأة ، فالحق بالمدينة فثبّطهم ، ولك عندي عشرة من الإبل أضعها في يدي سهيل بن عمرو.

فأتى نعيم المدينة ، فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان ، فقال لهم :

ما هذا بالرأي ، أتوكم في دياركم وقراركم ، ولم يفلت منكم إلا شريد ، فتريدون أن تخرجوا إليهم ، وقد جمعوا لكم الجموع عند الموسم ، فو اللّه لا يفلت منكم أحد ، فكان لكلامه وقع شديد في نفوس قوم منهم.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « و الذين نفسي بيده لأخرجنّ ولو وحدي » فخرج ومعه سبعون راكبا يقولون : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ حتى وافى بدرا

ج ٤ ، ص : ١٦٤

الصغرى « بدر الموعد » فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان
، فلم يلق أحدا لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة ، وكان معه ألفا رجل ، قسماه أهل مكة :
« جيش السويق » وقالوا لهم : إنما خرجتم لتشربوا السويق.
ووافي المسلمون سوق بدر ، وكانت معهم نفقات وتجارات ، فباعوا واشتروا أدما وزبيبا ، فربحوا وأصابوا بالدرهم الدرهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين.
المناسبة :
هذه الآيات متصلة بما قبلها ، فبعد أن ذكر اللّه تثبيط المنافقين للراغبين في الجهاد ، وقولهم : لو قعدوا في المدينة ما قتلوا : والرد عليهم بأن الموت يحدث بقضاء اللّه وقدره ، أبان هنا منزلة الشهداء ، حتى لا يتأثر أحد بأقوال المنافقين ، وليكون ذلك حثا على الجهاد في سبيل اللّه.
التفسير والبيان :
الآية في شهداء أحد.
يخبر اللّه تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في الدنيا ، فإن أرواحهم حية مرزوقة في الدار الآخرة ، والخطاب للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أو لكل أحد ، والمعنى :

لا تحسبن أيها السامع لقول المنافقين المتقدم أن الذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتا لا يجازون على أعمالهم التي قدموها ، بل هم أحياء في عالم آخر ، مقربون عند ربهم ، ذوو زلفى ، كقوله تعالى : فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ [فصلت ٤١/ ٣٨] ، يرزقون مثلما يرزق سائر الأحياء ، يأكلون ويشربون ، وهو تأكيد لكونهم أحياء ، ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعم برزق اللّه.
فالعندية (عند اللّه) هنا عنديّة كرامة ومكانة وتشريف ، وهي تقتضي
ج ٤ ، ص : ١٦٥
غاية القرب ، لا عندية مكان ومسافة وقرب وحدود. والحياة التي أثبتها القرآن الكريم للشهداء حياة غيبية ، لا ندرك حقيقتها ، ونؤمن بها كما أخبر القرآن ، وقوله : عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فيه حذف مضاف : تقديره : عند كرامة ربهم.
وهؤلاء الشهداء مسرورون بما رأوه من نعيم مقيم وفضل كبير ، وتفضيل على غيرهم ، بسبب الشهادة ، وهم مسرورون أيضا بإخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا بعد في سبيل اللّه ، وإنما هم على الطريق سائرون يقتفون أثر من تقدمهم من قوافل الشهداء ، حينما رأوا ما أعد لهم من الجزاء الحسن ، وهو الحياة الأبدية والنعيم الدائم الذي لا يكدره خوف من مكروه ولا حزن على ما فات.

وهم يفرحون أيضا بما يتجدد لهم من الثواب على عملهم والرزق والفضل الإلهي الذي يؤتيهم اللّه من الجنة ونعيمها- والفضل في هذه الآية : هو النعيم المذكور- وأن اللّه يأجرهم ، أي أنهم يستبشرون بنعمة من اللّه ، ويستبشرون بأن اللّه لا يضيع أجر المؤمنين.

وهذه الجملة بيان وتفسير لما تقدمها : أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ لأن من كان في نعمة اللّه وفضله لا يحزن أبدا ، ومن كانت أعماله مدخرا ثوابها لا يخاف العاقبة.

وذلك تحريض على الجهاد وترغيب في الاستشهاد.

(١٧٣/٤)

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لما أصيب إخوانكم يوم أحد ، جعل اللّه أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب ، في ظل العرش .. »

إلخ الحديث المتقدم.

ثم وصفهم اللّه بحسن أعمالهم الذي هو سبب زيادة ثوابهم ، فأخبر تعالى أن هؤلاء المجاهدين الذين استجابوا لدعوة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالذهاب للقاء أبي سفيان في

ج ٤ ، ص : ١٦٦

غزوة حمراء الأسد عقب غزوة أحد ، بالرغم مما كانوا عليه من جراح وآلام أصابتهم يوم أحد ، فلهم أجر عظيم يتناسب مع جهادهم وشجاعتهم.

وأشار بقوله : مِنْهُمْ إلى أن من استجاب حظي بهذا الفضل والأجر ، وأما الباقون فكانت لهم موانع وأعذار في أنفسهم أو أهليهم.

ثم أشاد تعالى أيضا بمن شارك في غزوة بدر الصغرى في العام المقبل بعد أحد ، بالرغم مما قال لهم الناس : أي نعيم بن مسعود الأشجعي الذي كان ما يزال مشركا : إن الناس أي أبا سفيان وأعوانه جمعوا لكم الجموع لقتالكم ، فاخشوهم وخافوهم ، ولا تخرجوا إليهم.

فزادهم هذا القول إيمانا باللّه وثقة بوعده ، وثباتا على دينه ، إذ إنهم خافوه ، ولم يخافوا تلك الجموع ، واعتمدوا على تأييد اللّه وعونه ونصره ، بعد أن صدقت نياتهم ، واشتدت عزائمهم للقاء المشركين مهما كانت النتائج ، وذلك مثل قوله تعالى في وصف المؤمنين في غزوة الخندق (الأحزاب) : وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا : هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً [الأحزاب ٣٣/ ٢٢].

(١٧٤/٤)

و قالوا معبّرين عن صدق إيمانهم باللّه : اللّه كافينا ما يهمنا من أمر الجموع ، ونعم الوكيل الذي فوضنا أمورنا إليه ، نعم المولى ونعم النصير. وهي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار « ١ » ، وقالها محمد صلّى اللّه عليه وسلّم حين قال أحد الناس : إن الناس (المشركين) قد جمعوا لكم فاخشوهم. ويستحب قولها عند الغم والمصيبة وإحاطة الداهية.

---

(١) روى البخاري عن ابن عباس قال : « كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار : حسبنا اللّه ونعم الوكيل » . [.....]

ج ٤ ، ص : ١٦٧

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إذا وقعتم في الأمر العظيم ، فقولوا : حسبنا اللّه ونعم الوكيل » « ١ » .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي اللّه عنها : « أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان إذا اشتد غمّه ، مسح بيده على رأسه ولحيته ، ثم تنفس الصّعداء ، وقال : حسبي اللّه ونعم الوكيل » .

ولما فوضوا أمورهم إلى اللّه واتكلوا عليه ، عادوا بأربعة جزاءات : النعمة من اللّه ، والفضل ، وصرف السوء ، واتباع ما يرضي اللّه فرضي عنهم ، أي لما توكلوا على اللّه وخرجوا للقاء عدوهم ، كفاهم ما أهمهم ، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ، وربحوا في تجارتهم ، ولم يصبهم قتل ولا أذى ، واتصفوا بطاعة رسولهم ورضا ربهم الذي هو أساس النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، واللّه صاحب الفضل العظيم عليهم إذ تفضل عليهم بزيادة الإيمان ، والتوفيق إلى الجهاد ، والحفظ من السوء الذي يضمره لهم عدوهم.

وفي هذا إشارة إلى خسارة القاعدين المتخلفين إذ حرموا ما حظي به غيرهم ، وهو معنى قوله تعالى : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ.

روى البيهقي عن ابن عباس في قول اللّه : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ قال : « النعمة : أنهم سلموا ، والفضل : أن عيرا مرت في أيام الموسم ، فاشتراها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فربح فيها مالا ، فقسمه بين أصحابه » .

وأخرج الطبري عن السدي قال : « أعطى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حين خرج في بدر الصغرى أصحابه دراهم ، ابتاعوا بها في الموسم ، فأصابوا ربحا كثيرا » .

ثم قال تعالى : إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ أي يخوفكم أولياءه ،

---

(١) هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وله مؤيدات كثيرة (انظر تفسير ابن كثير : ١/ ٤٣٠).

و يوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة ، فليس القول الذي قيل لكم : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ إلا من الشيطان الذي يخوفكم أنصاره المشركين ، ويوهمكم أنهم ذوو عدد كثير وأولو قوة وبأس شديد ، فلا تخرجوا إليهم.

و لكن عليكم أيها المؤمنون إذا سول لكم الشيطان أمرا وأوهمكم ، فتوكلوا علي ، والجؤوا إلي ، فإني كافيكم وناصركم ، كما قال تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إلى قوله : قُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ [الزمر ٣٩/ ٣٦- ٣٨] وقال : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة ٥٨/ ٢١] وقال : وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ [الحج ٢٢/ ٤٠] وقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ [محمد ٤٧/ ٧] وقال أيضا : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ ، يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر ٤٠/ ٥١- ٥٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت آية الشهداء : وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا .. وما بعدها على ما يأتي :

١- إن من لم ينهزم أمام العدو ، وصبر وثبت ، وقاتل حتى قتل ، له منزلة عالية عند اللّه ، وهي منزلة الشهداء ، وهي الكرامة والحياة عند اللّه. فهم أحياء في الجنة يرزقون ، وأرواحهم حيّة كأرواح سائر المؤمنين ، وإن ماتوا ودفنت أجسادهم في التراب. وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل ، حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم.

والذي عليه معظم المفسرين أن حياة الشهداء محققة ، ولكنها من نوع خاص ، فإما أن ترد إليهم أرواحهم في قبورهم فينعّمون ، وإما أنهم يرزقون من

ثمر الجنة ، أي يجدون ريحها وليسوا فيها. وقيل : إن هذا مجاز ، والمعنى أنهم في حكم اللّه مستحقون للتنعم في الجنة.

و الصحيح من الأقوال : أرواحهم في أجواف طير خضر ، وأنهم يرزقون في الجنة ، ويأكلون ويتنعمون.

٢- غسل الشهداء وتكفينهم والصلاة عليهم : للعلماء رأيان :

قال الحنفية : يكفن الشهيد بثيابه ، ويصلى عليه ، ولا يغسل إذا كان مكلفا طاهرا ، وأما الجنب والحائض والنفساء إذا استشهدوا ، فيغسلون عند أبي حنيفة ، كما يغسل الصبي والمجنون ، وقال الصاحبان : لا يغسّلون. والدليل على عدم التكفين وعدم الغسل

حديث جابر عند البخاري : « ادفنوهم بدمائهم »

و

في رواية الشافعي وأحمد والبيهقي والنسائي : « زمّلوهم بدمائهم »

يعني يوم أحد ولم يغسّلهم. و

قد صلّى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على شهداء أحد اثنتين وسبعين صلاة.

وقال الجمهور : لا يغسل الشهيد ولا يكفن ولا يصلى عليه ، ولكن تزال النجاسة الحاصلة من غير الدم لأنها ليست من أثر الشهادة بدليل

حديث جابر المتفق عليه : « أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أمر بدفن شهداء أحد في دمائهم ، ولم يغسلهم ، ولم يصل عليهم » .

وأجمع العلماء على أن الشهيد إذا حمل حيا ، ولم يمت في المعترك ، وعاش وأكل ، فإنه يصلّى عليه ، كما قد صنع بعمر رضي اللّه عنه.

وأما من قتل مظلوما كقتيل الخوارج وقطاع الطرق وشبه ذلك ، فقال أبو حنيفة والثوري : كل من قتل مظلوما لم يغسّل ، ولكنه يصلى عليه وعلى كل شهيد. وقال الجمهور : يغسل كجميع الموتى إلا من قتله أهل الحرب.

وأما إذا صبّح العدو قوما في منزلهم ولم يعلموا به فقتل منهم ، فيغسلون ويكفنون ويصلى عليهم لأنهم لم يقتلوا في المعترك بين الصفين.

٣- القتل في سبيل اللّه والشهادة فيه له ثواب عظيم عند اللّه ، حتى إنه يكفّر

ج ٤ ، ص : ١٧٠

الذنوب ، كما

قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « القتل في سبيل اللّه يكفّر كل شيء إلا الدّين » « ١ »

و هذا تنبيه على ما في معنى الدين من الحقوق الشخصية المتعلقة بالذمم ، كالغصب وأخذ المال بالباطل وقتل العمد وجراحة وغير ذلك من التّبعات ، فإن كل هذا أولى ألا يغفر بالجهاد من الدّين ، فإنه أشد ، والقصاص في هذا كله بالحسنات والسيئات ، حسبما وردت به السنة الثابتة ، منها حديث مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « أ تدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي : من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » .

و

في حديث صحيح آخر رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « نفس المؤمن معلّقة ما كان عليه دين » .

والدّين الذي يحبس به صاحبه عن الجنة- واللّه أعلم- : هو الذي قد ترك له وفاء ولم يوص به ، أو قدر على الأداء فلم يؤدّه ، أو ادّانه في سرف ، أو في سفه ، ومات ولم يوفّه. وأما من ادّان في حق واجب لفاقة وعسر ، ومات ولم يترك وفاء ، فإن اللّه لا يحبسه عن الجنة إن شاء اللّه لأن على السلطان فرضا أن يؤدّي عنه دينه ، إما من جملة الصدقات ، أو من سهم الغارمين ، أو من الفيء الراجع على المسلمين ،

قال صلّى اللّه عليه وسلّم في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة : « من ترك دينا أو ضياعا (عيالا) فعلى اللّه ورسوله ، ومن ترك مالا فلورثته » .

٤- الرزق في قوله تعالى : عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ هو الرزق المعروف في العادات ، وهو المعنى الحقيقي للفظ. ومن قال : هي حياة الذكر ، قال :

يرزقون الثناء الجميل ، وهو معنى مجازي.

)

---

(١) رواه مسلم عن عبد اللّه بن عمرو بلفظ « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدّين » .

ج ٤ ، ص : ١٧١

٥- قال السدي في آية وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ .. : يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر من يقدم عليه من إخوانه

، فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدومه في الدنيا. وقال قتادة وابن جريج والربيع وغيرهم : استبشارهم بأنهم يقولون :

إخواننا الذين تركنا خلفنا في الدنيا ، يقاتلون في سبيل اللّه مع نبيهم ، فيستشهدون فينالون من الكرامة مثل ما نحن فيه ، فيسرّون ويفرحون لهم بذلك.

٦- الفضل في قوله تعالى : يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ .. لزيادة البيان ، والفضل داخل في النعمة ، وفيه دليل على اتساعها ، وأنها ليست كنعم الدنيا. وقيل : جاء الفضل بعد النعمة على وجه التأكيد.

روى الترمذي عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « للشهيد عند اللّه ست خصال « ١ » : يغفر له في أول دفعة « ٢ » ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار : الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفّع في سبعين من أقاربه »

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب.

وما تضمنه الحديث تفسير للنعمة والفضل.

٧- أشارت آية : الَّذِينَ اسْتَجابُوا .. إلى أن الصحابة الذين تابعوا القتال ومطاردة أبي سفيان وجماعته في « حمراء الأسد » لإرهاب العدو ، وكان عددهم سبعين رجلا ، استحقوا المديح والثناء من اللّه تعالى لسببين : إطاعة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فيما ندبهم إليه من الخروج معه ، وتحاملهم على أنفسهم بالرغم مما فيهم من جراح وآلام شديدة مبرّحة أصابتهم في وقعة أحد.

)

---

(١) كذا في الترمذي وابن ماجه : « ست » وهي في العدد : سبع ، وفي حاشية السندي على ابن ماجه : قوله : ست خصال ، المذكورات سبع إلا أن يجعل الإجازة والأمن من الفزع واحدة.

(٢) الدفعة بالضم مثل الدفقة : ما دفع من إناء أو سقاء ، فانصب بمرة واحدة.

ج ٤ ، ص : ١٧٢

٨- أرشدت آية : الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إلى أن المؤمن الصادق لا يكون جبانا ، فالجبن لا يجتمع مع الإيمان لأن علته : الخوف من الموت والحرص على الحياة ، وهما بعيدان عن المؤمن ، وكان الصحابة الذين ذهبوا مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في العام التالي لأحد في بدر الصغرى مثلا عالية للشجاعة

والتضحية والجرأة في سبيل اللّه.

٩- ودلت هذه الآية أيضا على أن المؤمن يمكنه التخلص من عوامل الخوف ، فيقول : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ أي كافينا اللّه.

١٠- قوله تعالى : فَزادَهُمْ إِيماناً أي فزادهم قول الناس إيمانا ، أي تصديقا ويقينا في دينهم ، وقوة وجرأة واستعدادا ، يومئ إلى أن الإيمان يزيد بالأعمال الصالحة.

ويرى العلماء في زيادة الإيمان ونقصه : أن أصل الإيمان وجوهره وهو التصديق شيء واحد ، لا يدخل فيه زيادة إذا حصل ، ولا يبقى منه شيء إذا زال. وأما الزيادة والنقصان ففي متعلّقاته دون ذاته. والذي عليه الجمهور : أن الإيمان يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه ،

لحديث مسلم والترمذي : « الإيمان بضع وسبعون بابا ، فأعلاها قول : لا إله إلا اللّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »

وهذه الزيادة في رواية مسلم فقط.

١١- وآية فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ يراد بها كما قال العلماء : لما فوضوا أمورهم إليه ، واعتمدوا بقلوبهم عليه ، أعطاهم من الجزاء أربعة معان : النعمة ، والفضل ، وصرف السوء ، واتباع الرضا ، فرضّاهم عنه ، ورضي عنهم.

(١٨١/٤)

١٢- يشير قوله تعالى : فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ .. إلى أن الخوف يجب أن يكون من اللّه فقط ، لا من الأعداء ، وأن أولياء اللّه لا يخافون الشيطان إذا خوّفهم ، وإنما يخوف أولياءه المنافقين ، ليقعدوا عن قتال المشركين.

ج ٤ ، ص : ١٧٣

فالإيمان الصادق يحمل صاحبه على الخوف من اللّه وحده ، وقد مدح اللّه المؤمنين بالخوف ، فقال : يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ [النحل ١٦/ ٥٠]. و

في سنن ابن ماجه عن أبي ذرّ قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطّت « ١ » السماء ، وحقّ لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا للّه ، واللّه لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصّعدات « ٢ » تجأرون « ٣ » إلى اللّه » قال أبو ذر : « و اللّه لوددت أني كنت شجرة تعضد « ٤ » » .

إزالة الحزن من قلب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد أحد ومناقشة الكفار والبخلاء وتمييز الخبيث من الطيب [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٧٦ الى ١٨٠]

(١٨٢/٤)

وَ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (١٧٨) ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

---

(١) أطت السماء : صوتت.

(٢) الصعدات : الطرق.

(٣) تجأرون : رفع الأصوات بالدعاء متضرعين.

(٤) تعضد : تقطع بالمعضد كالمنجل.

ج ٤ ، ص : ١٧٤

الإعراب :

وَلا يَحْزُنْكَ قرئ بفتح الياء وضمها ، فمن قرأ بالفتح جعله من حزنه وهو فعل ثلاثي ، ومن قرأ بالضم جعله من أحزنه ، وهو فعل رباعي.

(١٨٣/٤)

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَحْسَبَنَّ : قرئ بالياء والتاء ، فمن قرأ بالياء كان الَّذِينَ كَفَرُوا في موضع رفع بأنه فاعل يَحْسَبَنَّ ، وتقديره : ولا يحسبن الكافرون. والَّذِينَ اسم موصول ، والهاء المحذوفة من نُمْلِي هي العائد إليه. وخَيْرٌ خبر أن ، وأن وما عملت فيه سدت مسدّ المفعولين. ومن قرأ بالتاء كان الَّذِينَ المفعول الأول ، وأَنَّما وما بعدها بدلا من الَّذِينَ وسدّ مسد المفعول الثاني ، وما بمعنى الذي ، وتكون ما ونملي مصدرا.

وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ يَحْسَبَنَّ : قرئ بالياء والتاء ، فمن قرأ بالياء فموضع الَّذِينَ يَبْخَلُونَ رفع لأنه فاعل حسب ، وحذف المفعول الأول لدلالة الكلام عليه.

وهُوَ ضمير فصل عند البصريين ، وعماد عند الكوفيين. وخَيْراً مفعول ثاني منصوب.

وتقديره : ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم اللّه من فضله البخل خيرا لهم. ومن قرأ بالتاء فموضع الَّذِينَ يَبْخَلُونَ نصب لأنه مفعول أول على تقدير حذف مضاف تقديره : ولا تحسبن بخل الذين يبخلون. وهُوَ فصل. وخَيْراً هو المفعول الثاني.

البلاغة :

يوجد استعارة في اشْتَرَوُا الْكُفْرَ وفي يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ وفي الْخَبِيثَ والطَّيِّبِ إذ يراد به المؤمن والمنافق. ويوجد طباق في الْكُفْرَ ، بِالْإِيْمانِ

المفردات اللغوية :

وَلا يَحْزُنْكَ يكدرك ويؤلمك ، من حزن بمعنى أحزن يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ يبادرون

في نصرته ، وهم أهل مكة أو المنافقون ، أي لا تهتم لكفرهم. حَظًّا نصيبا من الثواب فِي الْآخِرَةِ في الجنة ، فلذلك خذلهم.

اشْتَرَوُا الْكُفْرَ أخذوا الكفر بدل الإيمان ، كما يفعل المشتري بمبادلة المبيع بالثمن.

نُمْلِي نمهل ، والإملاء : الإمهال لَهُمْ بتطويل الأعمار وتأخيرهم.

لِيَزْدادُوا إِثْماً بكثرة المعاصي أي لتكون عاقبتهم زيادة الإثم. وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ذو إهانة في الآخرة.

يَمِيزَ أي يميّز ويفرز ويفصل الْخَبِيثَ المنافق مِنَ الطَّيِّبِ المؤمن ، أي ليظهر الفارق الواضح بين المنافق والمؤمن بالتكاليف الشاقة ، كما في يوم أحد.

وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ فتعرفوا المنافق من غيره قبل التمييز.

يَجْتَبِي يختار ويصطفي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فيطلعه على غيبه ، كما أطلع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على حال المنافقين وَتَتَّقُوا النفاق آتاهُمُ أعطاهم من مال غيره سَيُطَوَّقُونَ أي سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق ما بَخِلُوا بِهِ أي بزكاته يَوْمَ الْقِيامَةِ بأن يجعل حية في عنقه تنهشه كما ورد في الحديث. وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يرثهما بعد فناء أهلهما والميراث : ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فيجازيكم به.

سبب النزول :

نزول الآية (١٧٩) :

ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ :

قال السدي : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : عرضت عليّ أمتي في صورها كما عرضت على آدم ، وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر ، فبلغ ذلك المنافقين فاستهزؤوا وقالوا : يزعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ، ونحن معه ولا يعرفنا ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

وقال الكلبي : قال قريش : تزعم يا محمد أن من خالفك فهو في النار ، واللّه عليه غضبان ، وأن من اتبعك على دينك فهو من أهل الجنة ، واللّه عنه راض ، فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن بك ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

ج ٤ ، ص : ١٧٦

و قال أبو العالية : سأل المؤمنون أن يعطوا علامة يفرق بها بين المؤمن والمنافق ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية « ١ » .

سبب نزول الآية (١٨٠) :

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ .. جمهور المفسرين على أنها أنزلت في مانعي الزكاة. وروى عطية عن ابن عباس أن الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ونبوّته ، وأراد بالبخل : كتمان العلم الذي آتاهم اللّه تعالى « ٢ » .

المناسبة :

أدى انتصار المشركين في أحد وإصابة المؤمنين بشيء كثير من الأذى ، إلى استغلال المنافقين تلك النتيجة ، فصاروا يقولون : لو كان محمد نبيا ما قتل ولا هزم ، وإنما هو طالب ملك ، فتارة ينتصر وتارة ينهزم ، وبادروا في نصرة الكفار وتثبيط المؤمنين عن القتال ، فتألم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وحزن ، فنزلت هذه الآيات تسري عنه وتزيل الحزن من نفسه ، كما سرّى عنه حينما أعرض الكافرون عن الإيمان ، وطعنوا في القرآن أو شخصه ، في قوله تعالى : وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً [يونس ١٠/ ٦٥] وقوله : فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً [الكهف ١٨/ ٦].

التفسير والبيان :

يخاطب اللّه تعالى نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم لشدة حرصه على الناس : لا يحزنك أيها الرسول مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق ومناصرة الكفر ، كأبي سفيان وغيره من أهل مكة ، واليهود

والمنافقين.

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٧٥- ٧٦

(٢) المرجع السابق : ص ٧٦

ج ٤ ، ص : ١٧٧

إنهم لن يضروا أولياء اللّه وهم النبي وصحته شيئا من الضرر ، وإنما يضرون أنفسهم ، ويحاربون اللّه تعالى ويستعدونه عليهم والدائرة تكون عليهم ، ويحرمون من ثواب اللّه تعالى في الآخرة ، ولهم عذاب عظيم لا يعرف قدره ، واللّه يعاقبهم على فعلهم لا يظلمهم ، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وضلالهم ومناصرتهم ملة الكفر ومقاومة المؤمنين : وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ.

[فاطر ٣٥/ ٤٣] وهذا يدل على أنه لا يؤبه بهم ولا يخشى خطرهم.

وهي مثل قوله تعالى : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ ، لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، مِنَ الَّذِينَ قالُوا : آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ [المائدة ٥/ ٤١].

وهذا لا يقتصر عليهم ، وإنما هو حكم عام مقرر يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان ، لذا قال : إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان لن يضروا اللّه شيئا ، ولكن يضرون أنفسهم ، ولهم عذاب مؤلم شديد الألم في الدنيا والآخرة.

وهي تشبه آية أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ ، نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ [المؤمنون ٢٣/ ٥٥] وآية : فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ [القلم ٦٨/ ٤٤] وآية : وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ ، إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ [التوبة ٩/ ٨٥].

ثم بيّن تعالى استدراج الكافرين وإمهالهم لوقت معين ، فأخبر أنه لا يحسبن هؤلاء الكفار أن إمهالنا لهم وإطالة أعمارهم خير لأنفسهم لأنهم لا يستغلون العمر في عمل الخير ، وإنما يستغلونه في الشر ، فتكون عاقبتهم ازدياد الإثم على الإثم ، والمبالغة في الباطل والبهتان ، ولهم عذاب مهين : ذو إهانة وإذلال لهم ، أي إنما هو معدّ لهم.

ولا يظنن الكفار أن إمهالنا يقصد به ازدياد الإثم كما يفعلون ، وإنما الإمهال

ج ٤ ، ص : ١٧٨

لهم هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان ، لا لزيادة الإثم وللتعذيب ، فيكون الإملاء خيرا لهم ، ولكن علم اللّه سابقا أن بعضهم لن يعود إلى دائرة الحق والخير والرشاد ، فهؤلاء لهم عذاب مهين.

قال الزمخشري في قوله : أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ : ما : هذه حقها أن تكتب متصلة لأنها كافة ، دون الأولى. وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها ، كأنه قيل : ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيرا لهم ؟ فقيل : إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً.

فإن قلت : كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضا للّه تعالى في إملائه لهم ؟

قلت : هو علة للإملاء ، وما كل علة بغرض ، فلو قلت : قعدت عن الغزو للعجز والفاقة ، وخرجت من البلد لمخافة الشر ، ليس شيء منها بغرض لك ، وإنما هي علل وأسباب ، فكذلك ازدياد الإثم جعل علة للإمهال وسببا فيه.

فإن قلت : كيف يكون ازدياد الإثم علة للإملاء ، كما كان العجز علة للقعود عن الحرب ؟ قلت : لما كان في علم اللّه المحيط بكل شيء أنهم مزدادون إثما ، فكأن الإملاء وقع من أجله وبسببه ، على طريق المجاز « ١ » .

(١٨٨/٤)

و الخلاصة : إن هذا الإمهال والتأخير ليس عناية من اللّه بهم ، وإنما هو قد جرى على سنته في الخلق : بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر ، فإنما هو ثمرة عمله. ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يغتر الإنسان بهذا الإمهال ، ويسترسل في فجوره ، فيوقعه ذلك في الإثم ، الذي يترتب عليه العذاب المهين « ٢ » .

ثم بيّن اللّه تعالى أن المحن والشدائد تظهر صدق الإيمان ، وأنه لا بد من أن

---

(١) الكشاف : ١/ ٣٦٤

(٢) تفسير المنار : ٤/ ٢٠٥ ، تفسير المراغي : ٤/ ١٤١

ج ٤ ، ص : ١٧٩

يعقد شيئا من المحنة ، يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه ، فلا يترك الناس على مثل حالتهم يوم أحد ، حتى يميز المؤمن من المنافق ، ويعرف المؤمن الصابر والمنافق الفاجر ، كما قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ [محمد ٤٧/ ٣١].

يقصد به أن يوم أحد كان اختبارا امتحن اللّه به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم للّه ولرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهتك به ستار المنافقين ، فظهرت مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد ، وخيانتهم للّه ولرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم.

(١٨٩/٤)

و قد يفكر بعض الناس أن تمييز المؤمن الصادق من المنافق يحدث بالوحي وبأن يطلع اللّه المؤمنين على الغيب ، فأجاب اللّه تعالى : لم يكن من شأنه تعالى أن يطلع عامة الناس على الغيب ، وإنما خلق الإنسان وقدر له أن يصل إلى مراده بعمله الكسبي الذي ترشد إليه الفطرة ويهدي إليه الدين وتدل عليه النبوة ، فهو تعالى يختار من رسله من يشاء ، ويطلعه على بعض المغيبات ، كما قال سبحانه : عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ، إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ [الجن ٧٢/ ٢٦- ٢٧] ثم يخبر الرسول بعض الناس بنفاق رجل وإخلاص آخر ، فيكون مصدر ذلك الخبر هو اطلاع اللّه على كفر أناس وإيمانهم ، لا أنه يطلعه على ما في القلوب اطلاع اللّه.

ثم يترك الناس لتمييز المؤمن منهم والمنافق بواسطة الأسباب الكاشفة عن ذلك.

لذا يجب عليكم الإيمان باللّه والرسل ومنهم محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإطاعة اللّه والرسول واتباعه فيما شرع لكم ، والاعتقاد بأن الرسل لا يخبرون عن شيء إلا بما أخبرهم اللّه به من الغيوب.

وهذا رد على الكافرين ، قال السّدّي : قال الكافرون : إن كان محمد صادقا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر ، فنزلت.

ج ٤ ، ص : ١٨٠

و إن تؤمنوا بما جاؤوا به من أخبار الغيب ، وتتقوا اللّه بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، فلكم ثواب عظيم لا يستطيع أحد تحديد مقداره.

ويلاحظ أن القرآن يقرن دائما بين الإيمان والتقوى ، كما يقرن بين الصلاة والزكاة ، لتلازمهما والاعلام بأن الإيمان لا يكتمل إلا بهما ، ويقرن أيضا بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال.

وبما أن الآيات السابقة كانت في الحث على الجهاد والتحريض على بذل النفس ، أعقب ذلك الحث على بذل المال في الجهاد.

(١٩٠/٤)

فلا يظنّ أحد أن بخل البخلاء خير لهم بكنز المال وادخاره ، وأن الجود والإنفاق يفقر ، وإنما هو شر عظيم على الأمة والفرد في الدنيا والآخرة ، والمراد بالبخل : حجب الزكاة المفروضة عن المستحقين ، وعدم الصدقة عند رؤية حاجات المحتاجين.

أما ضرر البخل في الدنيا فتعريض مال الغني للضياع والنهب والسرقة والأحقاد ، وفي عصرنا وغيره ظهور الحملات الشنيعة على الأغنياء المترفين ، وانتشار الأفكار والنظريات المسماة بالاشتراكية التي ظهرت لتقويض أركان الرأسمالية.

وأما ضرره في الآخرة والدين : فهو ما أخبر عنه تعالى بأنهم سيلزمون وبال بخلهم وعاقبة شحهم إلزام الطوق في العنق ، فلا يجدون مناصا ولا مهربا من توجيه اللوم والسؤال والعقاب على فعلهم.

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من آتاه اللّه مالا ، فلم يؤد زكاته ، مثّل له شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوّقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه- أي شدقيه- ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية : وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ .. إلى آخر الآية.

ج ٤ ، ص : ١٨١

و الحقيقة أن للّه ما في السموات والأرض مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره ، فكيف يصح لقوم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه في سبيله. وهذا مثل قوله تعالى : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ [الحديد ٥٧/ ٧] فإن الأمور كلها مرجعها إلى اللّه عز وجل ، فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ، واللّه خبير بنياتكم وضمائركم وأعمالكم ، لا تخفى عليه خافية منها ، ويجازي كل نفس بما كسبت من خير أو سوء.

فقه الحياة أو الأحكام :

لا داعي للغم والحزن على مناصرة الكفار واليهود والمنافقين ألوان الكفر ، فهم لن يضروا إلا أنفسهم ، بتعريضها للعذاب الشديد ، وبالإعلام عن سوء تصرفهم وسخف عقولهم وخطأ رأيهم ، ولن يضروا بالتأكيد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإن المطلوب منه هو الإبلاغ ، واللّه مؤيده وناصره وحافظه وعاصمه من الناس.

لكن قال القشيري : والحزن على كفر الكافر طاعة ، ولكن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يفرط في الحزن على كفر قومه ، فنهي عن ذلك ، كما قال : فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ [فاطر ٣٥/ ٨]

وقال : فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً [الكهف ١٨/ ٦].
ولن يضروا اللّه شيئا أي لا ينقصون من ملك اللّه وسلطانه شيئا بكفرهم.
وقد أكد تعالى هذا المعنى في كلتا الآيتين (١٧٦ ، ١٧٧) فهم سواء بادروا إلى نصرة الكفر ، أو أخذوا الكفر بدلا عن الإيمان ، لن يضروا اللّه شيئا قليلا ولا كثيرا ، وإنما يضرّون أنفسهم بما أوجبوا لها من العذاب الأليم.
واللّه تعالى لا يعجل أحدا بعقوبة على ذنب ولو كان الذنب كالكفر كبيرا ، وإنما يمهله ويزيد في عمره ويوفر له رغد العيش ليتوب ويتمكن من العمل الصالح ، فكأن شأن الإمهال وإطالة العمر أن يحقق الأثر المنشود وهو الإيمان

ج ٤ ، ص : ١٨٢

و طاعة اللّه والرسول وزيادة الحسنات ، والإقلال من السيئات ، ولكن الأمر في واقع الناس مفهوم خطأ ، فاستمروا في غيهم وضلالهم وكفرهم ، وتوهموا أن زيادة العمر ورغد العيش وإرجاء العذاب عنهم هو خير لهم ، مع أنه شر مستطير وسبب لزيادة الإثم والذنب ، واستحقاق العذاب الأليم جزاء وفاقا.

(١٩٢/٤)

لا يحسبن هؤلاء الذين يخوفون المسلمين ويشككونهم في جدوى الإيمان والعمل الصالح أنهم يفعلون خيرا ، فإن اللّه قادر على إهلاكهم ، ولا يظنون أن ما أصابوه من ظفر يوم أحد كان خيرا لهم ، وإنما كان ذلك سببا في زيادة عقوبتهم. قال ابن مسعود : ما من أحد برّ ولا فاجر إلا والموت خير له لأنه إن كان برّا فقد قال اللّه تعالى : وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ [آل عمران ٣/ ١٩٨] وإن كان فاجرا فقد قال اللّه : إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً.
وفي الشدائد والمحن اختبار مدى صدق الإيمان ، فبها يتميز المؤمن والمنافق ، وحينئذ ينكشف حال المنافقين فيحذرهم المسلمون ، ويقدرون مدى ما لديهم من القوة الصحيحة التي يمكن الاعتماد عليها ، بل إن المحنة توضح مدى إيمان المؤمن ، فلا يغتر بالظواهر ، ويقف على حقيقة حاله من ضعف في الاعتقاد ، وفساد في الأخلاق ، ومرض في النفس.
والاطلاع على الغيب مقصور على الأنبياء والرسل ، فهم أهل الكرامة والمرتبة العالية التي تؤهلهم لذلك الاطلاع ، وما على الناس إلا أن يؤمنوا بما جاء به الرسل من أخبار الغيب ، ويتقوا اللّه حق تقاته بامتثال المأمورات وترك المنهيات والمحظورات. ولا يشتغل الكفار بما لا يعنيهم من تعريفهم بمن يؤمن منهم ومن لا يؤمن ، وعليهم الاشتغال بما يعنيهم وهو الإيمان أي التصديق واليقين لا التشوف إلى

اطلاع الغيب ، فإن آمنوا واتقوا لهم الجنة.

ودلت آية وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ .. على ما يأتي :

ج ٤ ، ص : ١٨٣

١- لا يحسبن الباخلون البخل خيرا لهم ، بل هو شر لهم لأنهم ببخلهم يعرّضون أموالهم للضياع والتلف والسرقة وغيرها ، ويضرون أمتهم لتقصيرهم بما يجب عليهم من التكافل الاجتماعي والتعاون على القضاء على ظاهرة الفقر ، والفقر يضر بالأمة جمعاء ، وحياة الأمم متوقفة على بذل النفس والمال.

(١٩٣/٤)

و الفرق بين البخل والشح : أن الأول : هو الامتناع من إخراج ما حصل عندك ، والثاني : الحرص على تحصيل ما ليس عندك. والصحيح أن الشح هو البخل مع حرص ،

لما رواه مسلم عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » .

٢- وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يدل على بقاء اللّه تعالى ودوام ملكه ، وأنه في الأبد كهو في الأزل غني عن العالمين ، فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم ، فتبقى الأملاك والأموال لا مدّعى فيها ، فجرى هذا مجرى الوراثة في عادة الخلق ، وهو ليس بميراث في الحقيقة ، لأن الوارث في الحقيقة : هو الذي يرث شيئا لم يكن ملكه من قبل ، واللّه سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض وما بينهما.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها [مريم ١٩/ ٤٠] والمعنى في الآيتين : أن اللّه تعالى أمر عباده بأن ينفقوا ولا يبخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثا للّه تعالى ، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا.

٣- علم اللّه تعالى واسع ودقيق ، فهو يعلم صغار الأشياء والأعمال وكبارها ، ويعلم ما دقّ وخفي من الأعمال ، بل يعلم السر وأخفى ، فيجازي كل عامل بما عمل ، ويكافئه بحسب نيته ، كما جاء في الحديث المشهور عن عمر لدى الشيخين : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

ج ٤ ، ص : ١٨٤

بعضقبائح اليهود من نسبة الفقر إلى اللّه وتكذيبهم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٨١ الى ١٨٤]

(١٩٤/٤)

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (١٨(١) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨(٢) الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٨(٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

الإعراب :

سَنَكْتُبُ ما ما : مفعول به ، وقَتْلَهُمُ : معطوف منصوب على ما والْأَنْبِياءَ منصوب بالمصدر المضاف وهو قَتْلَهُمُ ، وقرئ سيكتب بالبناء للمجهول ، وحينئذ تكون ما مرفوعا نائب فاعل.

البلاغة :

إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ أكد اليهود نسبة الفقر إلى اللّه على سبيل المبالغة والإغراق في الكفر ، ووصفوا أنفسهم بالغنى بجملة اسمية دون تأكيد للدلالة على أن الغنى وصف لازم لهم لا يحتاج لمؤكد.

سَنَكْتُبُ ما قالُوا اللّه لا يكتب وإنما يأمر بالكتابة ملائكته ، فأسند الفعل إليه من قبيل المجاز العقلي.

ج ٤ ، ص : ١٨٥

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وذكر الأيدي بالذات لكثرة تداول الأعمال بهن.

تَأْكُلُهُ النَّارُ إسناد الأكل إلى النار من طريق الاستعارة لأن حقيقة الأكل تكون للإنسان والحيوان. يوجد طباق بين فَقِيرٌ وأَغْنِياءُ وجناس مغاير في قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا وفي كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ. وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب مثل عطار ونجار.

المفردات اللغوية :

سَنَكْتُبُ نأمر بكتب ما قالُوا أي نأمر بكتب أقوالهم في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ، والمراد : أننا سنعاقبهم عليه ذُوقُوا أصل الذوق : إدراك الطعم في الفم ، ثم استعمل في إدراك سائر المحسوسات ، وهو المراد هنا الْحَرِيقِ المحرق والمؤلم ، والحريق : اسم للملتهبة من النار ، والنار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة والمراد عذاب هو المحرق والمؤلم ، وهو النار ، فعذاب الحريق يراد به عذاب هو الحريق ، أي سننتقم منهم عَهِدَ إِلَيْنا أي أمرنا في التوراة وأوصانا به.

بِقُرْبانٍ هو ما يتقرب به إلى اللّه من حيوان ونقد وغيرهما ، أي فلا نؤمن لك حتى تأتينا به ، والمراد من

النار : النار التي تنزل من السماء. قُلْ لهم توبيخا بِالْبَيِّناتِ المعجزات الواضحة وَالزُّبُرِ جمع زبور وهو الكتاب ، مثل صحف إبراهيم الْمُنِيرِ الواضح ، وهو التوراة والإنجيل ، أي إذا كذبك الناس فتكذيب الرسل أمر شائع فيمن قبلك ، فاصبر كما صبروا.

سبب النزول : نزول الآية (١٨١) :

لَقَدْ سَمِعَ :

أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر بيت المدارس « ١ » ، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له (فنحاص) فقال له : واللّه يا أبا بكر ما بنا إلى اللّه من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ولو كان غنيا عنا ما استقرض منا ، كما يزعم صاحبكم ، فغضب أبو بكر ، فضرب

---

(١) المدراس والمدرس : الموضع الذي يدرس فيه ، والمدرس أيضا : الكتاب.

ج ٤ ، ص : ١٨٦

وجهه ، فذهب فنحاص إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : يا محمد ، انظر ما صنع صاحبك بي ، فقال :

يا أبا بكر ، ما حملك على ما صنعت ؟ قال : يا رسول اللّه ، قال قولا عظيما ، يزعم أن اللّه فقير ، وأنهم عنه أغنياء ، فجحد فنحاص ، فأنزل اللّه :

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أتت اليهود النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حين أنزل اللّه : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فقالوا : يا محمد ، افتقر ربك ، يسأل عباده ، فأنزل اللّه : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ .. الآية.

المناسبة :

تناولت الآيات السابقة أحداث معركة أحد ، وما صاحبها من مكائد المنافقين ودسائسهم ومحاولاتهم تثبيط عزائم المسلمين عن الجهاد. وبدأت هذه الآيات ببيان دسائس اليهود في محاربة المسلمين ، ليحذرهم اللّه منها كما حذرهم من المنافقين. غير أن أفعال اليهود كبائر ومخازي لا تحتمل ، مثل نسبتهم الفقر إلى اللّه ، ونقضهم العهود ، وقتلهم الأنبياء ، وخيانة الأمانة.

هذه الآيات تسجيل لبعض قبائح اليهود ، فإنه تعالى سمع قولهم الشنيع وسيعاقبهم عليه أشد العقاب ، وهو تهديد ووعيد على مقالتهم ، وهي نسبة الفقر إلى اللّه والغنى إلى أنفسهم ، ولكنه تعالى سيجازيهم

على ذلك ، إذ يلزم من كتابة الذنب وحفظه إنزال العقوبة عليه.

ومن جرائمهم الشنيعة قتلهم الأنبياء قديما بغير حق ولا ذنب ، ونسبة القتل إلى اليهود المعاصرين في زمن نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم ، مع أنه كان من أجدادهم لأنهم كانوا راضين عنه ، مقرين بما ارتكبوا ، متعاطفين مع بني جنسهم ، مما يدل على أن

ج ٤ ، ص : ١٨٧

الأمة متكافلة متضامنة فيما بينها في القضايا العامة ، وأنها تؤخذ بجريرة وذنب أفرادها ، إذا كانوا مقرين أفعالهم ولم ينكروها عليهم.

(١٩٧/٤)

لذا قال تعالى : وَنَقُولُ : ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ أي النار ، أي سيجازيهم اللّه على ذلك شر الجزاء ، وإن هذا العذاب المحرق المؤلم بسبب أعمالكم في الدنيا وبما سلف من الذنوب كقتل الأنبياء ، ووصف اللّه بالفقر ، ومناصرة الكفر وغير ذلك. وأضيف العمل إلى الأيدي لأن أكثر أعمال الناس تكون بالأيدي ، وللدلالة على أن العذاب بسبب عملهم الصادر منهم حقيقة ، ولتوليهم الفعل ومباشرته ، بل إنهم حاولوا قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بإلقاء الجدار عليه في المدينة ، وبدس السم في شاة في خيبر.

وليس هذا العذاب في غير محله ، وإنما هو في غاية العدل والحكمة لأن اللّه لا يظلم أحدا ، ولأنه لا يعقل التسوية بين العاصي والطائع ، وبين الكافر والمؤمن ، كما قال تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ [الجاثية ٤٥/ ٢١]. أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ [القلم ٦٨/ ٣٥- ٣٦] أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص ٣٨/ ٢٨].

يقال لهم تلك المقالات : ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ ، ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ تقريعا وتوبيخا ، وتحقيرا وتصغيرا ، وتبيانا لبشاعة جرائمهم ، وذلك إما في جهنم ، أو عند الموت ، أو عند الحساب ، والقائل إما اللّه أو الملائكة.

ثم يقول تعالى تكذيبا لليهود أيضا الذين زعموا أن اللّه عهد إليهم في كتبهم ألا يؤمنوا لرسول ، حتى يكون من معجزاته : أن من تصدق بصدقة من أمته أي قربان ، فتقبلت منه : أن تنزل نار من السماء تأكلها.

ج ٤ ، ص : ١٨٨

و القربان : ما يتقرب به إلى اللّه تعالى من نسك (إراقة دم من المواشي) وصدقة وعمل صالح.
والقصد من زعمهم هذا عدم الإيمان برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لأنه لم يأت بما قالوه ، ولو أتى به لآمنوا.
قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف ومالك بن الصّيف ، وفنحاص بن عازوراء في جماعة آخرين ، أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : يا محمد ، تزعم أنك رسول اللّه ، وأنه تعالى أوحى إليك كتابا ، وقد عهد إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، ويكون للنار دويّ خفيف حين تنزل من السماء ، فإن جئتنا بهذا صدقناك ، فنزلت الآية.
ولكن ادعاء هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم ، لذا ردّ اللّه تعالى موبخا لهم ومكذبا ، بأن نزول النار معجزة ، والمعجزة لتأييد الرسالة ، وإثبات صدق النبي المبعوث ، وقد جاءكم رسل كثيرون مثل زكريا ويحيى وغيرهما بالمعجزات أو بالبينات الواضحة الدالة على صدق نبوتهم ، فلم كذبتموهم ؟ ولم تصدقوهم ، ولم قتلتموهم ؟ إن كنتم صادقين أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل.
وقد نسب هذا الفعل لليهود الذين كانوا في عصر التنزيل القرآني ، مع أن تلك الجرائم كانت من أسلافهم لأنهم كما بينا سابقا رضوان عما فعلوه ، معتقدون أنهم على حق في ذلك ، والأمة أو القبيلة عادة تتأثر بصنع بعض أفرادها ، ويعيبها جرمه وانحرافه ، لنسبته إلى تلك الجماعة.
ثم قال تعالى مسليا لنبيه محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم أي معزّيا ومؤنسا له ، ومخففا عليه سوء موقف اليهود وأمثالهم وهم قومه ، وتكذيب الفريقين ، فأخبر : إن كذبوك بعد أن جئتهم بالدلائل- والمعجزات ، فقد كذّب رسل من قبلك ، جاؤوا بمثل ما جئت به من البينات والمعجزات ، والكتب ذات الأصل الإلهي كالصحف المنزلة

على المرسلين ، والكتاب المنير أي الواضح الجلي وهو التوراة والإنجيل والزبور ، فصبروا على الأذى والسخرية ، والمخالفة والمعاندة. وهذا من طبيعة البشر في كل زمن ، منهم من يصغي إلى الحق ، ومنهم من يقاومه ويهزأ بصاحبه ، فلا تعجب من مقاومة دعوتك ، فإن نفوسهم لا تنشد الوصول إلى الحق ، ولا تبغي الخير.
فقه الحياة أو الأحكام :

لم يرتكب شعب في الدنيا جرائم شنيعة مثل اليهود ، ولم يقتصر إجرامهم على البشرية ، وإنما تجاوز ذلك إلى اللّه والرسل ، فقالوا : إن اللّه فقير ونحن أغنياء ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ولا ذنب ، لذا قرعهم اللّه تعالى في القرآن الكريم وهددهم وأنذرهم بعذاب النار على أفعالهم.

والسلف والخلف منهم راضون بتلك الجرائم ، لذا صحت نسبة الجريمة إلى المتأخرين منهم ، وإضافتها إليهم مع أن القول السابق وقتل الأنبياء حدثا من أسلافهم ، وكان بينهم نحو سبعمائة سنة.

وهذا يدل على أن الرضا بالمعصية معصية ، و

قد روى أبو داود عن العرس بن عميرة الكندي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إذا عملت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكرهها- وقال مرة : فأنكرها- كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » .

ومن جرائمهم : الكذب السافر على اللّه وافتراؤهم عليه أنه عهد إليهم وأنزل عليهم كتابا فيه : ألا يؤمنوا لرسول يزعم أنه من عند اللّه ، حتى يأتيهم بقربان تأكله النار. ويكون هذا من قبيل المعجزة الدالة على صدقه.

فرد اللّه تعالى عليهم أن معجزات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم دليل قاطع في إبطال دعواهم ، وكذلك معجزات عيسى ، ومن علم صدقه وجب تصديقه.

والقضية قضية مخالفة ومعاندة ، وليست قضية قناعة وحجة وبرهان ،

ج ٤ ، ص : ١٩٠

فوضح الأمر وبان الطريق ، والناس في الماضي والحاضر وكل زمان : منهم من يصغي إلى الحق ويستجيب لندائه ، كما فعل الكثير من الناس ومنهم بعض اليهود الذين قبلوا بالإيمان بدعوة الإسلام والقرآن ، ومنهم من يجهر بمقاومة الحق ، ومناصرة الباطل ، والإعراض عن دعوة اللّه الخيّرة المحققة لنفع البشرية وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

الموت مصير كل نفس والثواب يوم القيامة والابتلاء في الدنيا [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٨٥ الى ١٨٦]

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

الإعراب :

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ مبتدأ وخبر ، جملة تامة مفيدة.
وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ : ما في إِنَّما كافة ، ولا يجوز أن تكون بمعنى الذي لأنها لو كانت بمعنى الذي لوجب رفع أُجُورَكُمْ على أنه الفاعل ، وتقديره : إن الذي توفّونه أجوركم.
البلاغة :
كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ استعارة مثل قوله تَأْكُلُهُ النَّارُ لأن حقيقة الذوق تكون بحاسّة اللسان ، كما أن حقيقة الأكل للإنسان والحيوان.
ج ٤ ، ص : ١٩١
زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فيه ما يسمى في علم البديع بالمقابلة.
مَتاعُ الْغُرُورِ استعارة ، شبه الدنيا بالمتاع الذي يغرر به المشتري ثم يظهر فساده ، والمدلّس والمغرر هو الشيطان « ١ » .
المفردات اللغوية :

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ أي أن الموت مصير كل نفس ونهاية كل حي ، ولا يبقى إلا وجهه الكريم تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ تعطون جزاء أعمالكم وافيا غير منقوص. ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها : أن كلكم تموتون ، ولا بد لكم من الموت ، ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم ، وإنما توفونها يوم قيامكم من قبوركم ، والتوفية : تكميل الأجور ، وما يكون قبل ذلك في القبر من روضة أو نعمة فبعض الأجور.
فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ نحّي عنها وأبعد ، والزحزحة : التنحية والإبعاد.
فَقَدْ فازَ نال غاية مطلوبة ، وسعد ونجا أي تحقق له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به ، ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط اللّه ، والعذاب السرمد ، ونيل رضوان اللّه والنعيم المخلد.
وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا أي العيش فيها إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ المتاع : ما يتمتع وينتفع به مما يباع ويشترى ، والغرور : مصدر غره أي خدعه ، والغرور : الخداع والغش ، أي أن الدنيا مثل المتاع المشترى بسبب التغرير والغش والخداع ثم يتبين له فساده ورداءته. عن سعيد بن جبير : إنما هذا لمن آثرها على الآخرة ، فأما من طلب الآخرة بها ، فإنها متاع بلاغ.
لَتُبْلَوُنَّ لتختبرن أي لتعاملن معاملة المختبر ، لتظهر حالتكم على حقيقتها.
فِي أَمْوالِكُمْ بإيجاب الزكاة المفروضة فيها والنفقة في سبيل اللّه ، وبالجوائح والآفات وَأَنْفُسِكُمْ بالقتل والأسر والجراح والمخاوف والمصائب في سبيل اللّه وبالعبادات المفروضة ، وبالأمراض وفقد الأحبة

والأقارب.
أُوتُوا الْكِتابَ اليهود والنصارى الَّذِينَ أَشْرَكُوا هم مشركو العرب.
أَذىً كَثِيراً كالسب والطعن في الدين والافتراء على اللّه والرسول والتشبيب بنسائكم.

وَ إِنْ تَصْبِرُوا على ذلك ، والصبر : حبس النفس على ما تكره وكظم الغيظ ومقاومة الجزع والشدة بالتقوى والرضا وَتَتَّقُوا اللّه بامتثال الأمر واجتناب النهي ، والتقوى : الابتعاد عن المعاصي والتزام المأمورات.

---

(١) الكشاف ١/ ٣٦٦ [.....]
ج ٤ ، ص : ١٩٢
مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي من معزومات الأمور التي يعزم عليها لوجوبها. والمعنى : أن الصبر والتقوى من صواب التدبير ، وقوة الإرادة ، وكمال العقل والفكر ، ومن الأمور المحتمة التي لا يجوز التساهل فيها.
سبب النزول :
نزول الآية : وَلَتَسْمَعُنَّ .. : روى ابن أبي حاتم وابن المنذر بسند حسن عن ابن عباس أنها نزلت فيما كان بين أبي بكر وفنحاص من قوله السابق : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ.
وذكر عبد الرزاق : أنها نزلت في كعب بن الأشرف فيما كان يهجو به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من الشعر ، ويحرض عليه كفار قريش في شعره.
المناسبة :
كانت الآيات السابقة تسلية وتعزية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، واستمرت هذه الآيات في زيادة تسليته بأن كل ما تراه من عنادهم فهو منته إلى غاية ، وكل آت قريب ، فلا تضجر ولا تحزن ، وإنهم سيجازون على أعمالهم يوم القيامة ، فإن أمد الدنيا قريب ، ويوم القيامة يوم الجزاء.
وهي أيضا خطاب للمؤمنين ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها ، حتى إذا فاجأتهم بغتة ، وهم مستعدون لتحملها ، لم يرهقهم شيء ، كما يرهق غير المؤمن فتضيق نفسه ويشمئز ويكره الحياة.
التفسير والبيان :

هذا إخبار عام من اللّه تعالى يعم جميع الخلائق بأن كل نفس ذائقة الموت ، كقوله تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ [الرحمن ٥٥/ ٢٦- ٢٧] فكل الجن والإنس والملائكة وحملة العرش يموتون ، واللّه وحده الحي القيوم الذي لا يموت ، ينفرد بالديمومة والبقاء ، فيكون آخرا كما كان أولا.

ج ٤ ، ص : ١٩٣

و في الآية تعزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض وفي السماء حتى يموت ، وتذوق كل نفس طعم مفارقة الروح البدن. ثم يوم القيامة توفى كل نفس بما عملت ، من خير أو شر ، وتعطى ثواب عملها الطيب كاملا غير منقوص ، ويجازى المسيء الجزاء الأوفى ، فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال ذرة.

وفي ذكر توفية الأجور على الطاعات والمعاصي إشارة إلى أن بعض الأجور من خير أو شر قد تصل إليهم في الدنيا أو في القبور ، بدليل

ما أخرجه الترمذي والطبراني مرفوعا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

فمن نحّي عن النار وأبعد عنها وأدخل الجنة ، فقد فاز بالمقصد الأسمى والمطلوب الأعلى الكامل ، ورد عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « من أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته ، وهو مؤمن باللّه واليوم الآخر ، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتي إليه » .

وهذا شامل للمحافظة على حقوق اللّه وحقوق العباد. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها » . اقرؤوا إن شئتم : فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ. فاللهم وفقنا لما ندرك به الفوز بالجنة والنجاة من النار.

و ما الحياة الدنيا التي نعيشها ونستمتع بها باللذات الجسدية من طعام وشراب والمعنوية من جاه ومنصب وسمو إلا كالمتاع المشترى بخداع وتغرير ، ثم يتبين فساده ورداءته لأن صاحبها دائما مغرور مخدوع بها ، أو لأنها حقيرة متروكة فانية زائلة ، كما قال تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى [الأعلى ٨٧/ ١٦- ١٧] وقال : وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها ،

ج ٤ ، ص : ١٩٤

وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى

[القصص ٢٨/ ٦٠] و

في الحديث : « و اللّه ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم يرجع » « ١ » .

وتهوين شأن الدنيا على هذا النحو لمن آثرها على الآخرة ، قال سعيد بن جبير : « إنما هذا لمن آثرها على الآخرة ، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ » « ٢ » . فمن فضل الدنيا على الآخرة ، كان كمن اشترى صفقة خاسرة ، غشه فيها البائع ودلس عليه ، ثم تبين له فسادها ورداءتها.

ثم أراد تعالى بعد غزوة أحد توطين النفس وتربيتها على تحمل الأهوال والشدائد والمصائب ، فخاطب النبي المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين مخبرا إياهم : أن الدنيا دار ابتلاء واختبار في الأنفس والأموال ففي الأنفس : بالقتل والأسر والجراح وأنواع المخاوف والمصائب ، وفي الأموال : بالإنفاق في سبل الخير وما يقع فيها من الآفات ، وهي مثل قوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ [البقرة ٢/ ١٥٥].

و أن المسلمين ونبيهم يسمعون ما يؤذيهم أذى كثيرا من اليهود والنصارى ومشركي العرب ، والأذى قد يتناول الدين والقرآن والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم. ولكن اللّه تعالى قال للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر ، مسليا لهم عما ينالهم من الأذى من هؤلاء ، وواصفا لهم العلاج الناجع وهو الصفح والصبر والعفو والتزام تقوى اللّه بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، فإن تحقق منهم ذلك آتاهم أجرين من رحمته لأن الصبر والتقوى من معزومات الأمور ، أي التي ينبغي أن يعزمها كل أحد.

---

(١) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن المستورد.

(٢) الكشاف : ١/ ٣٦٦

ج ٤ ، ص : ١٩٥

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الحقائق التالية :

١- الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، وكل شيء هالك إلى وجه اللّه الكريم ، وكل حي سيموت ، وأن الآخرة دار الجزاء والحساب ، وأن السعادة كل السعادة ، في الفوز بالجنة ، والنجاة من النار.

ويسن عند احتضار الميت تلقينه الشهادة دون إعادة لئلا يضجر ، لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد : « لقنوا موتاكم : لا إله إلا اللّه » لتكون آخر كلامه

فيختم له بالشهادة. ويستحب قراءة (يس) ذلك الوقت ،
لقوله عليه الصلاة والسلام : « اقرؤوا يس على موتاكم » « ١ » .
وذكر الآجرّي من
حديث أم الدرداء عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « ما من ميت يقرأ عنده سورة يس إلا هوّن عليه الموت » .
ويغسل الميت إلا الشهيد ويكفّن ويصلى عليه ويدفن في التراب ، ويسن الإسراع في المشي بالجنازة ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الجماعة عن أبي هريرة : « أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة فخير تقدّمونها إليه ، وإن تكن غير ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم » .

(٤/٢٠٦)

٢- إن إيفاء الأجور على الطاعات والعقاب على السيئات مقره يوم القيامة ، فأجر المؤمن ثواب ، وأجر الكافر عقاب.
٣- الدنيا غرارة تغر المؤمن وتخدعه ، فيظن طول البقاء وهي فانية. وهي أشبه بالمتاع الحقير الذي يتمتع وينتفع به كالفأس والقدر والدلو والقصعة ، ثم يزول ولا يبقى ملكه. وهذا رأي أكثر المفسرين في قوله : وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ.

---

(١) أخرجه أبو داود.
ج ٤ ، ص : ١٩٦
٤- لا اطمئنان إلى نعيم الدنيا ولا إلى إعراضها وفقدها ، فالناس فيها في مرصد الاختبار والابتلاء في الأموال بالمصائب والأحداث ، والإنفاق في سبيل اللّه ، وسائر تكاليف الشرع ، وفي الأنفس بالموت والأمراض ، وفقد الأحباب.
وقد يتأذى المؤمن بطعن في قرآنه ودينه ونبيه ، فعليه الصبر والاعتصام بالتقوى ، والإعراض عن الطاعنين الكافرين ، والثبات على العقيدة ، وتحمل الشدائد والقتال في سبيل اللّه عند اللزوم ، فقد ندب اللّه عباده إلى الصبر والتقوى ، وأخبر أنه من عزم الأمور ، أي من معزوماتها التي ينبغي أن يعزمها كل أحد ، وهي دليل على قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة ، وعلو الهمة. قال القرطبي : عزم الأمور : شدها وصلابتها.
والأظهر أن هذه الآية- كما ذكر القرطبي- ليست بمنسوخة ، فإن الجدال بالأحسن والمداراة أبدا ، مندوب إليها ، وكان عليه الصلاة والسلام مع الأمر بالقتال يوادع اليهود ويداريهم ، ويصفح عن

المنافقين « ١ » .

أخذ الميثاق على أهل الكتاب بالبيان للناس ومحبتهم المدح بغير موجب [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٨٧ الى ١٨٩]

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ (١٨٧) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

---

(١) تفسير القرطبي : ٤/ ٣٠٤

ج ٤ ، ص : ١٩٧

الإعراب :

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ هذه القراءة بالتاء ، ويكون الَّذِينَ يَفْرَحُونَ منصوبا على أنه مفعول أول ، وحذف المفعول الثاني لدلالة ما بعده عليه وهو قوله بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ ويكون قوله : فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بدلا من لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ والفاء زائدة ، فلا تمنع البدل ، وهذا على هذه القراءة وعلى قراءة من قرأ بالياء.

ومن قرأ : (يحسبن) بالياء جعل الَّذِينَ يَفْرَحُونَ في موضع رفع فاعل ، والَّذِينَ : اسم موصول ، ويَفْرَحُونَ : صلته ، و « هم » من قوله : فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ المفعول الأول. وبِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ : في موضع المفعول الثاني ، وتقديره : فائزين. ومن قرأ الأول بالياء والثاني بالتاء فلا يجوز فيه البدل لاختلاف فاعليهما ، ولكن يكون مفعولا الأول قد حذفا لدلالة مفعولي الثاني عليهما.

البلاغة :

فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا توجد استعارة في النبذ والاشتراء ، إذ شبه عدم التمسك بالميثاق بالشيء المنبوذ الملقى ، وشبه العمل بالبديل باشتراء عوض قليل من أموال الدنيا ، مقابل كتم آيات اللّه.

و توجد مقابلة بين لَتُبَيِّنُنَّهُ ووَ لا تَكْتُمُونَهُ.

المفردات اللغوية :

وَإِذْ اذكر إذ أخذ مِيثاقَ الميثاق : العهد المؤكد ، وهو العهد المأخوذ عليهم في التوراة بواسطة الأنبياء. أُوتُوا الْكِتابَ هم اليهود والنصارى. لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار بما فيها خبر نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، حتى يعرفه الناس على وجهه الصحيح. وَلا تَكْتُمُونَهُ أي لا تخفون الكتاب. فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ طرحوا الميثاق ولم يعتدّوا به.

وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أخذوا بدله من الدنيا عوضا حقيرا ، بسبب رياستهم في العلم ، فكتموه. فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ شراؤهم هذا.

ج ٤ ، ص : ١٩٨

أَتَوْا بما فعلوا في إضلال الناس. أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا أن يحمدهم الناس بما لم يفعلوا من التمسك بالحق ، وهم على ضلال. فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ تأكيد. بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ أي بمنجاة من العذاب في الآخرة ، بل هم في مكان يعذبون فيه وهو جهنم. وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ مؤلم فيها.

سبب النزول : نزول الآية (١٨٨) :

لا تَحْسَبَنَّ : روى الشيخان وغيرهما من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف : أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذّبا ، لنعذبن أجمعون ، فقال ابن عباس : ما لكم وهذه ؟ إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب ، سألهم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن شيء ، فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أنهم قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه.

و أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري : أن رجالا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى الغزو ، تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول اللّه ، فإذا قدم اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت الآية : لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا الآية.

وأخرج عبد الرزاق في تفسيره عن زيد بن أسلم أن رافع بن خديج وزيد بن ثابت كانا عند مروان ، فقال مروان : يا رافع في أي شيء نزلت هذه الآية :

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا ؟ قال رافع : نزلت في ناس من المنافقين كانوا إذا خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم اعتذروا وقالوا : ما حسبنا عنكم إلا شغل ، فلوددنا أنا معكم ، فأنزل اللّه فيهم هذه الآية ، وكان مروان أنكر ذلك ، فجزع رافع من ذلك ، فقال

ج ٤ ، ص : ١٩٩

لزيد بن ثابت : أنشدك باللّه ، هل تعلم ما أقول ؟ قال : نعم.

قال الحافظ ابن حجر : يجمع بين هذا وبين قول ابن عباس بأنه يمكن أن تكون نزلت في الفريقين معا.

المناسبة :

تحدثت سورة آل عمران عن أهل الكتاب ، فناقشت النصارى ، وحكت أفعالا غريبة عن اليهود ومطاعن في نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، واستتبع ذلك بيان غزوتي أحد وبدر ، وهنا ذكرت الآيات حالا عجيبة لليهود والنصارى وهي الطعن في الدين ، مع أنهم أمروا ببيان ما في كتابهم (التوراة والإنجيل) من دلائل ناطقة بنبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وصدق رسالته.

التفسير والبيان :

هذا توبيخ من اللّه وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ اللّه عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأن ينوهوا بذكره في الناس ، فيكونوا على أهبة من أمره ، فكتموا ذلك ، وأخذوا عوضا زهيدا عنه ، وفاتهم ما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم.

(٤/٢١٠)

و في هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم ، فيصيبهم ما أصابهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئا ،

فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار » « ١ » .

وبيان معنى الآية : اذكر يا محمد حين أخذ اللّه العهد المؤكد (الميثاق) على أهل الكتاب من اليهود والنصارى بوساطة الأنبياء : أن يبينوا كتابهم للناس

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم عن أبي هريرة.

ج ٤ ، ص : ٢٠٠

و يظهروه من غير كتمان شيء منه ، وألا تحريف أو تأويل لبعض نصوصه ، وتبيانه للمؤمنين به لهدايتهم وإرشادهم ، ولغير المؤمنين به لدعوتهم إليه.

لكنهم نبذوا كتابهم وراء ظهورهم ، وتركوا التوراة والإنجيل ، وكان منهم فئة يحملونه دون فهم ولا وعي لما جاء فيه ، وفئة أخرى حرّفوه وأولوه على غير وجهه الصحيح ، واشتروا به ثمنا قليلا من حطام الدنيا

، أي أخذوا عوضا عنه فائدة دنيوية حقيرة كالشهرة الزائفة ، والرياسة الظاهرة ، والمال الزائل ، فكانوا في الحقيقة مغبونين في هذا البيع أو المبادلة ، إذ تركوا الغالي الثمين في الدنيا والآخرة وهو الخير الذي وعدوا به ، وأخذوا التافه الحقير ، وهو الرشاوى والهبات والمنح المالية ليحافظوا على كيانهم ومراكزهم.

فبئس الشيء المشترى من شرائهم لأنهم جعلوا الفاني بدلا من النعيم الدائم.

وهذا يدل على وجوب نشر العلم وتعليمه للناس ، قال علي كرّم اللّه وجهه :

ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلّموا. وقال الحسن البصري : لولا الميثاق الذي أخذه اللّه تعالى على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه.

(٢١١/٤)

ثم بيّن تعالى موقف المرائين المتكثرين من أهل الكتاب والمنافقين بما لم يعطوا ،

كما جاء في الصحيحين عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها ، لم يزده اللّه إلا قلّة »

و

في الصحيحين أيضا عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » .

هذه حال أخرى من أحوال أهل الكتاب وغيرهم ، ليحذر اللّه المؤمنين منها ، فلا تظنن يا محمد أن الذين موّهوا الحقائق ، وكتموا العلم الصحيح ودلّسوا عليك ، وفرحوا بما أتوا من التأويل والتحريف للكتاب ، ورأوا لأنفسهم شرفا فيه وفضلا يستحقون أن يحمدوا بأنهم حفّاظ الكتاب ومفسروه ، ويشكروا على شيء بغير

ج ٤ ، ص : ٢٠١

موجب ولا داع للشكر ، أو على أنهم أخبروك بالصدق عما سألتهم عنه ، أو على ما فعل المنافقون في التخلف عن الغزو (الجهاد) وجاؤوا به من العذر ، وكل ما فعلوا أنهم حولوا الحق والنور والهداية إلى ما يوافق أهواء الحكام وعامة الناس.

فهؤلاء لا تظنن أنهم ناجون من العذاب ، بل لهم عذاب أليم شديد الألم في الدنيا بالخذلان والخسف والزلزال والطوفان وغير ذلك من الجوائح والمصائب العامة المدمرة ، وفي الآخرة بحشرهم في جهنم جزاء إفكهم وتحريفهم وتبديلهم وتغييرهم كتاب اللّه. وذلك كقوله تعالى : وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود ١١/ ١٠٢].

(٢١٢/٤)

ثم كان قوله : وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ احتجاجا على الذين قالوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ ، وتكذيبا لهم ، فقال للمؤمنين : ولا تحزنوا أيها المؤمنون على عمل أهل الكتاب وعلى ما فاتكم من نصر ، ولا تضعفوا عن القيام بالواجب ، وبينوا الحق ولا تكتموا منه شيئا ، ولا تأخذوا عن حكم اللّه الصحيح عوضا مهما كثر ، فإنه قليل ، ولا تفرحوا على ما لم تعملوا ، فإن اللّه يكفيكم همومكم وينصركم على أعدائكم ، ويمدكم بالخير والفضل لأنه تعالى مالك كل شيء ، والقادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فإنه الأعظم والأقدر من كل شيء في هذا الوجود.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات توبيخا ، وتحذيرا ، واحتجاجا وتكذيبا.

فهي توبيخ لأهل الكتاب الذين أمروا بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام وبيان أمره ، فكتموا نعته.

ويفهم من هذه الآية واجبات ثلاثة : توضيح العلماء كتاب اللّه وإفهامه للناس وإظهار ما فيه من عظة وأسرار في الأحكام العامة والخاصة ، وتبيين الدين للمسلمين حتى يفهموه على حقيقته ويعرفوا أنه طريق

ج ٤ ، ص : ٢٠٢

الخلاص الوحيد من تخلف الأمة وضعفها وفسادها ، وتوضيح أحكام الدين لغير المسلمين ودعوة الناس إلى صراط مستقيم حتى يهتدوا به.

وهي أيضا تحذير من أفعال أهل الكتاب والمنافقين الذين يدلسون الحقائق ، ويزيفون معاني الكتب المنزلة ، ويتخلفون عن الجهاد بالأعذار الواهية.

وهي كذلك احتجاج على اليهود الذين نسبوا الفقر إلى اللّه والغنى لأنفسهم ، وتكذيب لهم ، ورد قاطع بأن اللّه مالك السموات والأرض ومن فيهن ، وله القدرة الباهرة على كل شيء ، والسلطان النافذ في كل شي ء.

توجيه النفوس نحو التفكر في خلق السموات والأرض وجزاء العاملين ذكورا وإناثا [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٩٠ الى ١٩٥]

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (١٩٢) رَبَّنا

إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (١٩٣) رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (١٩٤) فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ (١٩٥)

ج ٤ ، ص : ٢٠٣

الإعراب :

الَّذِينَ إما في موضع جر صفة لأولي الألباب ، أو في موضع رفع مبتدأ ، وخبره :

رَبَّنا على تقدير : يقولون : ربنا ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو في موضع نصب على تقدير فعل محذوف قِياماً حال منصوب من ضمير يَذْكُرُونَ. وَعَلى جُنُوبِهِمْ حال من ضمير يَذْكُرُونَ. ويَتَفَكَّرُونَ : معطوف على يَذْكُرُونَ. باطِلًا مفعول لأجله.

سُبْحانَكَ اسم مصدر منصوب انتصاب المصادر.

(٢١٤/٤)

يُنادِي جملة فعلية في موضع نصب لأنه صفة مُنادِياً. لِلْإِيمانِ اللام إما بمعنى إلى الإيمان ، أو متعلق ب مُنادِياً أي سمعنا مناديا للإيمان ينادي. أَنْ آمِنُوا منصوب ب يُنادِي أي ينادي بأن آمنوا ، فحذف حرف الجر فاتصل الفعل به. مَعَ الْأَبْرارِ أي أبرارا مع الأبرار ، وهو جمع بارّ أو برّ. عَلى رُسُلِكَ أي على ألسنة رسلك ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

أَنِّي لا أُضِيعُ أي بأني ، فحذف حرف الجر. فَالَّذِينَ هاجَرُوا مبتدأ ، وخبره لَأُكَفِّرَنَّ. وَقاتَلُوا وَقُتِلُوا : عطف على عطف. ثَواباً إما منصوب على المصدر المؤكد لما قبله ، كأنه قال : لأثيبنهم ثوابا ، أو منصوب على القطع بتعبير الكوفيين وهو الحال عند البصريين ، أو منصوب على التمييز. والوجه الأول أوجه الأوجه. وَاللَّهُ مبتدأ ، وحُسْنُ الثَّوابِ مبتدأ ثان ، وعِنْدِ : خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول وهو اسم اللّه تعالى.

البلاغة :

رَبَّنا كرر خمس مرات مبالغة في التضرع من قبيل الإطناب. وَما لِلظَّالِمِينَ وضع الظاهر موضع المضمر لتخصيص الخزي بهم. وهناك طباق في قوله السَّماواتِ وَالْأَرْضِ واللَّيْلِ

ج ٤ ، ص : ٢٠٤

وَ النَّهارِ

و قِياماً وَقُعُوداً وذَكَرٍ أَوْ أُنْثى . وهناك إيجاز بالحذف في عَلى رُسُلِكَ أي على ألسنة رسلك ، وفي قوله وَيَتَفَكَّرُونَ .. رَبَّنا أي قائلين ربنا.

وفي الآيات جناس مغاير في قوله آمِنُوا .. فَآمَنَّا وفي عَمَلَ عامِلٍ وفي مُنادِياً يُنادِي. لَآياتٍ .. دخول اللام في خبر إن لزيادة التأكيد ، والتنكير للتفخيم.

المفردات اللغوية :

إِنَّ فِي خَلْقِ الخلق : التقدير والترتيب الدال على النظام والإتقان. السَّماواتِ كل ما علاك مما تراه في الأعلى. وَالْأَرْضِ ما تعيش عليه ، وهو بشكل كروي ، كوكب دائر غير ثابت وخَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ : إيجادهما من غير مثال سابق ، ويشمل كل ما فيهما من العجائب.

اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ تعاقبهما ومجيء كل منهما خلف الآخر ، مع زيادة ونقصان بحسب الفصول والموقع الجغرافي من الكرة الأرضية. لَآياتٍ لأدلة على وجود اللّه وقدرته ووحدانيته.

لِأُولِي الْأَلْبابِ لذوي العقول. وَعَلى جُنُوبِهِمْ مضطجعين ، أي في كل حال. وعن ابن عباس : يصلون كذلك حسب الطاقة. وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ليستدلوا به على قدرة صانعهما. رَبَّنا يقولون : ربنا. باطِلًا عبثا لا فائدة منه ، بل دليلا على قدرتك.

سُبْحانَكَ تنزيها لك عن العبث وعما لا يليق بك.

أَخْزَيْتَهُ أهنته. وَما لِلظَّالِمِينَ الكافرين ، وضع الظاهر موضع المضمر إشعارا بتخصيص الخزي بهم. مِنْ أَنْصارٍ من زائدة ، أي مؤيدين يمنعونهم من عذاب اللّه تعالى.

فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا استر معاصينا ، واحدها ذنب : وهو مخالفة الأوامر والنواهي الشرعية.

وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا غطّ إساءاتنا ، أي الصغائر أو أنواع التقصير في حقوق العباد ، فلا تظهرها بالعقاب عليها.

وَتَوَفَّنا أمتنا أي اقبض أرواحنا. مَعَ الْأَبْرارِ في جملة الأخيار المحسنين أعمالهم وهم الأنبياء والصالحون.

وَآتِنا أعطنا. عَلى رُسُلِكَ أي على ألسنة رسلك من الرحمة والفضل.

ويلاحظ أن سؤال الناس تلك الأمور هو أن يجعلهم من مستحقيه ، وتكرار : رَبَّنا مبالغة في التضرع.

الْمِيعادَ الوعد بالبعث والجزاء.

ج ٤ ، ص : ٢٠٥

فَاسْتَجابَ أجاب دعاءهم لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ أي لا أترك ثوابه. بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أي بعضكم كائن من بعض أي الذكور من الإناث وبالعكس ، والجملة مؤكدة لما قبلها ، أي سواء في المجازاة بالأعمال وترك تضييعها. نزلت لما قالت أم سلمة : يا رسول اللّه ، إني لا أسمع النساء في الهجرة بشي ء. فَالَّذِينَ هاجَرُوا أي في مبدأ الإسلام من مكة إلى المدينة. فِي سَبِيلِي أي بسبب ديني وطاعتي وعبادتي. لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أسترها بالمغفرة. ثَواباً مصدر مؤكد من معنى لأكفرن. مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فيه التفات عن التكلم. حُسْنُ الثَّوابِ الجزاء.

سبب النزول :

نزول الآية (١٩٠) :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ .. : أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى به من الآيات ؟ قالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فأتوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ، فدعا ربه ، فنزلت هذه الآية : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ .. فليتفكروا فيها. قال ابن كثير : وهذا مشكل ، فإن هذه الآية مدنية ، وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبا كان بمكة « ١ » .

نزول الآية (١٩٥) :

فَاسْتَجابَ لَهُمْ : أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والترمذي والحاكم وابن أبي حاتم عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول اللّه ، لا أسمع اللّه ذكر النساء في الهجرة بشيء ، فأنزل اللّه : فَاسْتَجابَ لَهُمْ.

المناسبة :

ختمت سورة آل عمران بهذه الآيات ، بعد مجادلة الكفار والمنافقين

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١/ ٤٣٨

ج ٤ ، ص : ٢٠٦

و المقصرين من المؤمنين وردّ الشبهات ، لتوجيه الأنظار نحو ما يثبت وجود اللّه ووحدانيته وعظمته وكبرياءه.

فضل هذه الآيات :

ورد في فضل هذه الآيات أحاديث كثيرة منها : ما رواه ابن مردويه وعبد بن حميد عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي اللّه عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : زر غبا تزدد حبا ، فقال ابن عمر : ذرينا أخبرينا بأعجب ما رأيتيه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فبكت ، وقالت : كل أمره كان عجبا ، أتاني في ليلتي حتى مسّ جلده جلدي ، ثم قال : « ذريني أتعبد لربي عز وجل » قالت : فقلت ، واللّه ، إني لأحب قربك ، وإني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة ، فتوضأ ، ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى بلّ لحيته ، ثم سجد ، فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه ، فبكى ، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت : فقال : يا رسول اللّه ، ما يبكيك وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : « ويحك يا بلال ، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل اللّه عليّ في هذه الليلة : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ ثم قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

قيل للأوزاعي : ما غاية التفكر فيهن ؟ قال : يقرءوهن وهو يعقلهن « ١ » .

التفسير والبيان :

إن في إبداع السموات والأرض ، الأولى في ارتفاعها واتساعها ، والثانية في انخفاضها وكثافتها وصلاحيتها للحياة ، وما فيها من نظام بديع وأفلاك وكواكب

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٤٤٠ وما بعدها.

ج ٤ ، ص : ٢٠٧

و مجرّات ، وبحار وجبال وأنهار ، وزروع ونبات وأشجار مثمرة وغير مثمرة ، ومعادن وثروات ، وتعاقب الليل والنهار مع الطول والقصر والاعتدال على مدار العام وبحسب الفصول والموقع ، لأدلة دالة على وجود اللّه وكمال قدرته وعظمته ووحدانيته ، بشرط أن يكون من ذوي العقول التامة الناضجة التي تدرك الأشياء بحقائقها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال اللّه فيهم : وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها ، وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ ، وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [يوسف ١٢/ ١٠٥- ١٠٦].

ثم وصف اللّه تعالى أولي الألباب بأنهم يجمعون بين التذكر والتفكير ، يذكرون اللّه في مختلف أحوالهم من قيام وقعود واضطجاع ، لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم.

ويتفكرون ويفهمون ما في السموات والأرض من أسرار ومنافع وحكم دالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه ورحمته.

والتفكر يكون في مصنوعات الخالق لا في الخالق ، لاستحالة الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته ، أخرج الأصبهاني عن عبد اللّه بن سلام قال : « خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على أصحابه ، وهم يتفكرون ، فقال : تفكروا في الخلق ، ولا تفكروا في الخالق ، فإنكم لا تقدرون اللّه قدره » .

وقال الحسن البصري : تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

ويقول المتفكرون الذاكرون : ربنا ما خلقت هذا الخلق عبثا ولا أوجدته باطلا زائلا ، فأنت منزه عن الباطل والعبث ، وكل خلقك حق مشتمل على فائدة وحكمة وقدرة ، أي أن المؤمن المتفكر بعد أن تدبر ونظر ودقق وتفكر يتوجه إلى اللّه تعالى متضرعا معلنا قناعته بحكمة اللّه العليا في خلق المخلوقات ، فاجعل لنا وقاية وحاجزا من عذاب النار ، وأجرنا من عذابها ، ووفقنا للعمل الصالح

و الاعتقاد الجازم الثابت الصحيح. و

معنى سُبْحانَ اللَّهِ : تنزيه اللّه عن السوء ، كما ثبت عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من حديث موسى بن طلحة.

إن من أدخلته النار بعدلك وبسبب انحرافه وضلاله وخطئه ، فقد أهنته وجعلته ذليلا لأن من يعصيك فأنت قاهره ومذلّه ، وما للكافرين الظالمين أنفسهم بسبب جورهم وظلمهم أعوان ومؤيدون ينقذونهم من عذاب اللّه تعالى.

فهو جزاء عادل لمحض الظلم وتجاوز الحدود ، وإعلام بأن من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها.

ربنا إننا سمعنا مناديا داعيا يدعو إلى الإيمان ، وهو الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يقول :

آمنوا بربكم ، فآمنا أي فاستجبنا له واتبعناه ، أي أنهم مزجوا إيمانهم باللّه وبقدرته ، بالإيمان بكل ما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من شرائع وأحكام وآداب وأخلاق.

ربنا فاستر ذنوبنا الكبائر ، وسيئاتنا الصغائر ، وأكرمنا بصحبة الأخيار الصالحين ، المعدودين في جملتهم ، العاملين بمثل أعمالهم ، كما قال تعالى :

فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ [النساء ٤/ ٦٩].

رَبَّنا وَآتِنا : أعطنا ما وعدتنا من حسن الجزاء كالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، على ألسنة رسلك ، أو على الإيمان والتصديق برسلك. وفي هذا إشعار بتقصيرهم ، والاعتماد على توفيق اللّه وعنايته. ولا تفضحنا أمام الناس يوم القيامة ، إنك صادق الوعد ومنجزه على الإيمان والعمل الصالح ، سواء في الدنيا بالتقدم والتفوق والسيادة ، كما قال تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ [النور ٢٤/ ٥٥] وفي الآخرة بالفوز بالجنة ، كما قال : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ [التوبة ٩/ ٧٢].

ج ٤ ، ص : ٢٠٩

فأجاب اللّه دعاءهم ، لصدق إيمانهم ، وجازى كل عامل بعمله ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، فالذكور والإناث متساوون في الحقوق والواجبات ، وفي الجزاء على صالح الأعمال ، ولا غرابة في ذلك فهم من أصل واحد ، وكل واحد من الذكور والإناث من الآخر وبالعكس ، فالرجل مولود من الأنثى ، والأنثى مولودة من الرجل.

وبعد أن ربط اللّه الجزاء بالعمل أوضح مظاهر العمل ، منها الهجرة في مبدأ الإسلام من مكة إلى المدينة تأييدا لدعوة الإسلام ومؤازرة للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومنها الإخراج والطرد من الديار ، ومنها الإيذاء في سبيل اللّه والقتال والقتل.

فهؤلاء المحسنون أعمالهم يكفر اللّه عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، أثابهم اللّه ثوابا من عنده جزاء العمل الصالح ، وليس عند اللّه إلا حسن الثواب والجزاء وهو الجنة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- على الإنسان النظر والتفكر والاستدلال بعجائب صنع السموات والأرض ، فهي ترشده إلى الإيمان الصحيح ، إذ لا تصدر إلا عن حي قيوم قدير غني عن العالمين لأن الإيمان يجب أن يستند إلى دليل يقيني يدل على تحققه ووجوده ، لا إلى التقليد أو محض الوراثة.

٢- قال العلماء : يستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه ، ويقرأ هذه الآيات العشر ، اقتداء بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، ثم يصلي فرض الصبح وسنته أو ما كتب له ، فيجمع بين التفكر والعمل ، وهو أفضل العمل.

أخرج أبو نصر الوائلي السّجستاني الحافظ عن أبي هريرة أن
ج ٤ ، ص : ٢١٠
رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة.
٣- المؤمن يلازم ذكر اللّه تعالى في كل أحواله ، من قيام وقعود واضطجاع وغيرها ، ليظل على صلة بربه ، فقال سبحانه : اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً [الأحزاب ٣٣/ ٤١] وقال : فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ [البقرة ٢/ ١٥٢].
ويدل هذا على أن المصلي يصلي قائما ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع فعلى جنب ، كما ثبت لدى الأئمة الستة من حديث عمران بن حصين رضي اللّه عنه ، قال : « كانت بي بواسير ، فسألت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن الصلاة فقال : صلّ قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب »
والقيام فرض على القادر في صلاة الفريضة ، وتصح صلاة النافلة حال القعود وأجره نصف أجر القائم ، والمضطجع نصف أجر القاعد ،
ورد في حديث عمران بن حصين في رواية : « صلاة الراقد مثل نصف صلاة القاعد » .
والذكر إما باللسان ، وإما بالصلاة فرضها ونفلها.
٤- ويضم إلى الذكر عبادة أخرى هي التفكر في قدرة اللّه تعالى ومخلوقاته لزيادة التبصر ، وتقوية الإيمان.

٥- صيغ الدعاء في هذه الآيات تدل على الإيمان باللّه والرسول ، وعلى الثقة بوعد اللّه ومصاحبة الأبرار ، وعلى كمال الطلب بمغفرة الذنوب وستر العيوب والبعد عن النار ، فإن اللّه سبحانه وعد من آمن بالجنة ، فسألوا أن يكونوا ممن وعدوا بذلك دون الخزي والعقاب. والدعاء على هذا النحو على جهة العبادة ، والدعاء مخّ العبادة. وطلب النصر على العدو معجّلا لإعزاز الدين ،
روى أنس بن مالك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « من وعده اللّه عز وجل على عمل ثوابا ، فهو منجزّ له رحمة ، ومن وعده على ذنب عقابا فهو فيه بالخيار » .
ومعنى الدعاء بإنجاز ما وعد اللّه : طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب
ج ٤ ، ص : ٢١١
إنجاز الميعاد ، أو هو من باب اللجوء إلى اللّه والخضوع له ، كما كان الأنبياء عليهم السلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم ، يقصدون بذلك التذلل لربهم والتضرع إليه.

٦- تضمن وعد اللّه تعالى على صدق الإيمان وصلاح الأعمال أمورا ثلاثة :
أ- محو السيئات ومغفرة الذنوب ، لقوله تعالى : لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ.
ب- الظفر بجنان الخلد ، لقوله تعالى : وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.
ج- اقتران الثواب بالتكريم لقوله تعالى : مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ.
٧- الجزاء منوط بالعمل ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.
٨- لا فرق بين الذكر والأنثى في العمل والثواب ، فهما من جنس واحد ، ومن نفس واحدة ، وبعضهم من بعض في التكليف والأحكام والطاعة والنصرة ونحو ذلك ، كقوله تعالى : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ [التوبة ٩/ ٧١].
٩- تكرار النداء ب رَبَّنا خمس مرات للاستعطاف وإظهار فضل اللّه بالتربية والملك والإصلاح.
ج ٤ ، ص : ٢١٢

الكافرون والأتقياء ومؤمنو أهل الكتاب وجزاء كل [سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٩٦ الى ٢٠٠]
لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٩٧) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)
الإعراب :
مَتاعٌ قَلِيلٌ خبر مبتدأ محذوف تقديره : تقلبهم متاع قليل ، وحذف لدلالة ما تقدم وهو قوله : لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ...
تَجْرِي جملة فعلية في موضع رفع لأنها صفة لجنات ، أو في موضع نصب على الحال من الضمير : لَهُمْ. خالِدِينَ منصوب على الحال من ضمير لَهُمْ نُزُلًا منصوب على المصدر ، والكلام عليه بمنزلة الكلام السابق على قوله : ثَواباً.
خاشِعِينَ حال من ضمير يُؤْمِنُ المرفوع أو من ضمير إِلَيْهِمْ المجرور ، أو من ضمير لا يَشْتَرُونَ المرفوع ، أي لا يشترون خاشعين.
اصْبِرُوا وَصابِرُوا : لا يجوز أن تدغم هذه الواو الساكنة في الواو المفتوحة التي بعدها لأنها واو الضمير ، وهي تنزل منزلة ألف التثنية. وجاز الإدغام في عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً لأن الواو متصل ، وأما واو اصْبِرُوا

وَصابِرُوا فهو منفصل.
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تفلحون : جملة فعلية في موضع رفع خبر : « لعل » .
ج ٤ ، ص : ٢١٣

البلاغة :
لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ .. استعارة ، أستعير التقلب للضرب في الأرض بقصد التجارة وجلب المكاسب.
المفردات اللغوية :
لا يَغُرَّنَّكَ لا يخدعنك ظاهرهم من غير امتحان تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا تصرفهم في التجارات والمكاسب في البلاد مَتاعٌ قَلِيلٌ أي شيء يتمتع به صاحبه تمتعا يسيرا في الدنيا ، ثم يفنى ويزول ، ووصف بالقلة لأنه قصير الأمد زائل ، وكل زائل قليل مَأْواهُمْ مصيرهم جَهَنَّمُ اسم لدار الجزاء للكفار في الآخرة وَبِئْسَ الْمِهادُ الفراش هي ، والْمِهادُ : المكان الممهد الموطأ كالفراش ، والمراد به جهنم ، وسميت مهادا تهكما نُزُلًا هو ما أعد للضيف من الزاد وغيره لِلْأَبْرارِ جمع بارّ وهو التقي المبالغ في التقوى والبر ، أي ما عند اللّه من الثواب خير للصلحاء من متاع الدنيا.
خاشِعِينَ خاضعين لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا لا يستبدلون بما عندهم في التوراة والإنجيل من بعثة النبي عوضا من الدنيا اصْبِرُوا احبسوا أنفسكم عن الجزع مما ينالها ، وعلى امتثال التكاليف الدينية وَصابِرُوا اسبقوا الكفار في الصبر على شدائد الحرب ، فلا يكونوا أشد صبرا منكم. وَرابِطُوا أي أقيموا في الثغور للجهاد ، مترصدين لغزو العدو ومحصنين لها وَاتَّقُوا اللَّهَ أبعدوا أنفسكم عن غضب اللّه وسخطه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ لتفلحوا أو راجين الفلاح : وهو الفوز بالجنة والنجاة من النار والظفر بالأمل المقصود من العمل.
سبب النزول :
نزول الآية (١٩٦) :
لا يَغُرَّنَّكَ : نزلت في مشركي مكة ، فإنهم كانوا في رخاء ولين من العيش ، وكانوا يتجرون ويتنعمون ، فقال بعض المؤمنين : إن أعداء اللّه فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهد ، فنزلت الآية.
نزول الآية (١٩٩) :
وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ :
روى النسائي عن أنس قال : لما جاء نعى النجاشي
ج ٤ ، ص : ٢١٤

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : صلوا عليه ، قالوا : يا رسول اللّه ، نصلي على عبد حبشي ، فأنزل اللّه : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ ..

و كذلك قال جابر بن عبد اللّه وابن عباس وقتادة : نزلت في النجاشي.

نزول الآية (٢٠٠) :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا : روى الحاكم في صحيحة : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا ابن أخي- مخاطبا داود بن صالح- هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا .. ؟ قال :

قلت : لا ، قال : إنه يا ابن أخي ، لم يكن في زمان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ثغر يرابط فيه ، ولكن انتظار الصلاة خلف الصلاة.

المناسبة :

لما وعد اللّه المؤمنين بالثواب العظيم ، وكانوا في دنياهم فقراء ، والكفار في نعيم ورخاء ، ذكر تعالى في هذه الآية ما يسلّيهم ويصبرهم على تلك الشدة ، عن طريق المقارنة بين نعيمي الدنيا والآخرة ، فنعيم الدنيا فان زائل ، ونعيم الآخرة خالد باق.

التفسير والبيان :

لا تنظر إلى ما عليه الكفار من الترف والنعمة والسرور ، فإن هذا سيزول عنهم قريبا ، ويصبحون مرتبطين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجا ، وتنقلهم في البلاد للكسب والتجارة مجرد متاع قليل ، يتمتعون به فترة من الزمان ، ثم تصير جهنم مستقرهم ومأواهم ، وبئس المقر مقرهم في جهنم.

وهذا كقوله تعالى : ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ .. غافر ٤٠/ ٤] وقوله : قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

ج ٤ ، ص : ٢١٥

لا يُفْلِحُونَ. مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ، ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ ، بِما كانُوا يَكْفُرُونَ]

يونس ١٠/ ٦٩- ٧٠] وقوله : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ [لقمان ٣١/ ٢٤] وقوله : أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ، ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ [القصص ٢٨/ ٦١].

وبعد أن ذكر حال الكفار في الدنيا وأن مآلهم إلى النار ، ذكر حال المؤمنين المتقين : الذين اتقوا ربهم بفعل الطاعات وترك المنهيات ، ولهم جنات النعيم ، خالدين فيها أبدا ، تكريما من عند اللّه ، وما عند اللّه من الكرامة فوق ما تقدم خير وأفضل مما يتمتع به الذين كفروا من متاع قليل فان. وهذا كقوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ، خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا [الكهف ١٨/ ١٠٧- ١٠٨].

روى ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إنما سمّوا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقا ، كذا لولدك عليك حق » .

ثم أخبر اللّه تعالى عن طائفة من أهل الكتاب اهتدوا بالقرآن ، كما اهتدوا بما عندهم من هدي الأنبياء ، مثل عبد اللّه بن سلام وأصحابه والنجاشي ، وقد وصفهم اللّه بصفات ممتازة هي :

١- الإيمان باللّه إيمانا صادقا تاما.

٢- الإيمان تفصيلا بالقرآن المنزل على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو الكتاب الإلهي الوحيد الباقي السالم من التحريف.

٣- الإيمان إجمالا بما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل.

٤- الخشوع للّه وهو ثمرة الإيمان الصحيح ، ومتى خشع القلب للّه خشعت النفس كلها.

٥- عدم اشتراء شيء من متاع الدنيا بآيات اللّه ، أي يحافظون على الوحي كما هو دون كتم شيء منه من البشارة بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم وصفته وبعثته وصفة أمته دون تحريف ولا تبديل. فهؤلاء المتصفون بهذه الصفات سواء كانوا هودا أو نصارى لهم الثواب الكامل على أعمالهم وطاعاتهم عند ربهم الذي رباهم بنعمه وهداهم إلى الحق ، واللّه سريع الحساب فهو سريع الإحصاء ، يحاسب الناس جميعا في وقت قصير حسابا لا خلل فيه ولا قصور ، ولا مهرب ولا معقب على حكم اللّه. وهذا كقوله تعالى : الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا : آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ، أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا [القصص ٢٨/ ٥٢- ٥٤]

وقوله : وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [الأعراف ٧/ ١٥٩].
هذه الصفات وجدت في بعض اليهود وهم قلة مثل عبد اللّه بن سلام وأمثاله من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس ، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق ، كما قال تعالى : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا : إِنَّا نَصارى إلى قوله تعالى : فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها [المائدة ٥/ ٨٥].
ثم ختم اللّه تعالى هذه السورة بوصية عامة للمؤمنين تؤهلهم لإجابة الدعاء والنصر في الدنيا والثواب في الآخرة ، وتتضمن الوصية :
– الصبر على التكاليف الدينية ومنها الصلوات الخمس ، وعلى المصائب والشدائد من مرض وفقر وخوف.

– المصابرة للأعداء أي مسابقتهم إلى تحمل الشدائد والمكاره ، ومصابرة الأنفس والهوى.

– المرابطة في الثغور استعدادا للقاء العدو وفي المساجد ، وفي مواطن الاستعداد للجهاد على الحدود القريبة للأعداء ،
روى البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « رباط يوم في سبيل اللّه خير من الدنيا وما فيها »
و
في صحيح مسلم عن سلمان قال : « سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول :
« رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجري عليه رزقه ، وأمن الفتّان »
أي الشيطان.
– تقوى الإله والخوف منه والحذر من عذابه ومراقبته في السر والعلن وامتثال المأمورات واجتناب المحظورات.
ولا شك أن من يلتزم بهذه الوصية يصل إلى الفلاح والفوز بالمأمول والنجاة والظفر في الدنيا والآخرة.
فقه الحياة أو الأحكام :
أرشدت الآيات إلى ما يلي وهي وصايا تصلح خلاصة لما تضمنته سورة آل عمران :

١- عدم الاغترار بما عليه الكفار من سعة ورفاه ورغد عيش في الدنيا ، فذلك كله إلى زوال وعذابهم قريب في نار جهنم ، والباقي الخالد وهو نعيم الآخرة خير منه ، والإنعام على الإنسان مع بقائه على كفره ومعاصيه استدراج ، لا دليل الرضا عنه.

٢- للأتقياء الطائعين جزاء حسن واف وهو الخلود في جنان اللّه الفسيحة ، إكراما لهم.

٣- إن إقدام بعض أهل الكتاب على الإيمان بالقرآن هو استمرار للإيمان بكتبهم السابقة ، وهو خير لهم وأبقى.

ج ٤ ، ص : ٢١٨

٤- الصبر على الطاعات ، ومصابرة العدو والنفس والهوى ، والمرابطة عند الثغور ، وتقوى اللّه طريق الفوز والنصر في الدنيا على الأعداء ، والنجاة من عذاب اللّه ، والظفر بنعيم الآخرة.

ج ٤ ، ص : ٢١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

مدنية وهي مائة وست وسبعون آية ، وهي السورة الرابعة من القرآن الكريم.

مدنيتها :

روى البخاري عن عائشة قال : « ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم » . وبدأت حياتها مع النبي في شوال من السنة الأولى للهجرة.

فضلها :

روى الحاكم في مستدركه عن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن مسعود قال : إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها : إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ الآية ، وإِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ الآية ، وإِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ولَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ الآية. ثم قال الحاكم : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه ، فقد اختلف في ذلك. ويؤيده ما رواه عبد الرزاق وابن جرير الطبري عن ابن مسعود بعبارة مقاربة.

مناسبتها لآل عمران :

هناك أوجه شبه ووشائج صلة تربط بين السورتين أهمها :

ج ٤ ، ص : ٢٢٠

١- اختتام آل عمران بالأمر بالتقوى للمؤمنين ، وافتتاح هذه السورة بذلك للناس جميعا.

٢- نزول آية فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ .. بمناسبة غزوة أحد ، مع نزول ستين آية في الغزوة في آل عمران.

٣- نزول آية وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ بمناسبة غزوة حمراء الأسد بعد نزول آيات الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ في تلك الغزوة في آل عمران (١٧٢- ١٧٥).

لتسمية :

سميت « سورة النساء الكبرى » لكثرة ما فيها من أحكام تتعلق بالنساء ، وسميت سورة الطلاق في مقابلها « سورة النساء القصرى » .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت السورة الكلام عن أحكام الأسرة الصغرى- الخلية الاجتماعية الأولى ، والأسرة الكبرى- المجتمع الإسلامي وعلاقته بالمجتمع الإنساني ، فأبانت بنحو رائع وحدة الأصل والمنشأ الإنساني بكون الناس جميعا من نفس واحدة ، ووضعت رقيبا على العلاقة الاجتماعية العامة بالأمر بتقوى اللّه في النفس والغير وفي السر والعلن.

وتحدثت السورة بنحو مطول عن أحكام المرأة بنتا وزوجة ، وأوضحت كمال أهلية المرأة واستقلالها بذمتها المالية عن الرجل ولو كان زوجا ، وحقوقها الزوجية في الأسرة من مهر ونفقة وحسن عشرة وميراث من تركة أبيها أو زوجها ، وأحكام الزواج وتقديس العلاقة الزوجية ، ورابطة القرابة المحرمية والمصاهرة ، وكيفية فض النزاع بين الزوجين والحرص على عقدة النكاح ، وسبب

« قوامة الرجل » وأنها ليست سلطة استبدادية ، وإنما هي غرم ومسئولية وتبعة ولتسيير شؤون هذه المؤسسة الصغيرة.

ثم أوضحت السورة ميزان الروابط الاجتماعية وأنها قائمة على أساس التناصح والتكافل ، والتراحم والتعاون ، لتقوية بنية الأمة.

وتكاملت أنماط وصور علاقة هذا المجتمع بالمجتمعات الأخرى ، سواء مع الجماعات أو الدول ، فحددت السورة قواعد الأخلاق والمعاملات الدولية ، وبعض أحكام السلم والحرب ، ونواحي محاجة أهل الكتاب ومناقشتهم ، وما يستتبع ذلك من الحملة المركزة على المنافقين. وذلك كله من أجل إقامة المجتمع الفاضل في دار الإسلام وتطهيره من زيغ العقيدة وانحرافها عن « عقيدة التوحيد » العقلية الصافية إلى فكرة التثليث النصرانية المعقدة البعيدة عن حيّز الإقناع العقلي والاطمئنان النفسي ، كما

قال تعالى : وَلا تَقُولُوا : ثَلاثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ [النساء ٤/ ١٧١].
وحدة الأصل الإنساني ووحدة الزوجين ورابطة الأسرة [سورة النساء (٤) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)
الإعراب :
وَالْأَرْحامَ : معطوف على اسم اللّه تعالى ، وتقديره : واتقوا اللّه واتقوا الأرحام أن
ج ٤ ، ص : ٢٢٢
تقطعوها. ومن قرأه بالجر فقد قال الكوفيون : إنه معطوف على الهاء في بِهِ وأباه البصريون وقالوا : ولا يجوز العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار لأن المضمر المجرور كالتنوين ، ولا يعطف على التنوين. ومنهم من قال : إنه مجرور بباء مقدرة لدلالة الأولى عليها.
البلاغة :
يوجد طباق بين قوله : رِجالًا وَنِساءً ويوجد إيجاز في قوله : رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً أي ونساء كثيرات.
المفردات اللغوية :
النَّاسُ اسم للجنس البشري ، واحده من غير لفظه : إنسان. اتَّقُوا رَبَّكُمُ أي اتقوا عقابه بأن تطيعوه مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ آدم وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها حواء ، من ضلع من أضلاعه اليسرى وَبَثَّ فرق ونشر مِنْهُما من آدم وحواء من طريق التناسل والتوالد رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً كثيرات تَسائَلُونَ أي تتساءلون ، أي يسأل بعضكم بعضا بأن يقول : سألتك باللّه أن تفعل كذا ، وأسألك باللّه ، وأنشدك باللّه وَالْأَرْحامَ جمع رحم ، وهي هنا القرابة من جهة الأب أو الأم ، أي اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، والمراد : خافوا حق إضاعة الأرحام. ومن قرأ بالجر عطفه على الضمير في بِهِ وكانوا يتناشدون بالرحم رَقِيباً أي مشرفا والمراد : حافظا لأعمالكم ، فيجازيكم بها ، وهو لا يزال متصفا بذلك ، فهو الحفيظ المطلع العالم بكل شي ء.
التفسير والبيان :

يأمر اللّه تعالى الناس العقلاء بتقواه بامتثال الأوامر واجتناب المنهيات في كل ماله صلة بعبادته وحده لا شريك له وبحقوق العباد ، ويؤكد الأمر بالتقوى بما يحمل على الامتثال ، بذكر الربوبية المضافة إلى المخاطبين التي تربيهم بنعمه وتفيض عليهم من إحسانه ، ثم ذكر لفظ اللّه في الأمر الثاني بالتقوى ، لأن اللّه علم المهابة والجلالة ، ثم التذكير بأنه خالقهم ، والتنبيه على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، فهم من أصل واحد كلهم لآدم وآدم من تراب ، وأنه خلق من تلك النفس زوجها وتناسل منهما البشر ذكورا وإناثا ، وجعل من تلك الذرية رابطة الأسرة القائمة على الرحم وصلة الدم والقرابة مما يدعوهم إلى التراحم

ج ٤ ، ص : ٢٢٣

و التعاون. وكل ذلك دليل على القدرة الإلهية الباهرة التي تستوجب التقوى ، وتحذر من العقاب ، كما أن نعمة القرابة تدعو إليها عرفانا بالوفاء وقياما بحق الشكر لأن القرابة دعم وصلة وتعاطف وود ومحبة تشعر الإنسان بالسعادة ، وتجعله يحس بالقوة المعنوية في المجتمع ، فيسر بسرور أسرته ويحزن بحزنها ، و

قد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أحمد والحاكم عن المسور : « فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ، ويبسطني ما يبسطها .. » .

وفي التذكير بالأصل الإنساني الواحد دلالة على وجوب التزام حدود الإنسانية ، وأن الإنسان أخ الإنسان أحب أم كره ، والأخوة تقتضي المسالمة والتعاون ونبذ المحاربة والخصومة والتقاطع.

والمقصود بالنفس الواحدة في رأي جمهور العلماء : آدم عليه السلام الذي هو أبو البشر ، وأنه ليس هناك سوى آدم واحد ، أما من يدعي وجود أوادم قبله ، فهو يصادم ظواهر القرآن الكريم.

والمقصود بالزوج هو حواء ، وقد خلقت من ضلع آدم الأيسر ، وهو نائم ، فاستيقظ ، فرآها فأعجبته ، وأنس إليها وأنست إليه ، بدليل

(٢٣٣/٤)

الحديث الصحيح عند الشيخين أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « استوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج » .

وذهب بعض العلماء كأبي مسلم الأصفهاني إلى أن المراد : أنه خلق من جنسها زوجها ، فهما من جنس واحد ، وطبيعة واحدة ، وأي فائدة من خلقها من الضلع لأنه سبحانه وتعالى قادر على خلقها كآدم من التراب ؟ واستدل بقوله تعالى : وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها

[الروم ٣٠/ ٢١] أي من جنسكم ، مثل قوله تعالى : هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ [الجمعة ٦٢/ ٢] أي من جنسهم ، ومثل : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ [التوبة ٩/ ١٢٨].

ج ٤ ، ص : ٢٢٤

و يرد عليه بأن ذلك مخالف لما دل عليه الحديث الصحيح المتقدم ، وتكون الحكمة هي إظهار قدرة اللّه على أن يخلق حيا من حي ، لا على سبيل التوالد ، كقدرته على أن يخلق حيا من جماد.

ثم بين اللّه تعالى طريق تكاثر النوع الإنساني ، فذكر أنه نشر وفرق من آدم وحواء نوعي جنس البشر وهما الذكور والإناث التي تفرع منهما الإنسان الذي سكن الأرض وعمرها.

ثم أكد تعالى الأمر السابق بالتقوى من طريق سؤال الناس بعضهم بعضا باللّه لقضاء حوائجهم ، فذلك السؤال باللّه يدل على الإيمان به وتعظيمه ، فيقول : سألتك باللّه أن تقضي هذه الحاجة ، راجيا إجابة طلبه ، فهذا القول من موجبات امتثال أوامر اللّه ، ومن امتثل ذلك اتقى اللّه وحذر مخالفة أوامره واجتنب نواهيه.

وكما يجب اتقاء اللّه يجب اتقاء قطع الأرحام ، أي اتقوا اللّه الذي تتساءلون باسمه إيمانا به وتعظيما له ، واتقوا الأرحام ، أي صلوها بالود والإحسان ولا تقطعوها ، فإن قطعها مما يجب أن يتقى.

ثم ختم تعالى الآية بإعلامه أنه مطلع على كل شيء رقيب حفيظ لكل عمل وحال ، فلا يشرع لنا إلا ما به حفظنا ومصلحتنا ، وهو البصير بأحوالنا. وهذا في موضع التعليل للأمر بالتقوى ووجوب الامتثال.

وهذه الخاتمة مثل قوله تعالى : وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [المجادلة ٥٨/ ٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى أحكام كثيرة :

١- وجوب التزام التقوى التي هي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات.

وقد أكد تعالى الأمر بها حثا عليها ، فعبّر أولا للترغيب بلفظ (الرب) الذي

ج ٤ ، ص : ٢٢٥

يدل على التربية والعناية والإنعام والإحسان ، ثم للترهيب بلفظ اللَّهَ الذي يدل على الهيبة والجلال ، وهو مصداق قوله تعالى : يَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً هذا بالإضافة لمؤكدات أخرى كالسؤال باللّه على سبيل الاستعطاف مما يدل على الإيمان باللّه وتعظيمه ، وكرقابة اللّه واطلاعه على جميع أحوال الناس وأعمالهم ، مما يقتضي الاتقاء والحذر من العصيان والمخالفة للأوامر والنواهي.

٢- كون البشرية من أصل واحد ومنشأ واحد ، أبوهم آدم وآدم من تراب ، فهي النفس الواحدة ،

ووحدتها تقتضي جعل الأسرة الإنسانية متراحمة متعاونة متحابة غير متعادية ولا متخاصمة ولا متقاطعة.
٣- المراد بالنفس الواحدة آدم أبو البشر عليه السلام ، والنفس هنا هي الجسم والروح. وللجسم أو الجسد وظائف عضوية مادية ، وللنفس وظائف روحية ومعنوية ، وآثار محسوسة مثل العقل والحفظ والتذكير.
واختلف العلماء المسلمون في حقيقة النفس أو الروح على رأيين : رأي يقول : إنها حالة تعرض للجسم ما دام حيا ، والرأي الأشهر : أنها جسم نوراني علويّ خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ، ويسري فيها سريان الماء في النبات ، منفصل عن الجسم ، متصل به في حال الحياة.

(٢٣٥/٤)

و افتتاح السورة ب أَيُّهَا النَّاسُ بالرغم من أن السورة مدنية براعة استهلال لما في السورة من أحكام الزواج والمواريث والحقوق الزوجية ، وأحكام المصاهرة والرضاع وغيرها من أحكام الرابطة الإنسانية.
والغالب إذا كان الخطاب ب يا أَيُّهَا النَّاسُ وكان الخطاب للكافرين فقط أو معهم غيرهم أعقب بدلائل الوحدانية والربوبية ، وإذا كان الخطاب للمؤمنين أعقب بذكر النعم.
٤- المرأة جزء حقيقي من الرجل ، منه خلقت ، وإليه تعود ، يأنس كل منهما بالآخر ، ويألفه ويحن إليه ، سواء أكانت المرأة أما أم أختا أم بنتا أم
ج ٤ ، ص : ٢٢٦
زوجة ، مما يوجب دوام التعاون بينهما في مسيرة الحياة ، ويدل على تكامل الكون بوجود عنصري الذكورة والأنوثة ، ويبرهن على أنهما مصدر بقاء النوع الإنساني ، كما جاء في الآية : وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً.
٥- جواز المساءلة باللّه تعالى ،
روي عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم : « من سألكم باللّه فأعطوه » .
٦- تعظيم رابطة القرابة وحق الرحم وتأكيد النهي عن قطعها ، سواء أكانت من جهة الأب أم من جهة الأم إذ قرن اللّه الأرحام باسمه تعالى ، وحذر من قطيعة الرحم في آية أخرى هي : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ [محمد ٤٧/ ٢٢] فقرن قطع الرحم إلى الفساد في الأرض.
واتفق المسلمون على أن صلة الرحم واجبة ، وأن قطيعتها محرّمة ، وقد صح
أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال لأسماء ، وقد سألته : « أ أصل أمي » : « نعم صلي أمك » فأمرها

بصلتها وهي كافرة مشركة.

و

(٢٣٦/٤)

أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن اللّه تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : أما ترضين أني أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذلك لك » .

والرحم هنا : اسم لكافة الأقارب من غير فرق بين المحرم كالأخت والخالة وغيره ، كابن العم.

وتدل الآية أيضا على جواز التساؤل بالأرحام ، على قراءة إبراهيم النخعي وقتادة والأعمش وحمزة : « الأرحام » بالجر ، وليس في ذلك حلف بغير اللّه لأن قول الرجل لصاحبه : أسألك بالرحم أن تفعل كذا ليس الغرض منه سوى الاستعطاف والتأكيد ، فهو ليس بيمين ، فلا يكون من المنهي عنه

في حديث الشيخين عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من كان حالفا فليحلف باللّه أو ليصمت » .

ج ٤ ، ص : ٢٢٧

٧- دل قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً على مراقبة اللّه في السر والعلن ، فهو إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب ، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ويحثهم على ضعفائهم. و

قد ثبت في صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد اللّه البجلي أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حين قدم عليه أولئك النفر من مضر- وهم مجتابو النمار أي من عريهم وفقرهم- قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر ، فقال في خطبته : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ حتى ختم الآية ، ثم قال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ [الحشر ٥٩/ ١٨] ثم حضهم على الصدقة فقال : « تصدق رجل من دينار ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره » الحديث. وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود.

إيتاء اليتامى أموالهم وتحريم أكلها [سورة النساء (٤) : آية ٢]

(٢٣٧/٤)

وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (٢)

البلاغة :

وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ مجاز مرسل باعتبار ما كان ، أي أتوا الذين كانوا يتامى.

وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ : الباء داخلة على المتروك ، كما هو المقرر لغة ، وفيهما طباق.

المفردات اللغوية :

الْيَتامى جمع يتيم : وهو من فقد أباه ، وهو شرعا وعرفا مختص بمن كان دون البلوغ ،

ج ٤ ، ص : ٢٢٨

و يكون المراد : آتوا الصغار الذين لا أب لهم أَمْوالَهُمْ إذا بلغوا الْخَبِيثَ الحرام بِالطَّيِّبِ الحلال ، أي لا تأخذوا بدل الطيب الحلال مالا حراما ، كما تفعلون من أخذ الجيد من مال اليتيم ، وجعل الرديء من مالكم مكانه.

وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ أي لا تجعلوها مضمومة إليها إِنَّهُ أي أكلها كانَ حُوباً كَبِيراً إثما وذنبا عظيما.

سبب النزول :

قال مقاتل والكلبي : نزلت في رجل من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب المال ، فمنعه عمه ، فترافعا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فنزلت هذه الآية ، فلما سمعها العم قال : أطعنا اللّه وأطعنا الرسول ، نعوذ باللّه من الحوب الكبير ، فدفع إليه ماله ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : من يوق شح نفسه ورجع به هكذا ، فإنه يحلّ داره ، يعني جنته ، فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل اللّه تعالى ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : ثبت الأجر وبقي الوزر ، فقالوا : يا رسول اللّه ، قد عرفنا أنه ثبت الأجر ، فكيف بقي الوزر ، وهو ينفق في سبيل اللّه ؟ فقال : ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده « ١ » .

التفسير والبيان :

موضوع الآية : يأمر اللّه تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم. والخطاب للأوصياء ما دام المال بأيديهم واليتامى عندهم.

وهذا شروع في بيان أحوال التقوى ، وأولها الحفاظ على مال الأيتام الضعفاء ، بعد تذكير اللّه بصلة الرحم والقرابة.

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٨١

ج ٤ ، ص : ٢٢٩

و المعنى : يا أيها الأوصياء على اليتامى ، أعطوا الأيتام أموالهم بعد البلوغ كاملة غير منقوصة ، وأنفقوا عليهم في حال أصغر من أموالهم ، ولا تضموا شيئا منها إلى أموالكم ، وعبر بالأكل عن سائر التصرفات المتلفة للأموال وسائر وجوه الانتفاع لأن معظم ما يقع من التصرفات لأجل الأكل. وقوله : إلى بمعنى « مع » أو بمعناها الحقيقي أي لا تضيفوا أموالهم وتضموها إلى أموالكم في الأكل. فإنكم إن فعلتم ذلك استبدلتم بالحلال وهو مالكم المكتسب من فضل اللّه ، الحرام وهو مال الأيتام ، ويكون هذا الأكل ذنبا عظيما وإثما كبيرا. روي أنهم كانوا يضعون الشاة الهزيلة ويأخذون بدلها شاة سمينة ، فنهوا عن ذلك.

واليتيم : من مات أبوه مطلقا ، ولكن خصص في الشرع والعرف كما بينت بالصغير ، لقول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم- فيما يرويه أبو داود عن علي رضي اللّه عنه- : « لا يتم بعد احتلام » .

وليست الآية في إيتاء اليتامى أموالهم على ظاهرها ، فلا يعطونها قبل البلوغ ، ويكون إيتاء الأموال مجازا عن تركها سالمة من غير أن يتعرض لها بسوء ، بدليل الآية الأخرى : وَابْتَلُوا الْيَتامى أي اختبروا صلاحيتهم لتسلم أموالهم عند البلوغ ، فهذه الآية حث على تسليم المال فعلا عند حصول البلوغ والرشد ، وأما الآية : وَآتُوا الْيَتامى فهي حث على حفظ أموال اليتامى لتسلم لهم عند بلوغهم ورشدهم.

(٢٣٩/٤)

و الأولى أن يكون الإيتاء مستعملا بمعناه الحقيقي وهو الإعطاء بالفعل ، وتكون كلمة الْيَتامى مجازا باعتبار ما كان ، وعبر باليتامى لقرب العهد بالصغر ، وللإشارة إلى وجوب المسارعة والمبادرة بدفع أموالهم إليهم لأن اليتم ضعف ، وهو يستدعي الرحمة والعفة ، حتى كأن اسم اليتم باق بعد البلوغ ، وهذا المعنى يسمى في أصول الفقه بإشارة النص.

ج ٤ ، ص : ٢٣٠

فقه الحياة أو الأحكام :

قال مجاهد : وهذه الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق ، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها ، فنهوا عن ذلك ، ثم نسخ بقوله : وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ [البقرة ٢/ ٢٢٠].

وليس المراد بالآية إيتاء اليتامى أموالهم في حال اليتم ، وإلا تعرضت للضياع ، وإنما يجب الدفع إليهم بعد البلوغ وإيناس الرشد ، عملا بالآية التالية :

وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً ، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ [النساء ٤/ ٦].

قال الجصاص الرازي الحنفي : أطلق اللّه تعالى في آية :

وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ إيجاب دفع المال من غير قرينة الرشد ، ومتى وردت آيتان إحداهما خاصة مضمنة بقرينة فيما تقتضيه من إيجاب الحكم ، والأخرى عامة غير مضمنة بقرينة ، وأمكن استعمالهما على فائدتهما ، لم يجز لنا الاقتصار بهما على فائدة إحداهما ، وإسقاط فائدة الأخرى.

ثم ذكر الجصاص رأي أبي حنيفة : وهو وجوب تسليم المال إلى اليتيم إذا بلغ خمسا وعشرين سنة على أي حال كان ، فإذا بلغها ولم يؤنس منه رشد ، وجب دفع المال إليه ، لقوله تعالى : وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ فيستعمله بعد خمس وعشرين سنة على مقتضاه وظاهره ، وفيما قبل ذلك لا يدفعه إلا مع إيناس الرشد ، لاتفاق أهل العلم على أن إيناس الرشد قبل بلوغ هذه السن شرط وجوب دفع المال إليه « ١ » .

(٤/٢٤٠)

و قال أبو حنيفة : لما بلغ رشده صار يصلح أن يكون جدّا ، فإذا صار يصلح أن يكون جدا ، فكيف يصح إعطاؤه المال بعلة اليتم وباسم اليتم ؟ ! وهل ذلك إلا في غاية البعد ؟

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٢/ ٤٩

ج ٤ ، ص : ٢٣١

ورد ابن العربي على ذلك الرأي فقال : الحكم بخمس وعشرين سنة لا وجه له ، لا سيما وأبو حنيفة يرى المقدّرات لا تثبت قياسا ، وإنما تؤخذ من جهة النص ، وليس في هذه المسألة نص ولا قول من جميع وجوهه ، ولا يشهد له المعنى « ١ » .

والخلاصة : دلت الآية على أمرين :

١- وجوب دفع أموال اليتامى لهم عند توافر الأهلية الملائمة لإدارة الأموال.

٢- كل وجوه الانتفاع ومنها الأكل بمال اليتيم حرام ومن كبائر الذنوب العظيمة إلا عند الحاجة ، عملا بالآية التالية : وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ [النساء ٤/ ٦].

إباحة تعدد الزوجات إلى أربع ووجوب إيتاء المهر [سورة النساء (٤) : الآيات ٣ الى ٤]

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذلِكَ أَدْنى أَلاَّ تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (٤)

الإعراب :

فِي الْيَتامى أي في نكاح اليتامى ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ منصوب على البدل من ما للعدل والوصف ، أي أن الكلمات الثلاث من ألفاظ العدد ، معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة ، وتدل كل واحدة منها على المكرر من نوعها ، فمثنى

)

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ١/ ٣٠٩

ج ٤ ، ص : ٢٣٢

تدل على اثنين اثنين ، وثلاث تدل على ثلاثة ثلاثة ، ورباع تدل على أربعة أربعة. ويصح كونها منصوبا على الحال من فاعل طاب أو من مرجعه.

فَواحِدَةً أي فانكحوا واحدة ، وهو جواب الشرط في قوله : فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا وقرئ بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره : فهي واحدة ، أو مبتدأ محذوف الخبر تقديره :

فامرأة واحدة تقنع ، والأول أولى.

نِحْلَةً منصوب على المصدر نَفْساً منصوب على التمييز هَنِيئاً مَرِيئاً : حالان من هاء فَكُلُوهُ وهي تعود على شي ء. والواو في فَكُلُوهُ تعود على الأولياء أو على الأزواج.

المفردات اللغوية :

تُقْسِطُوا تعدلوا ولم تظلموا ، من أقسط : عدل ، مثل قوله تعالى : وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. وأما قسط : فمعناه جار ، قال تعالى : أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً

.

ما طابَ لَكُمْ ما مال إليه القلب منهن. مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ هذه ألفاظ عدد معدولة عن اثنتين اثنتين ، وثلاث ثلاث ، وأربع أربع فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فيهن بالنفقة والقسم في المبيت والمعاملة فَواحِدَةً أي انكحوا واحدة أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ اقتصروا على ما ملكتم من الإماء ، إذ ليس لهن من الحقوق ما للزوجات.

ذلِكَ أي نكاح الأربع فقط أو الواحدة أو التسري أَدْنى أقرب إلى أَلَّا تَعْدِلُوا تجوروا ، أي ذلك أقرب إلى عدم العول والجور.

وَ آتُوا أعطوا صَدُقاتِهِنَّ مهورهن ، جمع صدقة نِحْلَةً عطية وهبة عن طيب نفس فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً تمييز محول عن الفاعل ، أي طابت أنفسهن لكم عن شيء من الصداق ، فوهبنه لكم هَنِيئاً مَرِيئاً الهني ء : ما يستلذه الآكل ، والمري ء : ما تحسن عاقبته وهضمه وتغذيته ، أي أنه محمود العاقبة لا ضرر فيه عليكم في الآخرة.

سبب النزول :

نزول الآية (٣) :

وَإِنْ خِفْتُمْ : روى الصحيحان والنسائي والبيهقي وغيرهم عن عروة بن الزّبير أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها عن هذه الآية ،

ج ٤ ، ص : ٢٣٣

فقالت : يا ابن أختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها ، يشركها في مالها ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد أن يتزوّجها من غير أن يقسط في صداقها فلا يعطيها مثل ما يعطى أترابها من الصداق ، فنهوا عن ذلك ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع.

وقال سعيد بن جبير وقتادة والرّبيع والضّحّاك والسّدّي : كانوا يتحرّجون عن أموال اليتامى ويترخّصون في النّساء ، ويتزوّجون ما شاؤوا ، فربّما عدلوا وربما لم يعدلوا ، فلما سألوا عن اليتامى ، فنزلت آية اليتامى : وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ الآية ، أنزل اللّه تعالى أيضا : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى يقول : كما خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ، فكذلك فخافوا في النساء ألا تعدلوا فيهنّ ، فلا تتزوّجوا أكثر ما يمكنكم القيام بحقهنّ لأن النساء كاليتامى في الضعف والعجز.

وهذا قول ابن عبّاس في رواية الوالبي (علي بن ربيعة بن نضلة ثقة من كبار الثالثة).

نزول الآية (٤) :

وَآتُوا النِّساءَ : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال : كان الرجل إذا زوّج ابنته أخذ صداقها دونها ، فنهاهم اللّه عن ذلك ، فأنزل : وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً.

التفسير والبيان :

موضوع الآية يتحدد بحسب النزول فهو إما في التزوّج بالنساء غير اليتيمات ، أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها ، فليعدل إلى ما سواها من النساء ، فإنهن كثير ولم يضيق اللّه عليه.

وإما في العدل بين النساء ومنع إلحاق الظلم بهنّ حالة التعدد ، أي أنه لما نزلت آية : وَآتُوا الْيَتامى

أَمْوالَهُمْ تحرج الأولياء من ولايتهم مع أنهم كانوا

ج ٤ ، ص : ٢٣٤

لا يتحرّجون من ترك العدل في حقوق النساء ، حيث كان تحت الرجل عشرة منهن ، لا يعدل بينهن ، فقيل لهم : إن خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى ، فتحرجتم ، فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء ، وقللوا عدد المنكوحات منهن لأن من تحرّج من ذنب ، وهو مرتكب مثله ، فهو غير متحرج.

والمراد من الخوف : العلم ، عبر بذلك إيذانا بكون المعلوم مخوفا محذورا.

أي إن علمتم وأحسستم من أنفسكم إلحاق الظلم باليتامى بعدم إعطائهن مهورهن ، أو بأكل أموال الأيتام بالباطل ، فعليكم ألا تتزوّجوا باليتيمة ، وتزوّجوا بغيرها من النساء واحدة أو ثنتين أو ثلاثا أو أربعا ، أو عليكم أن تعدلوا بين النساء حال التعدد ، فلا تتزوجوا بأكثر من أربع لتتمكنوا من العدل والقسم بينهن ، وتكون أحوال الرجال زمرا متنوعة ، فمنهم من يتزوّج اثنتين ، ومنهم من يتزوّج ثلاثا ، ومنهم من يتزوّج أربعا ، وعدد الأربع هو الحدّ الأقصى الذي يمكن معه العدل بين الزوجات.

والأمر في قوله : فَانْكِحُوا للإباحة ، مثل قوله تعالى : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا [البقرة ٢/ ١٨٧ وغيرها] ، وقيل : للوجوب أي وجوب الاقتصار على العدد المأخوذ من قوله تعالى : مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ لا وجوب أصل النكاح.

(٤/٢٤٤)

و قوله : مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ تدلّ كلّ كلمة منها على المكرر من نوعها ، فمثنى تدلّ على اثنين اثنين ، وثلاث تدلّ على ثلاثة ثلاثة ، ورباع تدلّ على أربعة أربعة ، والمراد منها الإذن لكلّ من يريد الجمع أن ينكح ما شاء من العدد المذكور ، متّفقين فيه أو مختلفين.

ثمّ أكّد اللّه تعالى ضرورة التزام العدل بين الزوجات المتعددات ، المفهوم من قوله وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ... فذكر أنه إن خفتم ألا تعدلوا حال تعدّد الزوّجات ،

ج ٤ ، ص : ٢٣٥

فعليكم أن تلزموا الزوّاج بواحدة ، فإن الذي يباح له التعدّد هو من يثق بنفسه بتحقيق العدل المأمور به صراحة في قوله تعالى : وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ [النساء ٤/ ١٢٩]. وقد يحمل هذا على العدل في ميل القلب ، ولولا ذلك لكان مجموع الآيتين منتجا عدم جواز التعدّد بوجه ما.

والخوف من عدم العدل يشمل حال الظنّ والشّك في ذلك. فإما أن تقتصروا على واحدة من الحرائر أو تقتصروا على الاستمتاع بما تشاؤون من الإماء (السّراري) بطريق التّسري لا بطريق النكاح لعدم

وجوب العدل بينهن ، وإنما المطلوب فقط حقّ الكفاية في نفقة المعيشة بحسب العرف.
ذلك أي اختيار الواحدة أو التّسري أقرب إلى الوقوع في عدم الجور والظلم ، فالمراد من قوله : أَلَّا تَعُولُوا ألا تجوروا. وحكي عن الإمام الشافعي رضي اللّه عنه أنه فسّر أَلَّا تَعُولُوا بألا تكثر عيالكم ، نقل الكسائي والأصمعي والأزهري عن فصحاء العرب : عال يعول : إذا كثرت عياله.

(٤/٢٤٥)

و الخلاصة : إن البعد عن الجور سبب في تشريع الاقتصار على واحدة أو على التّسري ، وفيه إشارة إلى اشتراط العدل بين الزوجات. والعدل المطلوب بين النساء هو العدل المادي أي القسم بينهن في المبيت ، والتّسوية في نفقات المعيشة من مأكل ومشرب وملبس ومسكن. أما العدل المعنوي أو الأمر القلبي وهو الميل والحبّ فغير مطلوب لأنه ليس في وسع الإنسان ولا يدخل في حدود طاقته. لذا كان الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم الذي كان يميل إلى عائشة أكثر من غيرها
يقول فيما ذكرته السنن عن عائشة : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أملك » أي من ميل القلب.
وإذا خاف الشخص عدم العدل حرم عليه أن يتزوّج أكثر من واحدة.
ثم خاطب اللّه الأزواج فأمرهم بإعطاء الزّوجات مهورهن عن طيب نفس دون تلكؤ ، رمزا للمودّة التي تقوم بين الزّوجين ، وعنوانا على المحبة وتكريم
ج ٤ ، ص : ٢٣٦
المرأة. ذهب ابن عبّاس إلى أن الخطاب في هذه الآية : وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ للأزواج ، وكان الرجل يتزوّج بلا مهر ، يقول : أرثك وترثيني ، فتقول : نعم ، فأمروا أن يسرعوا إلى إيتاء المهور.
وقيل : الخطاب للأولياء ، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال : كان الرّجل إذا زوّج أيّما (و هي المرأة التي لا زوج لها) أخذ صداقها دونها ، فنهاهم اللّه عن ذلك ، ونزلت : وَآتُوا النِّساءَ.
فإن طابت نفوسهن بإعطائكم شيئا من المهر من غير ضرار ولا خديعة ، فكلوه هنيئا مريئا ، أي يحلّ لكم ذلك ولا ذنب عليكم في أخذه ، لا تخافون في الدّنيا مطالبة ، ولا في الآخرة تبعة.
وعبر بالأكل وأراد حلّ التصرّف فيه ، وخصّ الأكل بالذّكر لأنه معظم وجوه التّصرفات المالية ، كما في قوله تعالى المتقدم : وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ.
فقه الحياة أو الأحكام :
دلّت آية : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا على ما يأتي :

(٤/٢٤٦)

١- وجوب التزام العدل في كلّ شيء ، سواء في الإشراف على أموال اليتامى ، أو في الزّواج بهن ، أو في أثناء تعدّد الزوجات من غير اليتيمات ، قال ابن عبّاس وابن جبير وغيرهما : المعنى : وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ، فكذلك خافوا في النّساء لأنهم كانوا يتحرجون في اليتامى ، ولا يتحرّجون في النّساء.

وقالت عائشة رضي اللّه عنها : ثم إن الناس استفتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعد هذه الآية فيهن ، فأنزل اللّه تعالى : يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ

ج ٤ ، ص : ٢٣٧

فِيهِنَّ ، وَما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ ، وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَ

قالت : وقوله تعالى : وَما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ المراد منه هذه الآية : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ والمعنى : وإن علمتم ألا تعدلوا في نكاح اليتامى اللاتي تلونهن ، فانكحوا ، ما مالت إليه نفوسكم من النّساء غيرهنّ.

والمقصود النّهي عن نكاح اليتامى عند خوف عدم العدل.

٢- الآية على تأويل عائشة هذا تشهد لمن قال : إن لغير الأب والجدّ أن يزوّج الصغيرة أو يتزوّجها لأنها على هذا التأويل نزلت في اليتيمة تكون في حجر وليها ، فيرغب في مالها وجمالها ، ولا يقسط لها في الصداق ، وأقرب ولي تكون اليتيمة في حجره ويجوز له تزوّجها هو « ابن العم » .

وعليه تكون الآية متضمنة جواز أن يتزوّج ابن العم اليتيمة التي في حجره.

وإذا جاز له أن يتزوّجها ، فإما أن يلي هو النكاح بنفسه ، وإما أن يزوّجه إياها أخوها مثلا. وأيّا ما كان فلغير الأب والجدّ أن يزوّج الصغيرة.

(٤/٢٤٧)

و أما من قال من الأئمة : لا يزوج الصغيرة إلا الأب أو الجد ، يحمل الآية على أحد التّأويلين الآخرين (عدم الإقساط في مهرها ، أو التّحرّج في ولاية الأيتام) أو يحمل اليتامى على الكبار منهن ، وعلى طريق المجاز المرسل باعتبار ما كان لقرب عهدهن باليتيم.

٣- تعلّق أبو حنيفة بهذه الآية في تجويزه نكاح اليتيمة قبل البلوغ ، وقال :

إنما تكون يتيمة قبل البلوغ ، وبعد البلوغ هي المرأة مطلقة لا يتيمة ، بدليل أنه لو أراد البالغة لما نهى عن حطّها عن صداق مثلها لأنها تختار ذلك ، فيجوز إجماعا.

وذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء إلى أن ذلك لا يجوز حتى تبلغ

ج ٤ ، ص : ٢٣٨

و تستأمر ، لقوله تعالى : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ والنساء اسم ينطلق على الكبار كالرجال في الذكور ، واسم الرجل لا يتناول الصغير ، فكذلك اسم النساء ، والمرأة لا يتناول الصغيرة. وقد قال : فِي يَتامَى النِّساءِ والمراد به هناك :

اليتامى هنا ، كما قالت عائشة رضي اللّه عنها ، فقد دخلت اليتيمة الكبيرة في الآية ، فلا تزوّج إلا بإذنها ، ولا تنكح الصغيرة إذ لا إذن لها ، فإذا بلغت جاز نكاحها ، لكن لا تزوّج إلا بإذنها ،

كما رواه الدّارقطني عن ابن عمر ، قال : زوّجني خالي قدامة بن مظعون بنت أخيه عثمان بن مظعون ، فدخل المغيرة بن شعبة على أمها ، فأرغبها في المال وخطبها إليها ، فرفع شأنها إلى النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال قدامة : يا رسول اللّه ، ابنة أخي ، وأنا وصي أبيها ، ولم أقصّر بها ، زوّجتها من قد علمت فضله وقرابته. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إنها يتيمة واليتيمة أولى بأمرها » فنزعت مني وزوّجها المغيرة بن شعبة.

٤- دلّ تفسير عائشة للآية على وجوب صداق المثل إذا فسد تعيين الصداق ووقع الغبن في مقداره ، لقولها : « بأدنى من سنّة صداقها » .

(٤/٢٤٨)

٥- إذا بلغت اليتيمة وأقسط الولي في صداقها ، جاز له أن يتزوّجها ، ويكون هو النكاح والمنكح ، على ما فسّرته عائشة. وبه قال أبو حنيفة والأوزاعي والثوري وأبو ثور ، أي أنه يمكن انعقاد الزواج بعاقد واحد.

وقال زفر والشافعي : لا يجوز له أن يتزوّجها إلا بإذن السلطان ، أو يزوجها منه وليّ لها غيره لأن الولاية شرط من شروط العقد ،

لقوله عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه البيهقي عن عمران وعن عائشة : « لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل »

فتعديد الناكح والمنكح والشهود واجب ، أي لا بدّ من تعدد العاقد.

٦- في الآية دلالة على جواز تعدد الزوجات إلى أربع ، وأنه لا يجوز التّزوج بأكثر من أربعة مجتمعات في عصمة رجل واحد لأن هذا العدد قد ذكر في مقام

ج ٤ ، ص : ٢٣٩

التوسعة على المخاطبين ، فلو كان وراء هذا العدد مباح ، لاقتضى المقام ذكره.

ولا يدلّ هذا العدد : مثنى وثلاث ورباع على إباحة تسع ، وعضد ذلك بأن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم نكح تسعا ، وجمع بينهن في عصمته.

ويرده إجماع الصحابة والتابعين على الاقتصار على أربع ، ولم يخالف في ذلك أحد ، و

أخرج مالك في موطئه والنسائي والدّارقطني في سننهما أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال لغيلان بن أميّة الثقفي ، وقد أسلم وتحته عشر نسوة : « اختر منهن أربعا وفارق سائرهن » .

٧- وتمسّك الإمام مالك وداود الظاهري والطبري بظاهر هذه الآية في مشروعية نكاح الأربع للأحرار والعبيد ، على حدّ سواء ، فالعبيد داخلون في الخطاب بقوله تعالى : فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ .. فيجوز لهم أن ينكحوا أربعا كالأحرار ، ولا يتوقّف نكاحهم على الإذن لأنهم يملكون الطلاق فيملكون النكاح.

(٤/٢٤٩)

و ذهب الحنفية والشافعية إلى أن العبد لا يجمع من النساء فوق اثنتين ، لما روى الليث عن الحكم قال : اجتمع أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على أن العبد لا يجمع من النساء فوق اثنتين.

قالوا : والخطاب في قوله تعالى : فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ .. لا يتناول العبيد لأنه إنما يتناول إنسانا متى طابت له امرأة قدر على نكاحها ، والعبد لا يملك ذلك لأنه لا يجوز نكاحه إلا بإذن مولاه ،

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه ابن ماجه عن ابن عمر : « أيّما عبد تزوّج بغير إذن مولاه فهو عاهر » .

ولأن قوله تعالى : فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ لا يمكن أن يدخل فيه العبيد ، لعدم الملك ، وكذلك قوله تعالى : فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ .. لا يشمل العبيد لأن العبد لا يتملك ، بل يكون الشيء الموهوب له لسيّده ، فيكون الآكل السيّد لا العبد.

ج ٤ ، ص : ٢٤٠

و ما عقوبة الذي يتزوّج خامسة وعنده أربع ؟

اختلف العلماء ، فقال مالك والشافعي وأبو ثور : عليه الحدّ إن كان عالما.

وقال الزّهري : يرجم إذا كان عالما ، وإن كان جاهلا أدنى الحدين الذي هو الجلد ، ولها مهرها ، ويفرّق بينهما ولا يجتمعان أبدا.

وقال أبو حنيفة : لا حدّ عليه في شيء من ذلك.

وقال أبو حنيفة : لا حدّ عليه في شيء من ذلك.

وقال الصاحبان (أبو يوسف ومحمد) : يحدّ في ذات الزواج المحرّم ولا يحدّ في غير ذلك من النّكاح ، مثل أن يتزوّج مجوسية أو خمسة في عقد ، أو تزوّج متعة أو تزوّج بغير شهود ، أو أمة تزوّجها بغير إذن

مولاها.

٧- الاقتصار على امرأة واحدة واجب عند خوف الظلم لأن معنى قوله :

(٤/٢٥٠)

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً : إن خفتم من تعداد النساء ألا تعدلوا بينهن ، كما قال تعالى : وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فمن خاف من ذلك ، فليقتصر على واحدة أو على الجواري السّراري ، فإنه لا يجب قسم بينهن ، ولكن يستحب ، فمن فعل فحسن ، ومن لا فلا حرج.

وأرشدت الآية : وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ إلى ما يأتي :

١- وجوب المهر للزّوجة : إن الفروج لا تستباح إلا بصداق يلزم ، سواء أسمي ذلك في العقد أم لم يسمّ. وإن الصداق ليس في مقابلة الانتفاع بالبضع لأن اللّه تعالى جعل منافع النكاح من قضاء الشهوة والتوالد مشتركة بين الزوجين ، ثم أمر الزوج بأن يؤتي الزّوجة المهر ، فكان ذلك عطية من اللّه ابتداء. وهذا مجمع عليه ولا خلاف فيه : ونظير الآية قوله : فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ [النساء ٤/ ٢٥] أي أعطوهن مهورهن.

ج ٤ ، ص : ٢٤١

و أجمع العلماء أيضا على أنه لا حدّ لكثير المهر ، واختلفوا في قليله على ما يأتي بيانه في قوله : وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً.

٢- التنازل عن المهر : يجوز للزوجة أن تعطي زوجها مهرها أو جزءا منه ، سواء أكان مقبوضا معينا أم كان في الذمة ، فشمل ذلك الهبة والإبراء. ولكن ينبغي للأزواج الاحتياط فيما أعطت نساؤهم ، حيث بنى الشرط على طيب النفس فقال : فَإِنْ طِبْنَ ولم يقل : فإن وهبن ، إعلاما بأن المراعى في ذلك التنازل عن المهر طيبة به نفسها من غير إكراه مادي أو أدبي ، أو سوء معاشرة ، أو خديعة.

ويدلّ عموم قوله تعالى : فَإِنْ طِبْنَ على أن هبة المرأة صداقها لزوجها جائزة ، سواء أكانت بكرا أم ثيّبا. وبه قال جمهور الفقهاء. ومنع مالك من هبة البكر الصداق لزوجها ، وجعل ذلك للولي ، مع أن الملك لها.

(٤/٢٥١)

و اتّفق العلماء على أن المرأة المالكة لأمر نفسها إذا وهبت صداقها لزوجها ، نفذ ذلك عليها ، ولا رجوع لها فيه.

وإن تنازلت المرأة عن شيء من صداقها بشرط عند عقد النّكاح ألّا يتزوّج عليها ، ثمّ تزوّج عليها ، فلا شيء لها في رواية ابن القاسم عن مالك لأنها شرطت عليه ما لا يجوز شرطه.

وقال ابن عبد الحكم : إن خالف هذا الشرط ، رجعت عليه بتمام صداق مثلها لأنه شرط عليه نفسه شرطا وأخذ عنه عوضا ، كان لها واجبا أخذه منه ، فوجب عليه الوفاء ،

لقوله عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه الحاكم عن أنس وعائشة : المسلمون عند شروطهم » .

٣- إباحة أخذ الزّوج المهر : يحلّ للزّوج أخذ ما وهبت زوجته بالشّرط السابق : « طيب النّفس » من غير أن يكون عليه تبعة في الدّنيا والآخرة.

ج ٤ ، ص : ٢٤٢

و ليس المقصود من قوله : فَكُلُوهُ صورة الأكل ، وإنما المراد به الاستباحة بأي طريق كان. وهو معنى قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً ليس المراد نفس الأكل إلّا أن الأكل لما كان أوفى أنواع التمتّع بالمال عبّر عن « التّصرفات » بالأكل.

ونظيره قوله تعالى : إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ [الجمعة ٦٢/ ٩] إن صورة البيع غير مقصودة ، وإنما المقصود ما يشغله عن ذكر اللّه تعالى مثل النّكاح وغيره ، ولكن ذكر البيع لأنه أهم ما يشتغل به عن ذكر اللّه تعالى.

٤- إيجاب المهر في الخلوة الصحيحة : احتجّ الجصاص « ١ » بقوله تعالى :

وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً على إيجاب المهر كاملا للمخلو بها خلوة صحيحة ، ولو طلقت قبل الدخول (المساس). ويلاحظ أن الآية عامة في كلّ النساء ، سواء المخلو بها وغيرها إلّا أن قوله تعالى : وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ يدلّ على أنه لا يجب للمخلو بها إلّا نصف المهر ، وهذه الآية خاصة ، والخاص مقدم على العام.

الحكمة من تعدد الزوجات :

الوضع الطبيعي وهو الأشرف والأفضل أن يكون للرجل زوجة واحدة ، لأن الغيرة مشتركة بين الزوج والزوجة ، فكما أن الزوج يغار على زوجته ، كذلك الزوجة تغار على زوجها.

ولكن الإسلام أباح التعدّد لضرورة أو حاجة وقيّده بقيود : القدرة على الإنفاق ، والعدل بين الزّوجات ، والمعاشرة بالمعروف. والإباحة لأحوال استثنائية منها :

---

(١) أحكام القرآن : ٢/ ٥٧

ج ٤ ، ص : ٢٤٣

١- عقم الزوجة : الرّجل بالفطرة يحبّ ٧ نجاب الولد وأن تذهب ثروته ونتيجة جهوده لأولاده فإذا كانت المرأة عاقرا لا تلد ، فأيهما أولى : الطلاق أم تعدد الزوجات ؟ لا شك بأن الزواج من امرأة ثانية أخفّ ضررا على الزوجة الأولى بشرط صون كرامتها ، وأداء حقوقها كاملة غير منقوصة.

٢- كثرة النساء : إن المواليد من الإناث أكثر من الذكور في غالب البلاد ، وقد تكثر النساء ويقل الرجال عقب أزمات الحروب ، فيكون الأفضل تعدد الزوجات تحقيقا لعفاف المرأة وصونا لها عن ارتكاب الفاحشة ، وتطهيرا للمجتمع من آثار الزنى وما يعقبه من انتشار الأمراض وكثرة المشردين واللقطاء.

(٤/٢٥٣)

٣- الحالة الجنسية : قد تصاب المرأة بالبرود الجنسي ولا سيما عقب بلوغ سن اليأس أو قبله عند استئصال الرحم بسبب مرض. وقد يكون الرجل ذا قدرة جنسية زائدة أو شبق دائم مستمر ، وهو لا يكتفي بامرأة واحدة ، لعدم استجابتها أحيانا ، أو لطروء الحيض عليها أسبوعا في كل شهر على الأقل ، فيكون اللجوء للتزوج بزوجة ثانية حاجزا له عن الوقوع في الزنى الذي يضيّع الدّين والمال والصّحة ، ويسيء إلى السّمعة.

أما إساءة استعمال بعض المسلمين إباحة تعدّد الزوجات كالانتقام من الزوجة السابقة ، أو لمجرّد الشّهوة ، لا لهدف مما ذكر ، فهو تصرّف شخصي لا يسيء إلى الأصول والمبادئ الإسلامية التي أباحت التعدّد مقيّدا بقيود معينة. وعلى كلّ حال ، نادى كثير من فلاسفة الغرب بتعدّد الزّوجات ، وهو لا شكّ أفضل بكثير من تعدّد العشيقات والمخادنات ، وأما الطلاق فهو واقع في كلّ ديار الغرب لأسباب كثيرة بل تافهة يترفّع المسلمون عن مجاراتهم فيها.

أسباب تعدّد زوجات النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم :

لم يعدد النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم زوجاته إلى تسع بقصد شهواني أو لمتعة جنسية ، واقتصر

ج ٤ ، ص : ٢٤٤

على واحدة هي السيّدة خديجة أم المؤمنين إلى نهاية الكهولة وهي سنّ الرابعة والخمسين من عمره الشريف ، وبعد هذه السّن تقل الرّغبة بالنّساء عادة ، وكان أكثرهن ثيّبات لا أبكارا.

(٤/٢٥٤)

و إنما كان تعدّد زوجاته لأغراض إنسانيّة واجتماعيّة وإسلاميّة ، فقد يتزوّج امرأة بتزويج اللّه له كزينب بنت جحش لإبطال عادة التّبني ، وقد يتزوّج امرأة لتعويضها عن زوجها الذي فقدته بسبب الهجرة أو الجهاد في سبيل اللّه ، وقد يتزوّج من القبائل لتقوية رابطتهم بالإسلام ، وربّما كان زواجه أحيانا بقصد نشر الإسلام بين القبائل العربية ، فتكون مصاهرته لقبيلة مثل زواجه بجويرية بنت الحارث سببا في اعتناقها الإسلام ، فدخل بنو المصطلق في الإسلام بسبب جويرية ، وكان في هذا التعدّد فوائد كثيرة من أهمها تعليم نساء المسلمين الأحكام الخاصة بالنّساء أو الخاصة بين الزّوجين ، وجعلهنّ قدوة في تطبيق الأحكام الإسلامية المتعلّقة بالأسرة وغيرها لأنه عليه الصلاة والسّلام القدوة الحسنة للمسلمين في أخلاقه ومعاشرته وسلوكه وعبادته ونحو ذلك.

والخلاصة : إن تعدّد الزّوجات في الإسلام أمر تلجئ إليه الضرورة ، أو تدعو إليه المصلحة العامة أو الخاصة ، وإصلاح مفاسده أولى من إلغائه ، ولا يجرأ أحد على الإلغاء لأن النصوص الشرعية تدلّ صراحة على إباحته ، وتعطيل النّص أو الخروج عليه أمر منكر حرام في شرع اللّه ودينه.

والنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم راعى الحكمة البالغة والمصلحة الإسلامية في اختيار كل زوجة من زوجاته ، فأما خديجة فهي الزوجة الأولى التي رزق منها الأولاد ، وذلك متّفق مع سنّة الفطرة. وأما سودة بنت زمعة ، فلتعويضها عن زوجها بعد رجوعها من هجرة الحبشة الثانية ، وهي من المهاجرات الأوليّات ، فلو عادت إلى أهلها لعذّبوها وفتنوها عن دينها ، وأما عائشة وحفصة فلإكرام صاحبيه ووزيريه :

أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما. وأما زينب بنت جحش فلإبطال توابع عادة التّبنّي مثل تحريم التّزوج بزوجة المتبنّى. وأما جويرية بنت الحارث سيّد قومه بني المصطلق فمن أجل إعتاق الأسرى ، وكان ذلك سببا في إسلام بني المصطلق.

وأما زينت بنت خزيمة الملقبة أم المساكين فلتعويضها عن زوجها وهو عبد اللّه بن جحش الذي قتل في أحد ، فلم يدعها أرملة تقاسي المتاعب والأحزان.

وكذلك زواجه بأم سلمة (و اسمها هند) كان لتعزيتها بفقد زوجها أبي سلمة ، ولفضلها وجودة رأيها يوم الحديبية.

وأما زواجه بأم حبيبة : رملة بنت أبي سفيان بن حرب فلتأليف قلوب قومها وإدخالهم في الإسلام ، بعد أن هاجرت مع زوجها عبيد اللّه بن جحش إلى الحبشة الهجرة الثانية ، فتنصّر هناك ، وثبتت هي على الإسلام.

وأما زواجه بصفية بنت حيي بن أخطب سيّدة بني قريظة والنّضير من سبي خيبر ، فمن أجل تحريرها من الأسر وإعتاقها.

وأما ميمونة بنت الحارث الهلالية (و كان اسمها برّة) آخر أزواجه بعد وفاة زوجها الثاني أبي رهم بن عبد العزى ، فلتشعب قرابتها في بني هاشم وبني مخزوم « ١ » .

---

(١) تفسير المنار : ٤/ ٣٠٣- ٣٠٥

ج ٤ ، ص : ٢٤٦

الحجر على السفهاء والصغار ونحوهم وعدم تسليم المال إليهم إلا بالرشد [سورة النساء (٤) : الآيات ٥ الى ٦]

وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٥) وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (٦)

الإعراب :

الَّتِي إنما قال التي بلفظ المفرد ولم يقل : اللائي بلفظ الجمع لأنها جمع ما لا يعقل ، مثل : جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ [مريم ١٩/ ٦١] ومثل : فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ [هود ١١/ ١٠١]. ولو كان جمع من يعقل (العقلاء) لقال : اللاتي مثل : وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي وقد تجيء التي في جمع العقلاء ، واللاتي في جمع غير العقلاء.

إِسْرافاً وَبِداراً منصوبان لأنهما مفعولان لأجله ، أو لأنهما مصدران في موضع الحال ، أي : لا تأكلوها مسرفين مبادرين. أَنْ يَكْبَرُوا أن المصدرية وصلتها في موضع نصب ب (بدار) أي مبادرين كبرهم. وجملة وَلا تَأْكُلُوها معطوفة على جملة : وَابْتَلُوا الْيَتامى .

وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً أي كفاك اللّه حسيبا ، فالكاف المفعول محذوفة ، والباء زائدة ، والجار والمجرور في موضع رفع فاعل كفى ، مثل : ما جاءني من أحد ، والتقدير : كفى اللّه حسيبا.

وحسيبا : منصوب على التمييز ، أو منصوب على الحال.

البلاغة :

غَنِيًّا وفَقِيراً : طباق ، ويوجد مقابلة بين وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ .. وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ.
ويوجد جناس مغاير في دَفَعْتُمْ فَادْفَعُوا وفي قُولُوا
ج ٤ ، ص : ٢٤٧
قَوْلًا. ويوجد أيضا إطناب في فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وقوله : فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ. وأضاف تعالى أموال السفهاء إلى الأوصياء للحث على حفظها وعدم تضييعها لأن مال السفيه مال الأمة.
المفردات اللغوية :
السُّفَهاءَ جمع سفيه ، وهو المبذر من الرجال والنساء والصبيان الذي ينفق ماله فيما لا ينبغي ، ولا يحسن التصرف فيه. وأصل السفه : الاضطراب في العقل والسلوك. أَمْوالَكُمُ أي أموالهم التي في أيديكم ، وأضيفت إلى الأوصياء للحث على حفظها كما يحفظون أموالهم. قِياماً مصدر (قام) أي تقوم بها أمور معاشكم وصلاح أودكم. وَارْزُقُوهُمْ فِيها أطعموهم منها.
وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً عدوهم عدة جميلة بإعطائهم أموالهم إذا رشدوا. والقول المعروف :
ما تطيب به النفوس وتألفه.
وَابْتَلُوا اختبروا. الْيَتامى أي اختبروهم قبل البلوغ في دينهم وتصرفهم في أموالهم. حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ صاروا أهلا له بالاحتلام أو السن وهو استكمال خمس عشرة سنة عند الشافعي وأحمد. آنَسْتُمْ أبصرتم وتبينتم. رُشْداً أي صلاحا في التصرف في الأموال.
والرشد عند الإمام الشافعي : صلاح الدين والمال. إِسْرافاً مجاوزة الحد في التصرف في المال.
وَبِداراً مبادرة ومسارعة إلى الشيء ، أي مبادرين إلى إنفاق الأموال قبل بلوغ الكبر. أَنْ يَكْبَرُوا يصبحوا راشدين فيلزمكم تسليم أموالهم إليهم. فَلْيَسْتَعْفِفْ أي يعف عن مال اليتيم ويمتنع عن أكله. والعفة :
ترك ما لا ينبغي من الشهوات. بِالْمَعْرُوفِ بقدر أجرة عمله.

حَسِيباً رقيبا حافظا لأعمال خلقه ومحاسبهم.
سبب النزول : نزول الآية (٦) :
وَابْتَلُوا الْيَتامى : نزلت في ثابت بن رفاعة وفي عمه. و
ذلك أن رفاعة توفي وترك ابنه ثابتا وهو صغير ، فأتى عم ثابت إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال :
إن ابن أخي يتيم في حجري ، فما يحلّ لي من ماله ، ومتى أدفع إليه ماله ؟ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.
ج ٤ ، ص : ٢٤٨

المناسبة :

أمر اللّه تعالى فيما سبق بإيتاء اليتامى أموالهم وبإعطاء النساء مهورهن ، وهنا شرط للإيتاء شرطين يشملان الأمرين معا وهما : عدم السفه ، والاختبار محافظة على أموالهم.

التفسير والبيان :

ينهى اللّه تعالى عن تمكين السفهاء المبذرين من التصرف في الأموال التي جعلها اللّه للناس طريق لتقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها ، ويدل النهي على الحجر على السفهاء إما بسبب الصغر ، وإما بسبب الجنون ، وإما بسبب سوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وإما بسبب الفلس : وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها ، فإذا طلب الغرماء من الحاكم الحجر عليه ، حجر عليه.

واختلف العلماء في تعيين المخاطبين بالآية وفي المراد من السفهاء ، على أقوال أشهرها :

إن المخاطبين بمنع السفهاء أموالهم إما أولياء اليتامى ، والسفهاء : هم اليتامى مطلقا أو المبذرون بالفعل أموالهم وإما مجموع الأمة ، ويشمل النهي كل سفيه ، قال ابن عباس وابن مسعود رضي اللّه عنهم : إن الخطاب لكل عاقل من الناس جميعا ، وإن المراد من السفهاء : النساء والصغار. والمقصود النهي عن إيتاء المال لمن لا رشد له من هؤلاء ، فيشمل الصبي والمجنون والمحجور عليه للتبذير.

(٢٥٩/٤)

و تكون إضافة الأموال على الرأي الأول إلى ضمير الأولياء المخاطبين ، مع أنها أموال اليتامى للمبالغة في حملهم على المحافظة عليها ، بتنزيل أموال اليتامى منزلة أموال الأولياء ، لما بين الولي واليتيم من رابطة النسب.

ج ٤ ، ص : ٢٤٩

و تكون إضافة الأموال على الرأي الثاني إلى ضمير المخاطبين على حقيقتها.

ومعنى قوله : الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً : أن الأموال قوام الحياة ، وسبب إصلاح المعاش ، وانتظام الأمور ، فبالمال تتقدم الأمم وتبني صرح الحضارة ، وبالمال يسعد الفرد والجماعة ، وبه أيضا يتحقق النصر على الأعداء.

وكان السلف يقولون : المال سلاح المؤمن ، ولأن أترك مالا يحاسبني اللّه عليه خير من أن احتاج إلى الناس. وعن سفيان ، وكانت له بضاعة يتاجر بها ، وقيل له :

إنها تدنيك من الدنيا فقال : لئن أدنتني من الدنيا ، لقد صانتني عنها. وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا ، إنكم في زمان إذا احتاج أحدكم ، كان أوّل ما يأكل دينه « ١ » .

وجعل الأموال وسيلة إصلاح شؤون الحياة يقتضي تثميرها وتشغيلها وتنميتها لا اكتنازها وادخارها ، كما

يقتضي إدارتها بحكمة والاقتصاد في الإنفاق منها ، كما سنّ القرآن للمؤمنين بقوله تعالى : وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً [الفرقان ٢٥/ ٦٧]. وحث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على الاقتصاد ،

روى أحمد عن ابن مسعود : « ما عال من اقتصد »

و

روى الطبراني والبيهقي عن ابن عمر : « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة ، والتودد إلى الناس نصف العقل ، وحسن العقل نصف العلم » .

(٤/٢٦٠)

و معنى قوله : وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ : اجعلوا أموالهم مكانا لرزقهم وكسوتهم ، بأن تتجروا فيها ، فتكون النفقة من ثمرتها وربحها ، لا من أصل رأس المال ، لئلا يأكله الإنفاق. وهذا مفهوم من جعل الأموال نفسها ظرفا للرزق والكسوة ، فقال : فِيها ولم يقل : « منها » .

ومعنى قوله : وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً : أن يقول كل ولي للمولى عليه

---

(١) تفسير الكشاف : ١/ ٣٧٧

ج ٤ ، ص : ٢٥٠

كلاما طيبا تطيب به نفسه ، ويعده وعدا حسنا ، كأن يقول للصغير : المال مالك ، وما أنا إلا وكيل أمين عليه ، وإذا كبرت رددته إليك. وإذا كان سفيها وعظه ونصحه ، ورغبه في ترك التبذير والإسراف ، وعرفه أن عاقبة ذلك الفقر والحاجة إلى الناس. والقول المعروف : كل ما اطمأنت إليه النفس لحسنه شرعا ، أو عقلا من قول أو عمل. وأما المنكر : فهو ما أنكرته النفس لقبحه شرعا أو عقلا.

(٤/٢٦١)

ثم بعد الأمر بإيتاء أموال اليتامى بيّن تعالى وقت الإيتاء ومقدماته ، وهي الاختبار ، فأمرنا أن نختبر اليتامى قبل الإيتاء ، فإن بلغوا سن النكاح وهو بلوغ الحلم ، كما قال تعالى : وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ أي الوصول إلى حد البلوغ وهو حد التكليف والتزام الأحكام الشرعية ، وذلك إمام بالاحتلام ، أو مجيء الحيض عند الأنثى ، أو بالسن وهو اكتمال خمس عشرة سنة في رأي الشافعي وأحمد ، إذا بلغوا ذلك وأصبحوا راشدين أي يحسنون التصرف في أموالهم حفظا وإدارة وتنمية ، فسلموهم أموالهم

، وإلا فاستمروا على الابتلاء (الاختبار) حتى تأنسوا منهم الرشد ، ورأى أبو حنيفة : أنه يدفع المال إلى اليتيم إذا بلغ خمسا وعشرين سنة وإن لم يرشد ، للآية المتقدمة : وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ ولأن من بلغ مبلغ الرجال واعتبر إيمانه وكفره ، فمنع ماله عنه أشبه شيء بالظلم ، وفيه إهدار لكرامته الإنسانية وآدميته.

لكن ظاهر الآية أنه لا تدفع إليهم أموالهم ، ولو بلغوا ، ما لم يؤنس منهم الرشد ، وهو مذهب الجمهور.

والاختبار في رأي أبي حنيفة والشافعي يكون قبل البلوغ بدليل الغاية :

حَتَّى. وفي رأي مالك : يكون بعد البلوغ.

ورتب أبو حنيفة على ذلك أن تصرفات الصبي العاقل المميز بإذن الولي صحيحة لأن ذلك الاختبار إنما يحصل إذا أذن له الولي في البيع والشراء مثلا ، وذلك يقتضي صحة التصرف.

ج ٤ ، ص : ٢٥١

و قال الشافعي : الاختبار لا يقتضي الإذن في التصرف ولا يتوقف عليه ، بل يكون الاختبار بدون التصرف على حسب ما يليق بحال الصبي ، فابن التاجر مثلا يختبر بالبيع والشراء إلى ما قبل إبرام العقد ، وحينئذ يعقد الولي إن أراد.

(٢٦٢/٤)

و لو جاز إذن الصبي في التصرف بالفعل لجاز دفع المال إليه وهو صبي لأن سبب منع ماله عنه يقتضي عدم صحة تصرفه. وأيضا تصرف الصبي في ماله يتوقف على دفعه إليه ، ودفعه إليه متوقف على شرطين : بلوغه ثم رشده.

والرشد عند الشافعي : صلاح الدين والمال. وعند الجمهور : صلاح المال فقط.

ثم نهى اللّه تعالى الأولياء فقال : ولا تأكلوا أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية مبادرة ومسارعة قبل بلوغهم ، أي مسابقين الكبر في السن التي بها يأخذون أموالهم منكم.

أما من كان محتاجا مضطرا إلى الأكل من مال اليتيم بلا إسراف ولا مبادرة خوف أخذه قبل البلوغ ، مقابل عمله وإشرافه : فإن كان غنيا غير محتاج إلى شيء من مال اليتيم الذي تحت ولايته ، فليعفّ عن الأكل من ماله ، ومن كان فقيرا فليأكل من مال اليتيم بقدر حاجته الضرورية من سد الجوعة ، وستر العورة.

ويؤيده

ما رواه أحمد عن عبد اللّه بن عمرو أن رجلا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : ليس لي

مال ، ولي يتيم ؟ فقال : « كل من مال يتيمكم غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالا ، ومن غير أن تقي مالك- أو قال- تفدي مالك بماله » .

واستدل الجصاص « ١ » بقوله تعالى : وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا على أن اليتيم إذا صار في حد الكبر ، استحق المال إذا كان عاقلا ، من غير شرط إيناس الرشد لأنه إنما شرط إيناس الرشد بعد البلوغ. واستدل بالآية

---

(١) أحكام القرآن : ٢/ ٦٣ وما بعدها. [.....]

ج ٤ ، ص : ٢٥٢

أيضا على أنه لا يجوز للولي إمساك مال اليتيم بعد ما يصير في حد الكبر ، ولو لا ذلك لما كان لذكر الكبر هاهنا معنى ، إذ كان الوالي عليه هو المستحق لماله قبل الكبر وبعده ، فهذا يدل على أنه إذا صار في حد الكبر استحق دفع المال إليه.

و جعل أبو حنيفة حد الكبر في ذلك خمسا وعشرين سنة لأن مثله يكون جدّا ، ومحال أن يكون جدا ، ولا يكون في حد الكبار.

وقال الشافعية : إن المراد من قوله : أَنْ يَكْبَرُوا أن يبلغوا راشدين عملا بقوله تعالى : حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً ، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وعبر عن ذلك بالكبر لأن الغالب أن من بلغ حد الرجال ، كان رشيدا.

وتساءل العلماء ، هل ما يأكله الولي من مال اليتيم يعد أجرة أو لا ؟ يرى الحنفية أنه ليس بأجرة. وقال آخرون : إنه أجرة ولم يفرق بين الغني والفقير ، كما هو القياس في كل عمل يقابل بأجر ، وحينئذ يكون الأمر في قوله تعالى :

وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ محمولا على الندب ، كما هو اللائق بمحاسن العادات. والقاعدة الفقهية تقتضي أن تكون هذه الأجرة مقدرة بأجر المثل ، سواء أكفت الولي أم لا « ١ » .

ثم بين اللّه تعالى طريقة الدفع وهي : فإذا دفعتم أيها الأولياء والأوصياء الأموال إلى اليتامى ، فأشهدوا عليهم بقبضها ، وبراءة ذمتكم منها لأن هذا الإشهاد- بعد رعاية الشرطين السابقين : البلوغ ثم الرشد- أبعد عن التهمة ، وأنفى للخصومة ، وأدخل في الأمانة.

وهذا الإشهاد عملا بظاهر الآية واجب عند المالكية والشافعية إذ أن تركه يؤدي إلى التخاصم والتقاضي ، والأمر يقتضي الوجوب ، وجعله الحنفية مندوبا ،

(١) تفسير الآلوسي : ٤/ ١٨٨

ج ٤ ، ص : ٢٥٣

و صرفه عن الوجوب أن الوصي أمين ، والأمين إذا ادعى الرد على من ائتمنه صدّق بيمينه. وقوله تعالى : وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً يشهد لهم في عدم لزوم البينة ، فإن معناه : أنه لا شاهد أفضل من اللّه تعالى فيما بينكم وبينهم ، وهذا مروي عن سعيد بن جبير.

(٢٦٤/٤)

و هل يصدّق الوصي إذا ادعى أنه دفع المال إلى اليتيم بعد البلوغ ، وهل يصدق فيما ينفقه حال الصغر ؟

قال الإمامان مالك والشافعي : لا يصدق لأن الوصي غير مالك. وقال الإمام أبو حنيفة وأصحابه : يصدق لأن الوصي أمين ، والأمين يصدق بيمينه ما دام أمينا.

ثم ختم تعالى الآية بتقرير رقابته على كل الأمور صغيرها وكبيرها ، فذكر أنه كفى اللّه حسيبا أي رقيبا عليكم ، يحاسبكم على ما تسرون وما تعلنون.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ على ما يأتي :

١- النهي عن تضييع المال ووجوب حفظه وتدبيره ، وحسن القيام عليه ، حيث قد جعله اللّه تعالى سببا في إصلاح المعاش وانتظام الأمور.

٢- وجوب الحجر على السفهاء المبذرين من وجهين :

أحدهما- منعهم من أموالهم ، وعدم جواز دفع أموالهم إليهم.

والثاني- إجازة تصرفنا عليهم في الإنفاق عليهم من أموالهم وشراء أقواتهم وكسوتهم ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً [البقرة ٢/ ٢٨٢] فأثبت الولاية على السفيه كما أثبتها على الضعيف.

ج ٤ ، ص : ٢٥٤

٣- السفهاء إما اليتامى أو المبذرون بالفعل ، وإما النساء والصبيان ، والمعنى الجامع المروي عن أبي موسى الأشعري : كل من يستحق الحجر ، وهو كل من ليس له عقل يفي بحفظ المال وحسن التصرف فيه ، ويدخل فيه الصبي والمجنون والمحجور عليه للتبذير.

واختلف العلماء في أفعال السفيه قبل الحجر عليه ، فقال مالك وجميع أصحابه غير ابن القاسم : إن

فعل السفيه وأمره كله جائز حتى يضرب الإمام على يده ، وهو قول الشافعي وأبي يوسف.
وقال ابن القاسم : أفعاله غير جائزة وإن لم يضرب الإمام على يده.
واختلفوا في الحجر على الكبير ، فقال جمهور الفقهاء : يحجر عليه.

(٤/٢٦٥)

و قال أبو حنيفة : لا يحجر على من بلغ عاقلا إلا أن يكون مفسدا لماله ، فإذا كان كذلك منع من تسليم المال إليه حتى يبلغ خمسا وعشرين سنة ، فإذا بلغها سلّم إليه بكل حال ، سواء كان مفسدا أو غير مفسد لأنه يمكن أن يتزوج لاثنتي عشرة سنة ، وتحمل زوجته ، ثم يولد له لستة أشهر ، فيصير جدّا وأبا ، وأنا أستحي أن أحجر على من يصلح أن يكون جدّا.
ويرده ما رواه الدارقطني عن عثمان أنه أجاز الحجر على الكبير وهو عبد اللّه بن جعفر الذي ولدته أمه بأرض الحبشة ، وهو أول مولود ولد في الإسلام بها ، وقدم مع أبيه على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عام خيبر ، فسمع منه وحفظ عنه ، وكانت خيبر سنة سبع من الهجرة.
٤- دل قول اللّه تعالى : وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ على وجوب نفقة الولد على الوالد ، والزوجة على زوجها. و
في البخاري عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « أفضل الصدقة ما ترك غنى ، واليد العليا خير من
ج ٤ ، ص : ٢٥٥
اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، تقول المرأة : إما أن تطعمني ، وإما أن تطلّقني ، ويقول العبد : أطعمني واستعملني ، ويقول الابن : أطعمني إلى من تدعني »
قال المهلّب : النفقة على الأهل والعيال واجبة بإجماع.
قال ابن المنذر : واختلفوا في نفقة من بلغ من الأبناء ولا مال له ولا كسب ، فقالت طائفة : على الأب أن ينفق على ولده الذكور حتى يحتلموا ، وعلى النساء حتى يتزوّجن ويدخل بهن. فإن طلقها بعد البناء أو مات عنها فلا نفقة لها على أبيها ، وإن طلقها قبل البناء فهي على نفقتها.
وقال مالك : ولا نفقة لولد الولد على الجدّ. وقالت طائفة : ينفق على ولد ولده حتى يبلغوا الحلم والمحيض ، ثم لا نفقة عليه إلا أن يكونوا زمنى ، وسواء في ذلك الذكور والإناث ما لم يكن لهم أموال. وهذا قول الشافعي.

(٤/٢٦٦)

و أوجبت طائفة النفقة لجميع الأطفال والبالغين من الرجال والنساء إذا لم يكن لهم أموال يستغنون بها عن نفقة الوالد ، لظاهر قوله عليه الصلاة والسلام لهند فيما رواه الأئمة عن عائشة : « خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف » .

٥- القول المعروف للمولى عليهم : وهو تليين الخطاب والوعد الجميل أو الحسن بأن ينصحهم الولي ويعظهم ، ويقول لهم : إن رشدتم دفعنا إليكم أموالكم.

وأرشدت الآية : وَابْتَلُوا الْيَتامى إلى ما يأتي :

١- اختبار الأيتام وتدريبهم على حسن التصرف بالأموال قبل دفع أموالهم إليهم. والاختبار يكون قبل البلوغ في رأي أبي حنيفة والشافعي. وبعد البلوغ في رأي مالك.

ومعنى الاختبار قيل فيه : هو أن يتأمل الوصي أخلاق يتيمه ، ويستمع إلى أغراضه ، فيحصل له العلم بنجابته ، والمعرفة بالسعي في مصالحه وضبط ماله ،

ج ٤ ، ص : ٢٥٦

و الإهمال لذلك. فإذا توسم الخير فلا بأس أن يدفع إليه شيئا من ماله يبيح له التصرف فيه ، فإن نمّاه وحسّن النظر فيه فقد وقع الاختبار ، ووجب على الوصي تسليم جميع ماله إليه. وإن أساء النظر فيه وجب عليه إمساك ماله عنده. وقال الحسن ومجاهد وغيرهم : اختبروهم في عقولهم وأديانهم وتنمية أموالهم.

٢- إيناس الرشد بعد البلوغ ، والبلوغ يكون بخمسة أشياء : ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء وهي الاحتلام والسن والإنبات ، واثنان يختصان بالنساء ، وهما الحيض والحبل ، فأما الحيض والحبل فلم يختلف العلماء في أنهما بلوغ ، وأن الفرائض والأحكام تجب بهما. واختلفوا في الثلاث :

فأما الإنبات والسن فقال الأوزاعي والشافعي وابن حنبل : خمس عشرة سنة بلوغ لمن لم يحتلم ، بدليل

أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم- فيما أخرجه مسلم- أجاز ابن عمر في الجهاد يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولم يجزه يوم أحد لأنه كان ابن أربع عشرة سنة.

و قال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : لا يحكم لمن لم يحتلم حتى يبلغ ما لم يبلغه أحد إلا احتلم ، وذلك سبع عشرة سنة فيكون عليه حينئذ الحد إذا أتى ما يوجب عليه الحد. وفي رواية أخرى عن أبي حنيفة وهي الأشهر : تسع عشرة سنة.

وأما الإنبات فمنهم من قال : يستدل به على البلوغ ، وهو قول أحمد ، وأحد قولي الشافعيو مالك.

والقول الآخر : لا بد من اجتماع الإنبات والبلوغ ، قال أبو حنيفة : لا يثبت بالإنبات حكم ، وليس هو ببلوغ ولا دلالة على البلوغ.

٣- الرشد : هو في رأي الحسن البصري وقتادة وغيرهما : صلاح في العقل والدين. وفي رأي ابن عباس والسّدّي والثوري : صلاح في العقل وحفظ المال.

وأكثر العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم ، وإن شاخ لا يزول الحجر عنه ، وهو مذهب الجمهور.

ج ٤ ، ص : ٢٥٧

و قال أبو حنيفة وزفر والنخعي : لا يحجر على الحر البالغ إذا بلغ مبلغ الرجال ، ولو كان أفسق الناس وأشدهم تبذيرا إذا كان عاقلا ، واحتجوا بحديث أنس أن حبّان بن منقذ كان يبتاع وفي عقدته « ١ » ضعف ، فقيل : يا رسول اللّه ، احجر عليه : فإنه يبتاع وفي عقدته ضعف ، فاستدعاه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم

فقال : لا تبع ، فقال : لا أصبر ، فقال له : « فإذا بايعت فقل : لا خلابة « ٢ » ، ولك الخيار ثلاثا » فلم يحجر عليه مع أنه كان يغبن ، فثبت أن الحجر لا يجوز.

ورد القرطبي بقوله : وهذا لا حجة لهم فيه لأنه مخصوص بذلك ، فغيره بخلافه.

وقال الشافعي : إن كان مفسدا لماله ودينه ، أو كان مفسدا لماله دون دينه حجر عليه ، والأظهر أنه إن كان مفسدا لدينه ، مصلحا لماله ، حجر عليه أيضا.

٤- إن دفع المال للمحجور عليهم يكون بشرطين : إيناس الرشد والبلوغ ، فإن وجد أحدهما دون الآخر لم يجز تسليم المال إليهم ، بنص الآية ، وهو قول جماعة الفقهاء إلا أبا حنيفة وزفر والنخعي ، فإنهم أسقطوا إيناس الرشد ببلوغ خمس وعشرين سنة ، قال أبو حنيفة : لكونه جدا.

ورد ابن العربي « ٣ » بقوله : هذا ضعيف لأنه إذا كان جدا ، ولم يكن ذا جدّ « ٤ » ، فما ذا ينفعه جدّ النسب ، وجدّ البخت فائت ؟ ! واختلف العلماء في دفع المال إلى المحجور عليه ، هل يحتاج إلى السلطان أم لا ؟ فقالت فرقة : لا بد من رفعه إلى السلطان ، ويثبت عنده رشده ثم يدفع

---

(١) أي في رأيه ونظره في مصالح نفسه.

(٢) أي لا خديعة.

(٣) أحكام القرآن : ١/ ٣٢٢

(٤) الجد هنا الحظ والبخت.

ج ٤ ، ص : ٢٥٨

إليه ماله. وقالت فرقة : ذلك موكول إلى اجتهاد الوصي دون أن يحتاج إلى رفعه إلى السلطان.

وإذا سلّم المال إليه بوجود الرشد ، ثم عاد إلى السفه بظهور تبذير وقلة تدبير عاد إليه الحجر عند المالكية ، وعند الشافعية في قول. وقال أبو حنيفة :

لا يعود لأنه بالغ عاقل ، بدليل جواز إقراره في الحدود والقصاص. ودليل الرأي الأول قوله تعالى : وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ وقوله عز وجل :

فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً [البقرة ٢/ ٢٨٢].

ويجوز للوصي أن يصنع في مال اليتيم ما كان للأب أن يصنعه من تجارة وشراء وبيع ، وعليه أن يؤدي الزكاة من سائر أمواله ، ويؤدي عنه أروش (تعويضات) الجنايات وقيم المتلفات ، ونفقة الوالدين وسائر الحقوق اللازمة ، ويجوز أن يزوجه ويؤدي عنه الصداق.

٥- نهى اللّه تعالى الأوصياء عن أكل أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم ، فلا يجوز لهم الإسراف والتبذير : وهو الإفراط ومجاوزة الحد.

٦- أمر اللّه تعالى الغني بالإمساك عن أخذ شيء من مال اليتيم ، وأباح للوصي أن يأكل من مال موليه بالمعروف. والأكل بالمعروف كما قال الحسن البصري : أن يأكل ما يسدّ جوعته ، ويكتسي ما يستر عورته ، ولا يلبس الرفيع من الكتان ولا الحلل. بدليل إجماع الأمة على أن الإمام الناظر للمسلمين لا يجب عليه غرم ما أكل بالمعروف لأن اللّه تعالى قد فرض سهمه في مال اللّه.

٧- أمر اللّه تعالى بالإشهاد عند دفع المال تنبيها على التحصين وزوالا للتّهم.

وهذا الإشهاد مستحب عند طائفة من العلماء فإن القول قول الوصي لأنه أمين. وقالت طائفة : هو فرض عملا بظاهر الآية ، وليس بأمين فيقبل قوله.

ج ٤ ، ص : ٢٥٩

٨- كما أن على الوصي والكفيل حفظ مال يتيمه وتثميره ، كذلك عليه حفظ الصبي في بدنه ، فالمال يحفظه بضبطه ، والبدن يحفظه بأدبه.

روي أن رجلا قال للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إن في حجري يتيما أأكل من ماله ؟ قال : « نعم غير متأثل « ١ » مالا ، ولا واق مالك بماله » قال : يا رسول اللّه ، أفأضربه ؟ قال : « ما كنت ضاربا منه ولدك » « ٢ » .

٩- كفى اللّه حاسبا لأعمال الناس ومجازيا بها ، وفي هذا وعيد لكل جاحد حق.

حقوق الورثة في التّركة وحقوق المحتاجين والأيتام والقرابة غير الوارثين [سورة النساء (٤) : الآيات ٧ الى ١٠]

لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (٧) وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠)

---

(١) متأثل : جامع.

(٢) قال ابن العربي (أحكام القرآن : ١/ ٣٢٧) : وإن لم يثبت مسندا فليس يجد أحد عنه ملتحدا ، أي منصرفا.

ج ٤ ، ص : ٢٦٠

الإعراب :

نَصِيباً مَفْرُوضاً منصوب بفعل مقدر دلّ عليه الكلام لأن قوله تعالى : لِلرِّجالِ نَصِيبٌ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ معناه : جعل اللّه لهم نصيبا مفروضا. ويصح كونه حالا ، وهو أولى من التقدير. فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ الهاء في مِنْهُ تعود إلى القسمة ، وإن كانت القسمة مؤنثة لأنها بمعنى المقسوم ، فلهذا عاد إليها الضمير بالتذكير ، حملا على المعنى ، وهذا كثير في كلام العرب.

البلاغة :

يوجد طباق بين قوله : قَلَّ وكَثُرَ.

ويوجد إطناب في قوله : لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ .. وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ.

المفردات اللغوية :

لِلرِّجالِ الأولاد والأقرباء. نَصِيبٌ حظ. مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ المتوفون. مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أي من المال. نَصِيباً مَفْرُوضاً أي جعله اللّه نصيبا مقطوعا بتسليمه إليهم. وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ للميراث. أُولُوا الْقُرْبى ذوو القرابة غير الوارثين. فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ شيئا قبل القسمة. وَقُولُوا لَهُمْ أيها الأولياء للورثة الصغار. قَوْلًا مَعْرُوفاً جميلا بأن تعتذروا إليهم أنكم لا تملكونه ، وأنه للصغار. وهذا الإعطاء ندب ، وعن ابن عبّاس : واجب.

وَلْيَخْشَ ليخف على اليتامى ، الخشية : الخوف مع تعظيم المخوف حال الأمن.

لَوْ تَرَكُوا أي قاربوا أن يتركوا. مِنْ خَلْفِهِمْ أي بعد موتهم. ذُرِّيَّةً ضِعافاً أولادا صغارا. خافُوا عَلَيْهِمْ الضياع. فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ في أمر اليتامى وليأتوا إليهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم من بعدهم. وَلْيَقُولُوا لمن حضرته الوفاة. سَدِيداً صوابا محكما ، والمراد موافقا للدين « ١ » . ظُلْماً بغير حق. وَسَيَصْلَوْنَ سيحرقون ، من أصلاه : أراد إحراقه ، ومنه صلى اللحم : شواه ، وصلى يده : أدفأها ، واصطلى : استدفأ. سَعِيراً نارا مستعرة مشتعلة.

---

(١) والسّداد (بالكسر) : ما يسد به الشيء كالثغر (موضع الخوف من العدو) والقارورة. ومن قولهم : فيها سداد من عوز : أي فيها الكفاية.

ج ٤ ، ص : ٢٦١

سبب النزول :

نزول الآية (٧) :

لِلرِّجالِ نَصِيبٌ : أخرج أبو الشيخ (أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن جعفر بن حيان الأصفهاني المولود سنة ٢٧٤ هـ) وابن حبّان في كتاب الفرائض عن ابن عبّاس قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار الذكور حتى يدركوا فمات رجل من الأنصار يقال له أوس بن الثابت ، وترك ابنتين وابنا صغيرا ، فجاء ابنا عمه : خالد وعرفطة « ١ » ، وهما عصبة ، فأخذا ميراثه كله ، فأتت امرأته أم كحلة « ٢ » رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فذكرت له ذلك ، فقال : ما أدري ما أقول ، فنزلت : لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ.

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عبّاس سببا آخر لنزول الآية مفاده أن الآية أمر لمن حضر المريض من العواد عند الإيصاء أن يذكره بالوصية لذوي قرابته الذين لا يرثون ، يوصي لهم بالخمس أو الربع ، ولا يأمره بالتصدق من ماله ، أو بالإعطاء منه في سبيل اللّه.

نزول الآية (١٠) :

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ : قال مقاتل بن حيان : نزلت في رجل من غطفان يقال له : مرثد بن زيد ، ولي مال ابن أخيه ، وهو يتيم صغير ، فأكله ، فأنزل اللّه فيه هذه الآية.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى حرمة أكل أموال اليتامى وأمر بإعطائهم أموالهم إذا رشدوا ،

---

(١) في بعض الكتب كالقرطبي : عرفجة وسويد.

(٢) في تفسير ابن كثير : أم كحّة ، وفي تفسير القرطبي : أم كجّة.

أكّد تحريم أكلها ، وأوضح أن المال الموروث الذي يحفظه الأولياء لليتامى يشترك فيه الرجال والنساء ، وقد كانوا في الجاهلية لا يورّثون النساء والأولاد الصغار ، ويقولون : لا يرث إلا من طاعن بالرماح وحاز الغنيمة. قال سعيد بن جبير وقتادة :

كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا ، فأنزل اللّه : لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ ...

التفسير والبيان :

إذا كان لليتامى مال مما تركه الوالدان والأقربون ، فهم فيه سواء ، لا فرق بين الذكور والإناث ، ولا فرق بين كونه كثيرا أو قليلا ، فالجميع فيه سواء في حكم اللّه تعالى مهما قلّ المال ، يستوون في أصل الوراثة ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض اللّه لكل منهم ، بما يدلي به إلى الميت من قرابة أو زوجية.

ثم أكد تعالى هذا الحق للجميع بقوله : نَصِيباً مَفْرُوضاً للدلالة على أنه حق معين محتوم مقطوع به ، ليس لأحد إنقاصه.

ثم عالج القرآن الكريم ناحية نفسية وهي كراهية حضور الأقارب مجلس قسمة التركة ، فقرر أنه إذا حضر قسمة التركة أحد من ذوي القربى للوارثين واليتامى والمساكين ، فأعطوهم شيئا من المال ولو قليلا ، وقولوا لهم قولا حسنا واعتذارا جميلا يهدئ النفوس ، وينتزع الحقد والسخيمة ، ويستأصل الحسد من النفس.

والمراد بالقسمة : قسمة التركة بين الورثة ، وأولو القربى : من لا يرثون لكونهم محجوبين أو لكونهم من ذوي الأرحام ، والمأمور بهذا هو الولي أو اليتيم عند البلوغ وتسلم المال. والضمير في قوله : فَارْزُقُوهُمْ

مِنْهُ يرجع إلى ما ترك الوالدان والأقربون ، أو إلى القسمة بمعنى المقسوم باعتبار معناها ، لا باعتبار

ج ٤ ، ص : ٢٦٣

لفظها مثل قوله تعالى : ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ [يوسف ١٢/ ٧٦] أي السقاية.

وذهب جمهور المفسرين منهم ابن عباس وسعيد بن جبير إلى أن الآية محكمة غير منسوخة ، وأن الأمر بالإعطاء للوجوب ، عملا بظاهر الأمر ، وقد هجره الناس ، كما هجروا الاستئذان عند دخول البيوت ، والمخاطب بهذا الوارث الكبير وولي الصغير.

و قال الحسن البصري والنّخعي : الأمر منصب على الأعيان المنقولة ، وأما الأرضون فلا يعطون منها شيئا ، وإنما يكتفى بالقول المعروف.

وذهب فقهاء الأمصار إلى أن هذا الإعطاء مندوب طولب به الكبار من الورثة لأنه لو كان لهؤلاء حقّ معين لبيّنه اللّه تعالى كما بيّن سائر الحقوق ، وحيث لم يبيّن علمنا أنه غير واجب. وأيضا لو كان واجبا لتوافرت الدواعي على نقله لشدة حرص الفقراء والمساكين ، ولو كان ذلك لنقل إلينا على سبيل التواتر ، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا ، أنه ليس بواجب.

وقال سعيد بن المسيب والضّحاك وابن عباس في رواية عطاء عنه : الآية منسوخة بآية المواريث : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ .. إلخ.

وعلاجا لمرض نفسي آخر وهو تحامل النفس كثيرا على اليتيم والقسوة عليه ، أمر اللّه الأولياء والأوصياء القائمين على اليتامى بالقول السديد لهم بأن يكلموهم كأولادهم بالأدب الحسن ، والمناداة لهم بكلمة : يا ابني أو يا ولدي ونحو ذلك ، وليتذكروا أنهم مقاربون أن يتركوا أولادهم من بعد موتهم ، ويخافوا عليهم الإهمال والضياع ، وليتقوا اللّه في اليتامى الذين يلونهم ، فيعاملونهم بمثل ما يحبون أن تعامل به ذريتهم الضعاف بعد وفاتهم.

ج ٤ ، ص : ٢٦٤

و يكون المقصود بالآية حث الأولياء على حفظ أموال اليتامى وإحسان القول إليهم ، بتذكيرهم حال أنفسهم وذرياتهم من بعدهم ليتصوروها ويعتبروا بها ، وذلك من أقوى البواعث على العظة والاعتبار ، فالإنسان كما يدين يدان ، وهو مطالب بأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به.

وتكون الآية مرتبطة بما قبلها لأن قوله تعالى : لِلرِّجالِ نَصِيبٌ في معنى الأمر للورثة ، أي أعطوهم حقهم ، وليحفظ الأوصياء ما أعطوه ، ويخافوا عليهم كما يخافون على أولادهم.

ثمّ أكّد اللّه تعالى الأوامر والنواهي السابقة وقررها وذكّر بالعقاب الشديد لمن يأخذ مال اليتيم ظلما بغير حق ، وهو دخول النار وإحراقهم بها ، وهي نار مستعرة شديدة الإحراق ، وقودها الناس والحجارة ، وقانا اللّه منها.

وذكر البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها يقصد به إما ملء بطونهم نارا للنهاية ، وإما للتأكيد والمبالغة ، كما في قوله تعالى : يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ [آل عمران ٣/ ١٦٧] ، والقول لا يكون إلا بالفم ، وقوله : وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج ٢٢/ ٤٦] ، والقلوب لا تكون إلا في الصدور ، وقوله : وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ [الأنعام ٦/ ٣٨] ، والطير لا يطير إلا بجناحين ، الغرض من ذلك كله التأكيد والمبالغة ، كما أن فيه تبشيعا لأكل مال اليتيم في حالة الظلم.

وفي تقييد الأكل بحالة الظلم دلالة على مشروعية أخذ مال اليتيم بحق ، كأجرة العمل ، والقرض مثلا ، وذلك لا يعدّ ظلما ولا الآكل الآخذ ظالما.

والتعبير بالأكل يقصد به جميع وجوه الانتفاع والإتلاف والاستهلاك ، ولكن عبّر به لأنه أهم حالات الانتفاع.

ج ٤ ، ص : ٢٦٥

و التعبير بكلمة ناراً عند جمهور المفسرين على طريق المجاز المرسل ، من قبيل ذكر المسبب وإرادة السبب لأن الإشارة في الآية إلى أكل واحد.

وظاهر الآية أن الحكم عام لكل من يأكل ما اليتيم ، سواء أكان مؤمنا أم كافرا. وإذا قيل بأن الآية نزلت في أهل الشرك فخصوص السبب لا يخصص ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وورد في بعض الأخبار أنه لما نزلت هذه الآية ، تحرّز الناس من مخالطة اليتامى ، حتى شق ذلك على اليتامى أنفسهم ، فأنزل اللّه تعالى : وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ [البقرة ٢/ ٢٢٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآية : لِلرِّجالِ نَصِيبٌ على ما يأتي :

١- قال المالكية : في هذه الآية فوائد ثلاث :

إحداها- بيان علّة الميراث وهي القرابة.

الثانية- عموم القرابة كيفما تصرّفت من قريب أو بعيد.

الثالثة- إجمال النصيب المفروض ، وذلك مبين في آية المواريث فكان في هذه الآية توطئة للحكم ،

وإبطال لذلك الرأي الفاسد حتى وقع البيان الشافي « ١ » .

٢- إثبات الحق المقرر في الميراث لكلّ من الرّجال والنّساء ، إبطالا لعادة أهل الجاهلية الذين كانوا يورثون الرّجال ، ويحرمون النساء والصغار ، فالمراد من الرّجال في الآية : الذكور البالغون ، والمقصود من الوالدين : الأب والأم بلا واسطة ، ومن النساء : الإناث البالغات. ويكون معنى الآية : للذكور

---

(١) تفسير القرطبي : ٥/ ٤٦

ج ٤ ، ص : ٢٦٦

البالغين نصيب مما ترك آباؤهم وأمهاتهم وأقاربهم كإخوتهم وأخواتهم وأعمامهم وعماتهم ، وللإناث البالغات كذلك نصيب مما ترك آباؤهن. فالإرث مشترك بين الرّجال والنّساء. وهذا القول فيه إبقاء للآية على ظاهرها ، ويكون القصد من الآية إلغاء عادة الجاهلية.

والتّنصيص على النساء اعتناء بشأنهن ، وتقرير لأصالتهن في استحقاق الإرث ، ومبالغة في إبطال حكم الجاهلية بتخصيص الإرث في الرّجال لأنهم المحاربون الغازون.

وعمم بعض العلماء الحكم في الرّجال والنّساء ، فجعل المراد من الرّجال :

الذّكور مطلقا ، سواء أكانوا كبارا أم صغارا ، والمراد من النساء : الإناث مطلقا ، ويكون المراد التّسوية بين الذّكور والإناث في أن لكلّ منهما حقّا فيما ترك الوالدان والأقربون. وهذا ما أميل إليه.

٣- تدلّ الآية للحنفيّة القائلين بتوريث ذوي الأرحام لأن العمات والخالات وأولاد البنات من الأقربين ، فوجب إثبات حق الإرث لهم المقرر بقوله تعالى : مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ.

٤- حق الإرث ثابت في قليل التركة وكثيرها ، وهو حق مشاع لجميع الورثة ، لا يختص بعضهم بشيء من الأموال كالسيف والخاتم والمصحف واللباس البدني.

ودلّ قوله تعالى أيضا : مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ على إثبات حق الإرث للبنات ، وأما مقدار الحق ، فأبانته آيات المواريث الأخرى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ [النساء ٤/ ١١]. و

لما نزلت آية : مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أرسل النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى سويد وعرفجة ألا يفرّقا من مال أوس شيئا فإن اللّه جعل لبناته نصيبا ، ولم يبيّن كم هو ، حتى أنظر ما ينزل ربّنا. فنزلت : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ..

ج ٤ ، ص : ٢٦٧

إلى قوله تعالى : الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، فأرسل إليهما : « أن أعطيا أم كجّة الثّمن مما ترك أوس ، ولبناته الثلثين

، ولكما بقية المال » .

واستدلّ بعض المالكية والشافعية والحنفية بهذه الآية : مِمَّا قَلَّ مِنْهُ على وجوب قسمة الشيء الصغير للقسمة كالحمام والبيت. ورأى ابن أبي ليلى وأبو ثور وابن القاسم : أن كل ما لا ينقسم من الدور والمنازل والحمامات ، وفي قسمته الضرر ولا ينتفع به إذا قسم : أن يباع ولا شفعة فيه لقوله عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه أحمد والبخاري عن جابر : « الشّفعة في كلّ ما لا يقسم ، فإذا وقعت الحدود فلا شفعة »

فجعل عليه الصلاة والسّلام الشفعة في كل ما يتأتى فيه إيقاع الحدود ، وعلّق الشفعة فيما لم يقسم مما يمكن إيقاع الحدود فيه. وهذا الرأي هو المعقول دفعا للضرر ، قال ابن المنذر : وهو أصح القولين.

وأرشدت آية : وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ إلى الآتي :

١- كلّ من لم يستحق شيئا إرثا وحضر القسمة ، وكان من الأقارب أو اليتامى والفقراء الذين لا يرثون : يكرم ولا يحرم ، إن كان المال كثيرا ، والاعتذار إليهم إن كان عقارا أو قليلا لا يقبل الرضخ « ١ » .

و إن كان عطاء من القليل ففيه أجر عظيم درهم يسبق مائة ألف. فالآية على هذا القول محكمة ، كما قال ابن عبّاس.

وروي عن ابن عبّاس : أنها منسوخة ، نسخها قوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ .. [النساء ٤/ ١١]. وقال سعيد بن المسيب : نسختها آية الميراث والوصية. قال القرطبي : والرأي الأول أصح فإنها مبيّنة استحقاق الورثة لنصيبهم ، واستحباب المشاركة لمن لا نصيب له ممن حضرهم.

---

(١) الرضخ هنا : العطاء القليل.

ج ٤ ، ص : ٢٦٨

٢- إذا كان الوارث صغيرا لا يتصرف في ماله ، فقالت طائفة : يعطي ولي الوارث الصغير من مال محجوره بقدر ما يرى. وقيل : لا يعطي ، بل يقول لمن حضر القسمة : ليس لي شيء من هذا المال ، إنما هو لليتيم ، فإذا بلغ عرّفته حقّكم ، فهذا هو القول المعروف. وهذا إذا لم يوص الميت له بشيء ، فإن أوصى يصرف له ما أوصى.

٣- القول المعروف مطلوب مع جميع الناس ، ويتأكد طلبه مع الأقارب.

وهو القول الجميل والاعتذار اللطيف.

وأومأت آية : وَلْيَخْشَ إلى ما يأتي :

١- الآية تذكير بالمعاملة بالمثل مع أولاد الأوصياء ، فهذا كما قال ابن عبّاس وعظ للأوصياء ، أي افعلوا باليتامى ما تحبون أن يفعل بأولادكم من بعدكم ، ولهذا قال اللّه تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً.

٢- القول السديد : وهو العدل والصواب من القول وهو مرغوب فيه في تربية اليتامى ، فلا ينهرهم الولي ولا يستخف بهم.

ودلّت آية : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ على ما يأتي :

١- تحريم أكل مال اليتامى ظلما ، فقد دلّ الكتاب والسّنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر ، قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الشيخان وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة : « اجتنبوا السبع الموبقات » وذكر منها : « و أكل مال اليتيم » .

(٤/٢٧٩)